

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIETE EGYPTIENNE D'ETUDES HISTORIQUES

المجلد، التاريخية المصرية

يشرف على تحريرها

محمد مصطفى زيادة

نائب رئيس الجمعية

أحمد محمد عيسى

سكرتير التحرير

أحمد بدوي

رئيس الجمعية

إبراهيم نصحي

أمين عام

١٩٦٥ — ١٩٦٤

المجلد الثاني عشر

ترجو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية من أعضائها استلام نسخاتهم تباعا من هذه
المجلة، بحق عضويتهم السنوية بالجمعية، ٢ شارع ناصر الدين المرفوع من شارع البستان بالقاهرة .
وتقوم دار المعرفة، ١٥ شارع صبرى أبو علم بالقاهرة، ببيع المجلة بسعر التكلفة لغير الأعضاء.

obeykanda.com

محتوى هذا العدد

بحوث :

- | صفحة | |
|-----------|---|
| ٧ — ٤٢ | ١ — التجميل عند قدماء المصريين
د . عبد الحميد زايد |
| ٤٣ — ٥٧ | ٢ — أحمد كمال العالم الأثرى الأول في مصر
د . محمد جمال الدين مختار |
| ٥٩ — ١١٠ | ٣ — دراسات في النقود الإسلامية
د . سيّدة إسماعيل كاشف |
| ١١١ — ١١٨ | ٤ — المرحلة الأفريقية في تاريخ المرابطين
د . حسن أحمد محمود |
| ١١٩ — ١٢٧ | ٥ — دولة سلاطين الماليك الأتراك في الهند
د . مختار العبادى |
| ١٢٩ — ١٤٠ | ٦ — الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في
المحيط الهندي وشرق أفريقيا والبحر الأحمر
الشاطر بصيلي عبد الجليل |
| ١٤١ — ١٦٦ | ٧ — الأحوال الاجتماعية والنظم الإدارية في الجزائر
قبيل الغزو الفرنسي
د . صلاح العقاد |

صفحة

١٦٧—١٩٠

٨ — الأصول التاريخية لقضية عمان

د . جمال زكريا قاسم

نصوص :

١٩١—٢٠٢

١ — حجة تمليك ووقف

حسنين محمد ربيع

٢٠٣—٢٣٠

٢ — مقتبسات مختارة من ابن إياس

د . محمد مصطفى زيادة

البحوث

obeykanda.com

التجميل عند قدماء المصريين

سوف أحاول في تلك النظرة العابرة أن أعرض صوراً من حياة الناس في مصر القديمة عرضاً سريعاً لا عسر فيه ولا جمود ، أقدمه سهلاً مبسطاً لمحبي الفنون لينير لهم الطريق إلى معرفة طرف من حضارة ذلك الشعب الكريم الذي أحبه الله فرفعه وجعله إمام شعوب الدنيا حينما كان يتيه العالم في ظلمات من الجهل والضلال ، وليعلم أبناء ذلك الجيل أن نيلهم العظم ساهم في تقديم أول حضارة عرفها الإنسان وقد شهد التاريخ بثبوتها وصبرها على الشدائد والمحن وخلودها مع الزمن .

إن المصريين القدماء فهموا الحياة أحسن الفهم ، وقد دفعهم فناء الحياة الدنيا إلى التفكير في الآخرة ، كما دعاهم هذا الفناء إلى التعلق بها . من أجل ذلك لم يكن ما أودعوه دور الآخرة من متاع الدنيا وزخرفها إلا نتيجة حبهم لها . والقبر لم يكن إلا صورة صادقة لما يقوم في حياة الناس العامة والخاصة ، فملئت صفحات القبور بالرسوم والصور الدنيوية إلى جانب تصوير الحياة الأخروية ، وحفظت بها التماثيل والدمى وأدوات الزينة والتجميل وغيرها .

سنرى أيها القارئ الكريم في تلك الصور الحية من مخلفات المصريين القدماء ما كان يشيع في حياتهم من الاهتمام بالكماليات ، وذلك إلى جانب الأعمال العظيمة التي قاموا بها . سنعرف أن النحات المصري حينما قام بنحت أدوات الزينة أراد أن يقدم صوراً من تفكيره واتجاهاته وتصرفه واقتباسه مما يدور حوله من نبات وحيوان وطير ، يتخذ من أشكالها قواريير وأواني وأوعية تضم كحل العيون أو العطور أو المساحيق .

كان للمرأة المصرية القديمة ما للرجل من حقوق وعليها ما عليه من واجبات ، لم تكن مهصورة الجناح ، وكثيراً ما عمل الرجل على إدخال السرور على زوجته ، فقدم لها أطيب العطور ، وتفانى في إسعادها فهذا بتاح حتب يقول لولده حينما يوصيه بالمرأة « والعطر خير دواء لجسدها » .

لم تخل مخلفات عصر التأسيس والدولة القديمة من تسجيل مناظر الزينة وأدواتها ، وما تكاد حياة الناس في الأيام الأخيرة من الدولة القديمة تنطلق من

عقال الحشمة وتنغمس في اللهو والترف ، حتى أخذوا يرفعون النقاب عن كل شيء ، فسجلوا ما استتر من حياتهم على جدران المقابر . وما أن جاءت الدولة الحديثة حتى تفنن الناس في إخراج الكماليات الخاصة بالزينة من صناديق وقوارير وأواني ومغارف ومرادو وإبر ومرايا من خشب وعاج ونحاس وبرونز وذهب وفضة ومختلف أنواع الحجارة .

نشأت منذ مطلع التاريخ دور للصناعة كانت كعبتها (منف) ، وانتشرت تحت رعاية إلهها (بتاح) ، وعده المصريون رباً للفنون ، وقد ازدهرت فيها على الأخص — صناعة الصائغين والأدوات الدقيقة منذ أيام الدولة الحديثة .

لم يقصد الفنان في مصر القديمة أن يودع فيه الجميل هذا الخزان ، بل أراد أن يتمتع نفسه به ، فما صور الناس وتمثيلهم إلا أدلة واضحة على أنهم كانوا يظهرون في أكمل زينة رجلا كان أم امرأة ، فقد تساوى الإثنان في التزين بالعقود والأقراط والأساور والخواتم ، وفي كحل العيون واستخدام بعض العطور وأدوات التجميل .

بلغت صناعة أدوات الزينة وغيرها من التحف الأخرى أقصى ما كان ينظر لها من كمال أيام الدولة الحديثة ، فتعددت أشكالها فتارة نجدها قد حاكت بعض أنواع من الزهر ، وتارة بعض أنواع من الحيوان ، وتارة بعض أنواع من الطير .

سنرى من هذا العرض الخاطف . كيف بذل أبناء مصر الفرعونية من جهد وصبر رغم قلة ما أتيح لهم من وسائل القطع والنحت . ولا أحب أن أختم هذا التقديم قبل أن أقرر هنا أن شعبنا حقاً شعب ممتاز .

مواد التجميل والعطور : (١) :

عرف الناس في مصر منذ فجر التاريخ مواد التجميل من كحل وخضابات أو مساحيق أو زيوت معطرة . كل ذلك إدخرته لنا الأيام ليكون دليلاً على اهتمام المصريين بحياتهم الخاصة .

(1) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, p. 99—118.

١ — الكحل:

أكثر أنواع الكحل انتشاراً (الملوخيت Malachite) ، وهو خام أخضر من خامات النحاس ، وكذلك (الجالينا Galina) ، وهو خام أشهب قاتم من خامات الرصاص . وأولهما كان الأقدم إذ عثر عليه منذ العصر (التاسي) ، إلا أن ثانيهما حل محله في آخر الأمر وأصبح هو مادة الكحل الرئيسية في الوادي كله .

وجد كلاهما فيما خلفه الناس في مصر القديمة في المقابر على أشكال مختلفة ، فقد عثر على قطع صغيرة من المادة الخام ، وكذلك على بقايا منهما على الأحجار أو اللوحات التي كان يسحق عليها .

و كثيراً ما كان يوضع (الملوخيت والجالينا) خاماً في أكياس صغيرة من الكتان أو الجلد ، كما وجد في أصداف أو في أواني صغيرة ذات أشكال مختلفة . و كثيراً ما وجد الكحل على شكل كتل اتخذت أشكال الأواني التي حفظت بها ، بل أحياناً ظهرت عليها بعض العلامات التي كانت بداخل هذه الأوعية . كل ذلك دليل على أن هذه المركبات كانت أصلاً عجائز ثم جفت . على أننا لم نعرف حتى الآن المادة التي كان يمزج بها المسحوق الناعم لتكوين العجينة ، ومن المحتمل أنهم استخدموا الماء أو الصمغ أوهما معاً ، ومن الجائز أيضاً أنهم إستعملوا مادة دهنية في تثبيت الكحل على الحواجب وحول العين .

وذكر بعض مؤرخي الرومان أن الكحل المصري كان في أيامهم مركباً من أسود الدخان (السناج) ، وذلك بإحراق نوع رخيص من الكتان أو قشر اللوز . ولا زال الكحل المصري في وقتنا هذا يصنع من (السناج) المنبعث من الزيوت المحروقة أو بعض أنواع من الأخشاب . أما عن طريقة استخدامه فمن المحتمل أن الكحل أولاً كان يوضع حول العين بالإصبع ، ثم بواسطة عود صغير من الخشب أو العظم أو العاج أو المعدن ، يوضع طرفه في مادة دهنية ثم يغمس في المسحوق .

أحضر المصريون (الملوخيت) من صحراء سيناء والصحراء الشرقية ، أما (الجالينا) فعثر عليه بالقرب من أسوان وعلى ساحل البحر الأحمر . كما أنهم

استوردوا كحل العين أيام الأسرة الثانية عشرة من آسيا (١) ، وأثبتت النصوص الهيروغليفية أنهم حصلوا عليه أيام الأسرة الثامنة عشرة من بلاد ما بين النهرين (٢) ، وكذلك من بلاد (بنت (٣) = الصومال ؟)

٢ — طلاءات الوجه :

ظهرت المرأة المصرية في العصور القديمة كحيلة العين ، كما زينت وجنتها بمساحيق حمراء اللون . كذلك كانت تطلّي الشفاه بمسحوق أو عجينة حمراء وكانت توضع هذه المادة على الشفاه إما بالإصبع أو بنوع من الفرجون الصغير . أما عن المادة التي كانت تستعمل في هذا الشأن فهي أكسيد الحديد الأحمر وكان يوجد في الطبيعة وهي المغرة الحمراء . ووجدت منها آثار على بعض اللوحات التي كانت تستخدم لسحن المساحيق الخاصة بالزينة .

كذلك عثر على مسحوق أبيض في إناء صغير عام ١٩٤٥ (بتانيس) بالوجه البحري وبعد أن حلل كياويا عام ١٩٥٠ ثبت أنه من الحجر الجيري خلط بمادة دهنية لتبقى فترة طويلة على الوجه . أما عن الإناء الذي عثر عليه فقد كان من الذهب لأحد القواد من الأسرة الحادية والعشرين واسمه (أون دباندز) . عثر عليه في حفائر (دير المدينة (٤)) بالضفة الغربية للأقصر على أواني زرقاء على هيئة صحاف . وكانت تستعمل ضمن أدوات التجميل . ووجد على جزء من هذه الأواني مواد صلبة . وقد أذيت هذه المواد فخرجت رائحة قوية قريبة الشبه برائحة اللبن ، وصار الماء لبنيا .

وإذا ثبت ذلك ، كان اللبن ضمن المواد التي إستخدمها المصريون القدماء في التجميل ، بعد إضافة عقاقير أخرى ليصبح صالحاً للاستعمال الخاص بترطيب البشرة . وأن ما تستعمله السيدات في عصرنا الحديث من كريم سائل . أو على هيئة عجائن لبنية يضاف إليه اللبن ، قريب الشبه بما عثر عليه عند المصريين القدماء .

(1) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt I, p. 281,

(2) J. H. Breasted, Ibid., II, 501.

(3) J. H. Breasted, Ibid., II, 265, 272.

(4) B. Bruyère, Rapport sur Les Fouilles de Deir el Modineh (1934—1935) Deuxième Partie (Le Caire 1937) p. 84ph. 42.

٣ — العطور :

تتألف العطور في مصر القديمة من مركبات الزيت والشحوم ، ومن الطبيعي في جو حار كمصر أن توضع الزيوت والشحوم على الجلد والشعر ، وتلك عادة لازالت شائعة في أيامنا هذه عند أهل النوبة وفي السودان وفي جهات أخرى من أفريقية .

والروائح العطرية السائلة الحديثة ، عبارة عن محاليل كحولية لخلاصات عطرية تستخرج من زهور النباتات أو ثمارها أو لحائها أو أوراقها أو بذورها ولا يمكن أن تكون أمثال هذه العطور قد عرفها المصريون القدماء ، لأن استخراجها يستوجب الحصول على الكحول الذي يذيبها ، وهذا لا بد له من عملية أساسية وهي التقطير . وقد أشار الكيميائيون الذين قاموا بدراسة تحاليل المركبات أن عملية التقطير الخاص بالكحول لم يكشف عنها إلا في العصور المتأخرة .

وإذا ما تركنا الكحول جانبا وجدنا أن الزيت أو الدهن يصلح كل منهما في استخلاص الروائح العطرية من الزهور ، وذلك بأن توضع بتلات الأزهار بين شرائح من الدهن الجامد أو تنقع في الزيت ، وبعد عصر هذه البتلات بالوسائل التي سنعرض لها فيما بعد ، نحصل على الزيت المعطر أو الدهن المعطر .

وقد مارس أهل اليونان (١) في القرن الثالث قبل الميلاد طريقة مماثلة ، فكانوا يستخدمون الزيت المصري أو السوري ، فتنقع النباتات أو منتجاتها من زهور أو حبوب أو أوراق في الزيت ثم تعصر ، وفي بعض الأحيان تغلى في الزيت . وأشار مؤرخو اليونان والرومان بطبيب رائحة العطور المصرية ، وأن بعضاً منها كان يحضر من عدة مواد ، وأن عطاراً من العطارين ظل يحوز عطوراً مصرية في متجره ثمان سنوات ولم يصبها التلف طوال هذه الفترة . وذكر بعضهم أن مصر كانت تنتج أنحر أنواع العطور وأجودها (٢) .

(1) Theophrastus, Concerning Odours, VI : 28,30,31,

(2) Pliny, XIII : 2,6.

ومن أهم أنواع الزيوت التي كانت تستخدم في مركبات العطور في مصر القديمة : زيت اللوتس ، زيت اللوز المر metopium ، وزيت الزيتون الفج Omphacium ، وحب الهال (الحبان) وغيرها من الزيوت .

ومن الجائز أن أوراق الحناء كانت تستعمل في مصر القديمة ، كما يستخدمها بعض الناس في أيامنا الحديثة على شكل عجائن لصبغ راحات الأيدي وبواطن الأقدام والأظافر والشعر . ومن المحقق أن الرومان قد استعملوا الحناء ، وقد عثر على أغصان الحناء في الجبانة البطلمية بمنطقة (هواره) بالفيوم .

وليس هناك دليل قاطع على أن المصريين القدماء استخدموا العطور الحيوانية مثل العنبر والمسك ، ولم تستخرج العطور في مصر الفرعونية إلا من منتجات النبات من الراتنجات والأصماغ الراتنجية .

٤ — البخور :

استخدم المصريون القدماء البخور ، وقد عثر على بعض مواقد للبخور أو رسوم لها . ولكن لا نستطيع أن نتحقق عن أقدم تاريخ لاستخدام البخور وغالباً ما يكون منذ أيام عصر التأسيس . وقد كشف عن مباحر من الدولة القديمة (١) . وقد عثر على بخور بقبر توت عنخ آمون (٢) وأشعل بعضه فانبعث منه رائحة لطيفة . وأهم مواد البخور الكندر (اللبان الذكر) والمر .

الكندر (اللبان الذكر) : (Frankincense (Olibanum

هو عبارة عن راتنج صمغى على هيئة إفرازات من بعض الأشجار لها لون أسمر فاتح مائل إلى الأصفرار أو أحمر قاتم مائل إلى الصفرة ، وفي النادر ما يكون رمادى اللون أو أسود . والنوع الجيد من الكندر هو ذو اللون الأبيض والذي جاء ذكره في برديه هاريس (٣) أما عن أهم الأشجار التي تنتج الكندر هي التي تنمو على الاخص في بلاد الصومال والقسم الجنوبي من بلاد

(1) H. Frankfort, The Cemeteries of Abydos, J.E. A. XVI (1930), p. 217.

(2) Howard Carter, Tomb of Tut-ankh-Amen II, Appendix II p, 184.

(3) G. H. Breasted Op. Cit, IV, §§ 233,239,299,344,376.

العرب ، وهي شجرة صغيرة من صنف *Boswellia* ، وكذلك من شجرة تنمو في شرقي السودان والحبشة تسمى *Compnihora Pedunculata* ولما جاء البطالمة مصر أدخلوا زراعة شجرة الكندر التي تسمى *Thus* . ومن الجائز أن بعثه الملكة حتشبسوت التي ذهبت إلى بلاد (بنت) والتي رسمت على بعض حوائط معبدها بالدير البحري سماها (نافيل) كندر (١) . وقد جاء بين الوثائق التي خلفها الرومان ذكر الضرائب التي كانت تفرض على الكندر الافريقي والعربي الذي يرد إلى البلاد (٢) .

المر :

يستخرج من أنواع مختلفة من الأشجار التي تنمو في الصومال وجنوبي شبه الجزيرة العربية ، وهي التي تعرف باسم *Balsamodendron Commiphora* وكانت توجد على هيئة كتل حمراء مائلة إلى الأصفرار ، وجاء ذكره في النصوص المصرية ابتداء من الأسرة الخامسة . ولم نتأكد حتى هذا التاريخ إن كان المصريون القدماء استخدموا (الجاوي) أو (الكافور) كبخور ، لأن هذه المواد تأتي من الشرق الأقصى الذي لم يكن يعرفه الفراعنة .

القنة :

راتنج صمغى له رائحة زكية ، وهو من نبات يطلق عليه *Peuceanum* وقد وردت إلى مصر أيام الأسرة الثامنة عشر من بلاد فارس ، ومن الراجح أنها هي البخور الأخضر الذي جاء ذكره في النصوص الهيروغليفية (٣) إنما لم يعثر على نماذج من هذا النوع في القبور المصرية .

اللدن :

هو راتنج حقيقي لاصمغى وهو عبارة عن كتل سمراء قائمة مطاطة في الغالب ، وهي تفرز من أوراق وأغصان الشجر المعروف تحت اسم *Cistus*

(1) E. Naville, The Temple of Deir el-Bahri, III, p. 12.

(2) H. Schoff, Notes to the Periplus of the Erythraean Sea p. 289.

(3) J. H. Breasted, op. cit., II, § 572.

الذى ينمو فى آسيا الصغرى و كريت وقبرص و بلاد اليونان وفلسطين وبعض مناطق البحر المتوسط .

بعض المواد الأخرى التى كانت تستخدم كبخور :

كان النطرون يستخدم كبخور ، إذ عثر فى قبر توت عنخ آمون على خليط من راتنج ونطرون ، وهناك احتمال إن هذا الخليط كان يستخدم كبخور . وقد عثر على الراتنج بكثرة فى قبور مصر القديمة من مختلف العصور وبعض أنواعه له رائحة والبعض بدون رائحة .

ه — الأخشاب العطرية :

عثر فى قبر توت عنخ آمون على وعاء صغير من الفخار الأحمر يضم أجزاء من سيقان نباتات ، وكتب على الإناء (عطر) أو (مادة تستخدم فى التطير) . كما عثر على قطع صغيرة من الخشب زكية الرائحة من أيام الأسرة الحادية عشرة فى حفائر اللاهون ، إذ عثر على بعض قطع من خشب بين أدوات التجميل ، كانت تعطى رائحة زكية بعد مسحها والقائها فى الملابس .

كيفية استخراج العطور :

منظر (١) من أيام الدولة الوسطى ، وفيه ظهرت فتيات يقبضن على زهرات من لوتس ، بينما تقوم إثنتان منهن بعصر الأزهار بطريق البرم ، وذلك بوضعها داخل حقيبة من القماش المتين وفى طرفها عصوان ، وقد أخذت كل من الفتاتين بالضغط على العصا لبرم الحقيبة المملوءة بزهور اللوتس ، فينسب الزيت العطرى من خلال القماش إلى قدر من القدور وضع على الأرض من أسفل الحقيبة . وهذه الطريقة شبيهة بطريقة عصر العنب لاستخراج النبيذ .
(شكل ١) (٢) يحتفظ متحف اللوفر بباريس بمنظر من العهد الصاوى ،

(1) F. Gaillaud, Recherches sur les Arts et Metiers (Les usages des anciens peuples de l'Egypte, de la Nubie et de L'Ethiopie (1831) pl. 15 a .

(2) G, Bènedite, La cueillette du Lis et La "Lirinon" dans Fondation Eugène Piot. T. xxv p. 1—28 pl. IV.

مثل فيه استخراج الزيت العطري من زهور اللوتس . فإلى اليمين فتيات يقمن بجمع زهرات اللوتس من على سوقه ، وذلك بقطعه ووضعها في سلال ، وأخرى تجمع بعض الزهر ، ورابعة تحمله في سلة على رأسها ، ثم تقوم إثنان من الفتيات بعصره بالطريقة سالفة الذكر وبرمه في حقيبة من القماش المتين ، ثم استقبال السائل العطري في وعاء وضع على قاعدة أسفل الحقيبة . (وجدير بالذكر أن هذه الصورة فيها بعض التصرف إذ زيد الإطار الخارجى) .

(شكل ٢) (١) منظر على قبر من قبور طيبة من الدولة الحديثة يمثل صناعة الدهون الخاصة بالنخيل ، ويرى أربعة رجال يقومون بجرحش أنواع مختلفة من النباتات العطرية ويسحنونها ، ورجل خامس يمزجها بدهن منصهر ، وبعد تبريدها يشكلها رجل سادس على شكل كرات ، ويقوم رجل سابع بترشيح سائل يؤخذ بطريق مصبه بأنبوبة من إحدى الأواني وذلك لمزجه بالخلوط السابق . ويرى بعض الأواني التي تضم بعض النباتات المستعملة أو الدهن العطري المستحضر .

التجميل عند السيدات والرجال :

إهتم المصريون بنظافة أبدانهم ، فكانوا أكثر شعوب الشرق القريب في تلك العصور السحيقة إهتماماً بنظافة الأجسام ، وكانت المرأة في الشرق أكثر عناية بجهاها من المرأة الغربية في تلك الأيام البعيدة ، بل إن الغرب تعلم وسائل النظافة من استخدام المساحيق والعطور والاستحمام وما إلى ذلك من الشرق ، ومن الشرق أخذ الغرب كل ما يتعلق بفن التجميل ، لكن انقلبت الآية الآن فأصبح الغرب في هذا الميدان مدرسة للشرق .

أوجبت العقائد الدينية وطقوسها في مصر الفرعونية استخدام الماء ، وظهر الناس في رحاب الآلهة ودور العبادة بمظهر يليق وجلال صاحب الدار ، من أجل ذلك أخذوا زينتهم عند كل منزل من منازل الأرباب ، وفي الحفلات الدينية التي تكثر عند آل فرعون ، وكان لزاماً على كبار الكهنة ورجال الدين

(1) Charles Singer, E. I. Holyard and A. R. Hall, A History of Technology. Volume I (Oxford 1954) fig. 190 p. 292.

أن يضعوا شعراً مستعاراً في بعض المناسبات ، إلى غير ذلك مما يلزم المراسم الدينية . أما في الحياة الخاصة فقد ظهر الرجال والنساء بمظهر حسن خصوصاً في الاحتفالات التي كانت تقام في القصور ودور الأشراف ، فقد حفظت لنا الأيام الكثير من المناظر فيها يستقبل الضيفان من النسوة وهن في أحسن زينة كذلك إعتنى الرجال بشعورهم فعرفوا قص شعر الرأس وحلاقة الذقن ونظافة البدن بوجه عام .

ومما يؤيد اهتمام الناس في مصر القديمة بالنظافة ، أنه جاء في بعض النصوص إشارات إلى كره المصريين للقدارة ، فهذا أحد الأدباء ينصح ولده بالآتي (١) :

« يقبح لولده في تلك المهن التي يصطنعها الجهال من الناس ، فيصف له ما يصيب صانع النحاس من أذى النار ... ثم يقبح له صنعة النجار ... ثم ما يصيب البناء من تعب يضمنه حتى تكل ذراعه وتعب رجلاه من كثرة ما ما يعمل في الحجارة والطين وأنه كثيراً ما يمرض من كثرة ما يناله من تعب ، يهمل جسده فلا يكاد يلتفت إلى تنظيفه ، ثم هو فوق ذلك قذر اللباس ... » وجاء في النصوص أيضاً أن المصريين كانوا يقومون بغسل أيديهم قبل الأكل وبعده ، وغسل الأيدي قبل الدخول إلى المنزل .

عرف التطهير الجنائزى وكثر تمثيله على الآثار ، أما عن التطهير الدينى فلا نعرف من مناظره إلا القليل . فعلى إحدى جدران قبر الشريف (بتاح حتب) (٢) من الدولة القديمة بسقاره مثل الشريف جالسا على كرسيه وقد قام أحد الخدم على غسل وجهه (شكل ٣) ، بينما وقف الآخر يحمل منشفتان في يديه ، وثالث بيده قطعة من حجر لتهديب الأظافر ، والرابع يقوم على تنظيف قدميه وساقيه أو تدليكهما ، وإلى الخلف من الأمير وقف أحد الخدم يقوم بتجهيز الأدوات ، وإلى خلف الكرسي خادم بيده اليسرى قرد و كلاب من أجل تسلية الأمير أثناء عملية التطهير .

(١) الدكتور أحمد بدوى : في موكب الشمس الجزء الثانى ص ١٦١ (القاهرة ١٩٥٠)

(2) R, E. Paget and A. Pirie, The tomb of Ptah-hotep. London 1898 pl.XXXV; J. Vandier, Manuel d'Archéologie Egyptienne, (Paris 1964), p. 171 et p. 172, Fig. G1.

أما مناظر التنظيف بالماء الخاص بالسيدات ، فقد مثلت إحدى السيدات من الدولة الحديثة (١) (شكل ٤) جاثية على ركبتها عارية ، وأمامها خادمتان إحداهما تصب عليها الماء من إناء ، وإلى يمينها سيدة أخرى تقرب منها زهرة لتشم عبيرها ، وإلى اليسار البعيد إحدى الخادومات تحمل في يسراها حقيبة ، أكبر الظن أنها كانت تضم ملابس خاصة بالأميرة .

قص شعر الرأس عند الرجال :

إهتم الرجال بقص شعر الرأس ، فعلى حائط أحد قبور بنى حسن (٢) مثل رجلان (شكل ٥) جاثيان أحدهما وهو الجالس إلى اليمين يقبض على ساق الحلاق الذى يضع يده على رأس الرجل الجاثى ، ويسراه شفرة كانت تستخدم فى الحلاقة . أما الرجل الآخر فهوجاث أيضا مثل زميله وقد وقف الحلاق أمامه واضعاً يسراه على رأسه ويقوم بحلاقة الشعر بالشفرة التى فى يده . كذلك استخدم الرجال الشعر المستعار . أما عن اللحى ، فمن النادر أن نجد المصريين القدماء ملتحين ، بينما أعفى الآسيويون الأقدمون لحاهم . كذلك من النادر ان يرى المصريون بالشوارب مثل تمثال رع حتب بالمتحف المصرى .

اهتمام النساء فى مصر القديمة بالعناية بالبشرة :

إن جمال وجه المرأة فى ثلاثة أشياء ، فى العينين ولون البشرة والشعر . ومركز الفتنة فى وجه كل امرأة يتركز فى عينيها الجميلتين ، ونضرة البشرة تمنح الوجه ضياءاً وفتنة للأنظار ، كذلك للشفتين وتحديدهما وتلوينهما فتنة وجاذبية . وكثيراً ما صورت السيدات فى مصر الفرعونية يقبضن على مرآة ، أو يأخذن بشئ من عطور الزينة من إحدى الخادومات . أما عن تزجيج الحواجب ورسمها وكذلك تهيئة الرموش بالكحل ، فإن صور وتمائيل السيدات والرجال أيضاً خير دليل على إهتمام الناس فى مصر القديمة بتلك الناحية . وكذلك الأظافر وتنظيفها وتهذيبها ، فقد عثر على آلات

(1) J. G. Wilkinson, Manners and Customs of the Ancient Egyptians (London 1887) vol. III p. 389 .

(2) Dr. Abd el Hamid Zayed, The Antiquities of El Minia, Fig.30
فسر الأستاذ فانديه فى كتابه عن المناظر والنقوش فى الحياة اليومية (١٩٦٤) والسابق الإشارة إليه ص ١٧٩ أن جزءاً من هذا المنظر يمثل عملية تهذيب أظافر القدمين (Le pédieure)

خاصة بكل هذه العمليات ، حتى الشفرات استخدمتها السيدات في إزالة شعر الجسم ، فقد عثر في قبر الملكة (حتب حرس) على شفرات ، مما يؤيد أن السيدات كن ينظفن أجسادهن بتلك الشفرات. أما شعر الرأس فقد وجدت الموميات الخاصة بالسيدات بشعورهن الطبيعي مسترسله ، وأحيانا بها لفات boucles أو مجدولة بجداول بسيطة أو طويله رقيقة الشكل .

ويحتفظ المتحف البريطاني (١) بلندن (شكل ٦) على منظر لم نرشيها له بين الآثار المصرية القديمة ، وهو يمثل إحدى السيدات ، تقبض بيسراها على امرأة ، ويمسكها قطعة من القماش لا بد أنها كانت تربت بها وجهها حتى يبقى (المكياج) فترة من الزمن ، كما تفعل سيداتنا الآن باستخدام نائفة الزرور أى (البدارات) ولم يكن (المكياج) عند المرأة المصرية في عهد الفراعنة سمكا ثقيلًا ، بل كان عبارة عن طبقة رقيقة شفافة يظهر من تحتها لون الجلد الطبيعي ، كما هو واضح في تمثال (نفرت) من الدولة القديمة والمحفوظ بالمتحف المصري ، وغيرها من مناظر السيدات على صفحات قبور الأشراف في مختلف العصور .

كذلك لونت الوجنات والشفاه بطلاء أحمر كما هو متبع الآن ، وقد عرفت المصرية في عهودها البعيدة هذه تحديد الشفتين بواسطة الفرجون (فرشة صغيرة) ، وهى التى تعتبر الآن من أحدث الابتكرات فى فن تجميل الشفتين . وعلى برديه من البرديات المحفوظة بمتحف تورينو (٢) (شكل ٧) ، صورت امرأة ووعاء أكبر الظن أنه وعاء العطور ، ويمسكها فرجون غمسها فى إناء ثم بدأت تحدد به شفتيها .

تصنيف الشعر عند السيدات:

فطننت المصرية منذ أيام الدولة القديمة أن الشعر بالنسبة للمرأة هو التاج الذى يضفى على منظرها العام الأبهة والبهاء ، وأنه لا يه الحيوية والشباب، من أجل ذلك ظهرت المرأة فى مصر القديمة بتصفيقات للشعر جميله حتى أن

(1) E. S. Edward, A toilet scene on a funerary stela of the Middle Kingdom, dans J.E.A. vol. XXIII (1937) pl. xx p.165

(2) James. B. Pritchard, The Ancient Near East in pictures (U.S.A.) 1958 fig 14.

النساء في هذا العصر من أهل الشرق والغرب تسابقن في تقليدها ، وإعتبرن عملهن هذا ضمن المبتكرات الحديثة في فن تصفيف الشعر ، والحقيقة غير ذلك فالآثار المصرية حافلة بكثير من تماثيل وصور لنساء وادى النيل بشعورهن الجميلة ، تناسب طوراً على الظهر في إرسترسال بديع ، وأحياناً ترتفع بنحصلات الشعر من الخلف إلى أعلا ، وأحياناً يجتمع الشعر بنحصلات في الوسط ، وأحياناً أخرى تظهر على الجبهة بعض النحصلات أو مايسمونه (قصة) ، ويربط الشعر في بعض الأحيان بعصابة . وقد لاءت المصرية بين كل تصفيفة من هذه التصفيفات وتكوين الوجه . ظهر كل ذلك في الشعر الطبيعي والصناعي الذي كان تستخدمه النساء في عصر الفراعنة . (أشكال ٨ ، ٩ ، ١٠) .

كيف كان يتم تصفيف الشعر عند السيدات :

لم تدخر لنا الأيام من مناظر المراحل التي كانت تتخذ في عمليات تصفيف الشعر إلا إبتداء من الأسرة العاشرة أو الحادية عشرة .

وأقدم صورة تبين إحدى الخادومات تقوم بتصفيف الشعر ، هو منظر على تابوت من الأسرة العاشرة أو الحادية عشرة محفوظ بمتحف برلين (١) . تظهر فيه صاحبة التابوت ، وخلفها من تقوم بتصفيف شعرها .

بالمتحف المصري لوح مؤرخ من الأسرة الحادية عشرة ، مثلت فيه امرأة خلف زوجها تحضنه ، ومن خلفها خادمتها تصفف لها شعرها .

بالمتحف المصري منظر على تابوت الأمير (كاويت) ، وقد مثلت فيه الأميرة تجلس على كرسى وفي يدها مرآة ، ومن خلفها مصففة الشعر تقبض على لفة (boucle) من اللفات بين أصابعها ، وأعلى ذلك دبوس به ثلاث لفات ، وأمام الأميرة جارية أخرى تقدم لها إناءاً به سائل ، وقد كتب ما يأتي (إلى روحك ياسيدي ، ليتك تشربني ما أقدمه لك) وأغلب الظن ان السائل لبن ، إذ مثل على التابوت أحد الخدم يقوم بحلب البقرة .

(1) Gauthier-Laurent, Les scenes de coiffure Feminine dans L'Ancienne Egypte, dans Melange Maspero, Second Fascicule p. 673—696.

مثلت السيدة المساه (كمست) (١) ، ومن خلفها خادمتان وقد صورت (كمست) هنا تمتد يدها اليمنى إلى المائدة الموضوعة أمامها ، ويسراها زهرة قربتها من أُنْفِها لتشتم عبقها ، ولم يظهر بشعرها أى تفاصيل . أما عن مصففة الشعر التى مثلت خلفها فقد رفعت ذراعيها ويدها خصلة كبيرة من الشعر . ومن خلف الجارية مصففة أخرى يمينها إناء ويسارها جناح طائر كان يستخدم كمروحة ، وذلك شبيه بما نلاحظه فى الأمكنة الخاصة بتصفيف الشعر .

بالمتحف المصرى مجموعة صغيرة من التماثيل تمثل سيدة وقد وضعت طفلها على فخذه ، ويديها على رأس الطفلة ، والملاحظ أنها مدت سبابة اليدين وأثبتت بقية الأصابع ، ويستدل من الحركات الخاصة بأصابع اليدين أن تلك الأم كانت تقوم بتصفيف شعر إبنتها ، وليس كما ذكر ما سبق ذكر من أن امرأة كانت تقوم (بتفلية إبنتها) . إذ ليس من المعقول أن الفنان المصرى صاحب الذوق السليم كان يصور الناس من بنى وطنه على هذه الصورة ، حتى فى أيام إنطلاق الحريات لم يجرؤ فنانون إختاتون أن يصوروا الناس على هذه الهيئة التى لا يقبلها الذوق الراقى ، والمصريون كانوا يحسون بالجمال ويختارون المناظر التى تعبر عن رقة الشعور .

ويحتفظ متحف (المترو بوليتان) (٢) بمجموعة قريبة الشبه بالمجموعة المحفوظة بالمتحف المصرى ، وهى تمثل إحدى الخادمتات تقوم بتصفيف شعر أم ترضع طفلها .

هناك منظر (٣) (شكل ١١) من عهد (تحتمس الثالث) أو (أمنوفيس الثانى) ، وجد على حائط قبر من قبور الأشراف بطيبة . وهذا المنظر كان داخل حجرة النوم ، وهنا تجلس السيدة على مقعد وقد أَلْقَتْ رأسها إلى الخلف وهى تنظر فى مرآة تراقب عمل مصففة الشعر ، كذلك ظهرت وهى تتكىء على يدها اليمنى ، ومن الرسم يتضح أن المصففة كانت تستعمل مشطاً ، ذلك لأن الخطوط الرأسية الظاهرة تحت اليد اليمنى للمصففة تدل على ذلك

(1) Gauthier-Laurent, op. cit., p. 677—678 Flg. 4.

(2) Hayes, The Scepter of Egypt (New York 1953) Part I p. 222 Fig 138.

(3) Gauthier-Laurent, op. cit, p. 682 Fig 2.

وهذا هو المثل الوحيد الذى أعرفه حتى آخر المكتشفات الحديثة الذى تظهر فيه المصففة وهى تعمل بالمشط .

هناك منظر مؤرخ من عهد إخناتون (١) ، تظهر فيه سيدتان جاستا فى بهو من الأبهاء ، رفع على دعامة ، قمتها على هيئة زهرة البردى ، وسيدة منهما تصفف للآخرى شعرها . وفى الناحية الأخرى هن البهو تجلس سيدة أمام مائدة .

كما توجد مناظر تمثل تصفيف الشعر رسمت على البردى ، فبالمتحف المصرى بردية رقم ٣١١٦٩ J.E. ، عليها منظر ظريف ، إذ لم يمثل هذه المرة أشخاص حقيقيون وإنما أشكال حيوانية ، فالسيدة الأولى مثلت على هيئة فأره ، وقد صورت الخادمتان على هيئة قطتين ، الأولى تجلس على مقعد وتقرّب من فم الفأرة كأساً ، وتقبض الفأرة على شئ أكبر الظن أنه مرآة ، وتقف القطة الأخرى وهى تمثل هنا مصففة الشعر خلف الفأرة ، وبين أذنيها دبوس طويل غالباً ما كان يستخدم فى تلك العملية .

بعد الذى قدمنا من مناظر لتصفيف الشعر ، وجد بعضها مصوراً على توابيت أو على قبور الموتى ، وبعضها على هيئة تماثيل صغيرة ، إلى غير ذلك بما لا يفسح المجال لذكره ، نستطيع أن نقول أن المرأة المصرية غالباً أنها كانت تصفف شعرها بنفسها ، وإنما كان يقوم على تصفيفه غيرها من خدمها أو إحدى وصيفاتها ، أو أن الأم كانت تقوم بتصفيف شعر ابنتها ، كما نلاحظ من هذه المناظر وغيرها مما لم يذكر . أن المرأة المصرية كانت كثيراً ما تترك شعرها ينساب فوق الظهر وعلى كتفها ، كما كانت تقسمه إلى قسمين أو ثلاثة بخصلات ، أو تضيفه على هيئة جدائل صغيرة تغطى الظهر والكتفين وأحياناً كانت تضيف إلى الشعر جدائل صناعية .

وقد عرفت مصففات الشعر تحت إسم (نشت) . فعلى لوحة محفوظة بالمتحف البريطانى صورة لثلاث خادمت يحملن صناديق خاصة بالشعر المستعار وبأيديهن حقائب وأمام الأولى لقبها (نشت) إنما لم يكن من المألوف عند المصريين القدماء

أن يكون هناك مصفف للشعر يقوم بتصفيفه للسيدات كما هو ملاحظ حالياً، بل كانت هذه العملية خاصة بالسيدات يقمن به لبنى جنسهن ، بينما يقوم الحلاق على عملية قص الشعر للرجال فقط . ومن بين ألقاب الأمراء في الدولة القديمة نجد مثلاً (تى) وهو من كبار موظفي الحكومة في أيام الدولة القديمة، في نهاية الأسرة الخامسة كان يلقب بمدير مصففى الشعر الملكى ، وكذلك كان يلقب أيضاً (رع ور) وهو من كبار موظفى الدولة فى الدولة القديمة . وعثر على نقش بمعبد (نى أو سررع) يلقب فيه رجلين بمصففى الشعر الملكى .

وبمتحف (بروكلين) بالولايات المتحدة قطعة من الحجر (١) ، كانت أصلاً ملونة باللون الأزرق تمثل مصففة الشعر « إيو أو إنتوى » وذلك بجذله . ويبدو لى أن هذه المصففة ربما كانت هى التى تقوم بتصفيف شعر الأميرة (كاويت) (انظر ص ١٧) لأنه هناك شبه كبير بين الصورتين .

كذلك بمتحف بروكلين (٢) أثر آخر عليه تثبت فيها مصففة الشعر حنوت لسيدته التى لقت « بالزوجة الملكية » شعرها وهى السيدة نفرو .

وقد ناقش Elizabeth Riefstall فى مقاله هذا النطق الخاص لمصفف أو مصففة الشعر « إرت أو نشت » وقد ناقش المؤلف تأريخ الأثرين ، فوضعهما من أيام الأسرة الحادية عشرة .

وبالمتحف المذكور أيضاً أثر عليه نقش لغائيتين على رأسيهما شعر مستعار بأهداب بها خيط، وضع فيه خرز ثبت فى منتصف الرأس (من الجائز أنها كانت من الفضة) . وبمتحف المتروبوليتان ثلاث غايات يضعن فوق رؤوسهن زينة تشبه ما وضعته هاتين الغائيتين (٣) .

Brooklyn Museum Bulletin, XIII, 4 (1952), 7—16. (١)

Journal of Near Eastern Studies Volume XV (1956), (٢) .
10—17 pl. IX; J. Vandier, Manuel d'Archéologie
Egyptienne Tome IV p. 174 Fig 63 (Paris 1964).

Winlock, Excavation at Deir el Bahri, p. 224, pl. 32. (٣)

ويمكن إضافة منظر آخر لتصنيف الشعر نشره (١) g. Vandier
وكذلك نشر E. A. Eisa بحث عن الشعر المستعار (٢) ، وآخر نشره
L. Keimer (٣) .

كيفية تصنيف الشعر والطريقة التي كانت تتبع :

من محاسن الصدف أننا وجدنا هذه العملية ممثلة على تابوت الأميرة (كاويت)
المحفوظ بالمتحف ، وأكبر الظن أن الأميرة كانت تضع شعراً مستعاراً ،
وكان من النوع القصير المسمى *à la garçonn* ، وقد مثل هذا بتسعة صفوف ،
وظهرت مصففة الشعر ويدها (*boucle*) ، واستخدمت السبابة والإبهام
وأخذت في رفع ثلاث لفات *boucles* من الصفوف العليا للشعر المستعار
(أنظر شكل ١٢) بواسطة دبوس وضع في الشعر المستعار ، وذلك لتضمن
عملية تصنيف (اللفات) بشكل منظم ، ثم أخذت في تصنيف اللفات بحيث
تغطي أنصاف اللفات السابقة الصف الذي انتهت العمل فيه . ويتوقف إتمام
العملية والمدة التي تستغرقها على نوع اللفات ، فقد عرفت المصرية اللفات العادية
وكانت أطرافها متوسطة وحلزونية ، ولفات ثابتة عبارة عن خصلات من
الشعر مربوطة وملفوفة بلفة حلزونية ، كذلك الجداول الصغيرة . وصورت
السيدات بالجدائل مسترسلة على الظهور والكتفين وبها خطوط مائلة ، وهذه
هي الطريقة التي صور بها المصريون الجداول .

هذا وقد عثر على شعر مستعار وجد في قبور كثير من قدماء المصريين ،
ومحفوظ بعضه بالمتحف المصري أما صباغة الشعر المستعار أو الطبيعي ، فلو حظ

(١) J. Vandier. Moalla (1940) p. 288, pl. XLIII ("IFAOC",

"Bibliothèque d'Etude." ١ XVIII)

وقد نشر أيضاً هذا المنظر في كتاب فانديه الأخير عن المناظر في الحياة اليومية والذي
أشرنا إليه من قبل .

(٢) ASAE, XLVIII, 9—18.

(٣) BIE, XXXIV, (1953), 329—449.

فى بعض رسوم المقابر والتواييت على شعر مستعار لون بلون وردى ، كما هو واضح على قبر الأميرة (مرس عنخ) من الأسرة الرابعة ، فقد لون الشعر المستعار لأمرها (حتب حرس الثانية) بلون وردى . كذلك لون شعر الأميرة عاشيت على تابوتها بالمتحف المصرى (من الدولة الوسطى) بلون مائل إلى الأخضرار ، مما يدل على أن المصريين عرفن صبغة الشعر بهذه الألوان التى تعد حالياً من المبتكرات الحديثة فى التجميل .

الأدوات اللازمة للمنظافة اليومية والتجميل

١ — أوعية صغيرة : كان يستعمل هذا الوعاء الصغير للاغتسال ، وكان يوضع به ماء بارد أو ساخن ، وهو عبارة عن إناء مسطح القاعدة له جوانب مرتفعة قليلاً . وقد صنع من مختلف أنواع الحجارة والمعادن (١)

٢ — إناء للماء : وكانت عبارة عن أواني بيضية الشكل، تصنع من الفخار والحجارة والمعدن، وهذا النوع من القدور عريق فى القدم ، فعثر عليه من عصر (التأسيس) ، ووجدت أباريق كانت توضع على موائد صنعت من حجر أو معدن ، ثم إستطالت رقبة الأباريق أيام الدولة الحديثة وأصبح لها أيدي

٣ — المناشف : صنعت من خيوط الكتان ، ووجدت مصورة على جدران التواييت وعلى صفحات القبور، وكثيراً ما وجدت ممثلة إلى جوانب أواني العطور، وبالمتحف المصرى تواييت كثيرة مثلت على صفحاتها هذه المناشف . ومن المحتمل أنها كانت تستخدم لتدليك الجسم قبل أو بعد الدهون العطرية وذلك إلى جانب إستعمالها فى تخفيف الوجه أو اليدين أو الجسم بعد الاغتسال بالماء، وفى بعض الأحيان وجدت مصورة بجانب الملابس . ومثلت هذه المناشف على هيئة أشرطة من القماش (أنظر ص ١٤ شكل ٣) (٢) . وفى أيام الدولة الحديثة صور الخدم يقدمون لآسيادهم المياه لغسل الوجه أو القدم ، وعلى أيديهم منشفة ييضاء تنتهى من إحدى طرفها بأهداب ، وأحياناً من غير أهداب ، كما عثر

1) M. Gustave Jequier, Les Frises d'objets des Sarcophages du Moyem Empire p. 116—120.

2) Gustave Jequier, ibid p. 124, Fig. 330.

فوق بعض الموميات على مناشف بيضاء وحمراء ، ولوحظ في بعض صور التواييت منشقة لها أكام وسيقان وتنتهى جميعها بأهداب ، وهذه المنشقة شبيهة بما نسميه (البورنس) .

٤ — المحك : عثر على رسوم لحجارة إسفنجية مصورة إلى جانب (الشفرات) وفي المنظر الخاص بتنظيف الشريف (بتاح حتب) (انظر شكل ٣) ، نرى أحد الخدم يقبض على قطعة مستطيلة الشكل أكبر الظن أنها كانت تستخدم في تهذيب الأظافر أو حكها ، وهى من ضمن أدوات التطريف (أدوات المانيكر)

٥ — الشفرات : عثر على شفرات في قبور السيدات والرجال ، فعلى قبر (حسى رع) بسقارة من الأسرة الثالثة رسم لصندوق صغير به ثمان شفرات متشابهة وأياديها من خشب الابنوس . كما عثر في قبر الملكة (حتب حرس) (١) أم الملك خوفو على شفرات من ذهب ونحاس وطران ، مما يدل على أن النساء كن يستعملن الشفرات لإزالة الشعر . كذلك كان لهذه الشفرات حقائق ، وجدت مرسومة على جدران بعض التواييت (شكل ١٣) وكانت تصنع غالباً من الجسد ، وكان يوضع فيها ثلاث أو أربع شفرات . وتطور شكل الشفرات أيام الدولة الحديثة ، فزودت بأيدي منحنية على هيئة قرن بالمتحف المصرى رقم ٦٣٦٨٦ ، كما وجدت بعض رسوم تمثل أدوات كانت تستخدم فى سن هذه الشفرات ، أو ما يسموه فى لغة الصناعة (مسن) ، وكانت تصنع من حجارة شديدة الصلابة ، ومما يؤيد معرفة المصريين لهذه الأداة أن اسمها وجد مكتوباً باللغة المصرية القديمة بجوار الرسم (٢) .

٦ — الأمشاط : عرف الناس فى مصر القديمة منذ عصر ما قبل الأسرات الأمشاط إلا أننا لم نعثر على مناظر تمشييط الشعر بواسطة المشط حتى الآن إلا على مثل واحد سبق أن قمنا بوصفه (انظر ص ١٨ ، ص ١٩ شكل ١١) وقد صنعت الأمشاط من أنواع مختلفة من الخشب (ابنوس وسنط وغيره) ، كذلك من العاج والعظام

1) Bulletin of the Museum of Fine Arts, Boston, supplement to vol XXV.

2) Gustave Jequier, Les Frises d'Objets des Sarcophages du Moyen Empire p. 136. Figs 366 à 370.

كما وجدت أمشاط مسننة من ناحية واحدة وأخرى من ناحيتين ، كما كانت هناك أمشاط لتجميل الشعر .

٧ — دبابيس شعر الرأس :

عثر ببعض المقابر منذ عصر ما قبل الأسرات على دبابيس خاصة بشعر الرأس من مختلف أنواع المواد ، حجارة وعظم وعاج وأخشاب ومعادن . والمتحف المصري ستة دبابيس خصصت لها قطعة من الخشب نحتت على هيئة سلاحفاه ، يظهر على ظهرها ثقب توضع بها الدبابيس ، خمسة منها تعلوها رؤوس كلاب آذانهم مرسلة إلى أسفل أما السادس فأذناه مرتفعان (شكل ١٣) . لم يعرف المصريون القدماء (الفرشة) الخاصة بالشعر ، لكن غالباً ما استعوض عنها بهذه الدبابيس التي كانت تستخدم في حث الجلد دون أن تفك الجداول ، وذلك دليل على أن الناس في مصر القديمة فطنوا إلى أن تدليك جذور شعر الرأس يقيح له مزيداً من الحيوية والقوة .

٨ — المرايا :

على مرآيا كثيرة من ذهب وفضة ونحاس ، وكانت أيديها أحياناً من خشب أو معادن أخرى مطعمة بالذهب أو بحجارة أخرى نصف كريمة مثل العقيق أو عجيبة الزجاج . كذلك وجدت المرايا مصورة على التوابيت وصفحات القبور بجانب أواني العطور ، ولم تكن المرايا قاصرة على النساء فقط بدليل وجودها مصورة على بعض المقاعد الخاصة بالرجال . أما عن أشكال صفحات المرايا ، فبعضها دائري مفرطح والبعض كامل الدائرة صفحاتها لماعة ، فقد كان لونها أصفر أو مائل إلى الاحمرار أو وردى اللون أو أحمر داكن . كما عثر على مرآيا جنائزية صنعت من الخشب الملون بألوان مختلفة وأحياناً رسمت على بعضها عين ، وهذا كان على سبيل التمثيل الرمزي للرؤية . كذلك كانت توضع المرايا داخل حقائب من جلد أو قماش مطرز . وقد عثر على بعض أوعية للمرايا من الخشب مطعم بحجارة نصف كريمة ، وتضم مجموعة توت عنخ آمون بالمتحف المصري أوعية خاصة بالمرايا من هذا النوع الأخير مثل رقم ٣٧٧ ، ٣٧٨ من دليل المتحف المصري . كذلك انتقلت مناظر الرؤية في المرآة إلى بلدان

الشرق القريب ، فيحفظ متحف (أستانبول) بتركيا على منظر يمثل امرأة وفي يدها امرأة شبيهة بتلك التي استعملها الناس في مصر الفرعونية .

٩ — أدوات أخرى للزينة:

١ - عثر على أوان صغيرة مديبة من ذهب في قبر الملكة (حتب حرس لاولى)
أكبر الظن أنها كانت من أدوات التطريف ، إما كانت تستخدم لتنظيف الأظافر ،
أو لقطع بعض الزوائد من الجلد المحيط بجذور الأظافر ، كما تفعل سيدات
العصر الحديث . وعلى صفحات بعض التوايت من الدولة الوسطى (١) والمحموظ
بعضها بالمتحف المصرى صور لحقائب شبيهة بحقائب الشفرات تحتوى على
أدوات دقيقة مديبة ، ولولا وجود هذه الأدوات مصورة إلى جانب الشفرات
لاعتقدنا أنها تمثل سهاماً أو نصالاً لبعض سهام ، كذلك وجد الكثير منها مصوراً بين
المرايا مما يؤيد أنها كانت تستعمل فى أعمال الزينة والتجميل .

ب - أدوات لسحن مواد التجميل : بين المناظر التي وجدت مصورة على صفحات بعض التوايت (٢) منضدة مستديرة عليها قطعة مستديرة أيضاً كانت تستخدم في سحن المواد الخاصة بالتجميل .

ح - عرف المصريون المقص و (الملقاط) وعثر عليها في المقابر وقد صنعها من النحاس والبرونز ، وفي العصر اليوناني الروماني كشف عن مقصات شبيهة بتلك التي نستعملها الآن (٣) وكذلك (ملاقط) .

د - كذلك المراوح وقد كانت أيضاً من أدوات الزينة ، فقد عثر على
مراوح ذات أياد عاجية مثل التي كشف عنها في قبر توت عنخ آمون (أنظر
دليل المتحف المصري تحت رقم ٤٤٨ ، وكذلك أيدي لمراوح فقد ريشها
مثل رقم $\frac{9}{23} \cdot \frac{4}{12}$ ، J. E. 30/120) .

1) M. Gustave Jequier, op. cit. p. 136, Figs. 366 à 374.

2) „ „ „ „ „ p. 131, „ 353 à 354.

3) See J. E. 27007, 69308, J. E. 29231, 29855 bis, Jequier.
op. cit., Figs. 357 à 359 p. 132 à 134. A. S., A.E.T II, p.11.

المادة التي كانت تستخدم في التنظيف :

من الصعب علينا معرفة اسم هذه المادة ، فهل هي الصابون أو مادة قريبة منه ، هذا وقد لوحظ على صفحات بعض التوابيت المحفوظة بالمتحف المصري بعض الصور تمثل قطعاً ملونة باللون الأصفر أو الأزرق الباهت ، أما عن شكلها فأحياناً مربعة الشكل وأخرى مستطيلة ، كل ذلك وجد مصوراً إلى جانب الشفرات والمرايا (١)

وعثر أخيراً في بعض التوابيت على بعض المواد الخاصة بالتنظيف ، وبعد فحصها وإذا بها في الماء ظهرت فيها رغوى شبيهة بتلك التي تخرج من الصابون . أما عن المادة التي كانت تستعمل في إزالة الدهون التي توجد على الجسم أو الملابس فكانت غالباً ما تتكون من النطرون وبعض أنواع الرماد أضيف إليها زيوت أخرى وبعض المواد الكيماوية . ومن المناظر الطريفة ، شكل يمثل قطعة مربعة الشكل وجدت مرسومة بجانب الابريق والأواني المخصصة للتنظيف ، ومن الراجح إنها كانت تمثل شيئاً قريب الشبه بالصابون .

الأواني الصغيرة التي تضم مستحضرات التجميل

تضم دور تحف الآثار المصرية بين مجموعاتها الكثير من هذه الأوعية التي حاول الفنان في مصر القديمة أن يمثل ما فيها من آراءه في الطبيعة من حيوان وطيور ونبات . وإن حب المصريين للفنون وعشقهم الطبيعة وما فيها من جمال دفعهم إلى نقلها ليس فقط على صفحات القبور وإنما في قصورهم ممثلة في أوعية صغيرة أو تماثيل ، وهكذا يفعل الناس في عصرنا الحديث إذ ينقلون ما يرونه في الطبيعة من فن ساحر وجمال فنان مصوراً أو ممثلاً ، ويحملون به غرفات الاستقبال أو غيرها من حجرات المنزل . سنرى معالم الطبيعة أو الحيوان أو الطير ممثلة في هذه الأواني التي بدأ الاهتمام بها لتكون أوعية تحفظ بها مستحضرات التجميل ، ثم تطور الأمر حتى أصبحت تحفاً فنية تصور الطبيعة السمحة ، وتظهر خصائص بعض الحيوانات أو الطيور وبعض غرائزها وما يظهر عليها حين القتك والغارة ، كل ذلك دفع الكثير ممن يقومون بدراسة علم الحيوان أو الطير

1). Jequier, op. cit. p. 123, Fig 329.

القديم الذى إنقرض ، أن يعتمدوا فى كثير من أبحاثهم على بعض هذه القطع الفنية الرائعة من أدوات الزينة التى استطاع المصري أن يظهر فيها الكثير من غرائز الحيوان أو الطير . من أجل ذلك سنحاول أن نقدم للقارئ الكريم طرفاً من ملاحظات المصريين للحيوانات أو الطير ، وحسن إختيار المصري لمناظر الطبيعة ، وتنوع هذه الألوان . سنرى فى هذه القطع الفنية قوة الفن المصري وصدقته وإحساسه الرقيق ، ودقته فى الإخراج ودراسته للفكرة قبل التنفيذ . ولن نستطيع أن نستعرض جميع تلك الألوان ، وإنما سنكتفى بعرض نماذج فقط .

الأمثلة

صندوق صغير خاص ببعض مستحضرات التجميل محفوظ بالمتحف المصري على هيئة عجل من الخشب ، طوله حوالى ١١ سنتيمتراً ، عثر عليه (بالقرنة) ، وقد جوف جسد العجل ليضم بعض المساحيق ، أما ظهر الحيوان ورأسه فقد صنعنا من قطعتين ليكونا غطاء الإناء .

إستطاع أن ينجح الفنان فى تمثيل وليد أحد الأبقار ، فصوره تصويراً صادقاً ، فهناك تناسق بين الرأس والجسم وبين الأرجل والأظلاف ، فهذا ثور الحيوان قد صور تصويراً معبراً ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن العجل كان ينادى أمه . كذلك فتحات الأنف ، والرأس واستدارتها ، والرقبة وانحناءها الرقيقة الظاهرة وما فيها من تجاعيد دقيقة ، والأذن واستقامتها ، كل ذلك يدل على دراسة عميقة لهذا الحيوان الصغير حتى خرج على هذه الصورة الصادقة المعبرة ، فهى لم تبعده عن فصيلة الحيوان ، كما تقربه أيضاً من أن يكون فى الوقت نفسه وعاءاً يضم بعضها من زينة الناس فى مصر الفرعونية .

إناء بالمتحف المصري على هيئة عجل موثوق أرجله الأربعة طوله ٧ر٨ سنتيمتراً ، وهذا الشكل يمثل ظهر الحيوان ، أما جوف الإناء فقد حفر بالجانب الآخر ، وقد كان من جراء ربط العجل على هذه الصورة إنضمام مقدمته ومؤخرته فظهر بديناً مكثراً باللحم ، وقد شد إلى أظلاف الحيوان الصغير برعمان ، أحدهما صغير إلتصق بمؤخرة العجل والآخر كبير إقترب من رأس الحيوان حتى إتصل بالذقن . ولم يغفل الفنان الكثير من التفاصيل ، فنراه قد إتخذ من مقود العجل المربوط فى رقبتة ذلك الوثاق الذى شد على أرجله وعلى البراعم .

كذلك لم ينس تمثيل ذيل العجل الذى إنتهى حتى إلتصق بالظهر فظهرت الذؤابة ، وتلك أمور نلاحظها فى الحيوانات حينما توثق ويلقى بها على الأرض تمهيداً لذبحها أو ختمها . كل ذلك أمثلة واضحة تبين إدراك الفنان لكثير من طبائع الحيوان ، من أجل ذلك كان الفن المصرى فناً خالداً مع خلود الزمن .

بالمتحف المصرى وعاء من العاج (شكل ١٤) طوله ١٦ر٥ سنتيمتراً ، مثل على هيئة أسد يلتهم عجلاً . نلاحظ أن الإناء ليس فى وضع مستقيم ، والسبب فى ذلك هو أن حركة الوثب الخاصة بالأسد وإنقضاضه على فريسته قد دفعت مقدمته إلى الأمام ، وقد إرتكز على المؤخرة التى فقدت . أما معرفة الأسد وأذناه والعينان فقد أتقنهم الفنان إتقاناً واضحاً ، وظهر الذيل والذؤابة بخطوط سوداء فوق الظهر ، ومثل الأسد فاغراً ثوره فى حركة عنيفة يلتهم مؤخرة العجل الذى يمثل تجويف الوعاء ، وقد صور ذلك الحيوان الأليف جاث على أربعيه ، وقد إلتفت برأسه إلى الوحش الكاسر فى حركة عبرت عنها أسارير وجهه ونظرات عينيه القوية ، وقد ظهر على فم الحيوان الوديع إحساسه بالألم ، وكأنى به وهو يفتح فاهه ويخرج لسانه ينادى أمه أو يستدر عطف ذلك الوحش الذى ينظر إليه بعينين وقادتين . إستطاع الفنان المصرى أن يمثل ذلك الصراع العنيف بين حيوان أليف وديع وآخر مفترس قوى قاهر ، ونجح فى تمثيل القوة والضعف وعبر عنهما تعبيراً صادقا نحس به ونلحسه ونراه فى ذلك الأثر .

بالمتحف المصرى إناء من الخشب على هيئة بطة عثر عليه (بالقرنة) طوله ١٣ر٥ سنتيمتراً وله غطاء وطعم بمثلثات صغيرة من العاج (رقم J. E.45110) ، مثل الفنان الطائر وهو يلتف برأسه ورقبته إلى الخلف ، وكان يهدف من وراء ذلك أن يخلق من الرقبة ومن الرأس وسيلة تيسر حمل الصندوق الصغير ، من أجل ذلك مثلت رقبة الطائر فى شكل دائرى ، وقد اتجهت البطة برأسها إلى الخلف لتخرج على هذه الصورة الفنية التى لا نرى فيها خروجاً عن بعض خواص هذا الطائر ، فهى تعبر عن بطة أرادت أن تركز إلى الراحة فالت برأسها إلى الخلف . أما الغطاء فقد صنع من قطعة أخرى وأحكم غلقه بمقبضين صغيرين فى كل طرف من الأطراف . (أنظر أيضاً رقم J.E.45119) . (هذان المثالان محفوظان بالمتحف المصرى) .

ينتقل الفنان هذه المرة إلى الماء لينقل إلينا منه بعضاً من أسماكه فيتخذ منها وعاءاً ، صنع من القاشاني الأزرق طوله ١٨ر٨ سنتيمتر ، وهو عبارة عن قاعدة وغطاء ، ومن ذلك نستطيع أن نرى التفاصيل الدقيقة في السمكة من قشور مخفورة ومرسومة وزعانف وذيل ، كل ذلك في خطوط منتظمة واضحة كذلك لم ينس الفنان خياشيم السمكة وعينيها وفمها ، كما تظهر السمكة هنا كما لو كانت ثابتة في الماء لا تتحرك لأنه لم يصور زعانفها منتصبه بل ضمت إلى جسدها ، وإلى أسفل أحد هذه الزعانف نقش اسم الملك (تحتمس الثالث) (هذا الأثر محفوظ بالمتحف المصري) .

بالمتحف المصري وعاء صغير على هيئة جرادة (شكل ١٥) رقم J. E.55939 طولها حوالي ١٧ر٢ سنتيمتراً من الخشب إشتريت عام ١٩٣١ ، وقيل إنها من منطقة سقارة وأنه عثر عليها بين هرمي (كاوت ، أبوت) زوجي الملك (تيتي) من ملوك الأسرة السادسة ، وقد مثل غطاء الوعاء في أجنحة الحشرة ، الذي يدور حول مسمار من الخشب إلى القرب من رقبتها ، ويلاحظ أن الفنان قد استطاع أن يخرج قطعة فنية رائعة ، إذ راعى النسب الهندسية بين الجسم والرأس والأجنحة . كذلك ظهرت الأجنحة وبها خطوط أفقية منتظمة انتظاماً هندسياً دقيقاً ، بينما حفر على جسمها خطوط رأسية منتظمة أيضاً ، أما الأرجل فقد مثلت خطوطها بشكل يختلف عن الخطوط السابقة وتشابهت بالأرجل الطبيعية للحشرة . من كل ذلك نستطيع أن نقرر أن الفنان كان عالماً بعلم الحشرات ، أما عن تاريخ ذلك الأثر فأكبر الظن أنه منذ أيام الدولة الحديثة (١) .

بمتحف (بروكلين) بنيويورك وعاء صغير على هيئة جرادة من العاج (٢) .

يوجد بين مجموعة آثار توت عنخ آمون وعاء خاص بالدهون العطرية أسطوانى الشكل ، لا زالت به بقايا من هذه الدهون ، صنع الإناء من المرمر

(١) انظر البحث الخاص عن الجراد في الحوليات A.S.A.E. XXXII p. وفيه وضعت هذه الجرادة وغيرها من الجراد الشبيهة بها والذي استخدم في تجميل أدوات الزينة .

2) Cyril Aldred, New Kingdom art in Ancient Egypt during the Eighteenth Dynasty 1590 to 1315 B.C. (London 1951) pp. 71. 72.

وقد رجح المؤلف احتمال أن تكون من عهد توت عنخ آمون .

وعلى صفحة الإناء الأسطواني المطعم بعجينة الألوان مناظر من الطبيعة السمحة ، فهذا سبع من السباع يخرج من الأحراش ليفتك بشور فيأخذه من عنقه ورأسه ، بينما يحاول كلب في سرعة واضحة إلتهايم نخذ الثور الخلفى ، وعلى الجانب الآخر كلاب تطارد ظباءً وغزلانا ، وأحيط الإناء بعمودين علت هامتهما رأس الإله (بس) ، وقد حمل الإناء على رؤوس أربعة من الأسرى ، زنجيان وأسيويان ، وإذا ما أمعنا النظر في هذه الرؤوس وجدناها معبرة تعبيراً صادقا ، إذ ظهرت عليها تجاعيد الإجهاد الذى تظهر على وجه الأسير نتيجة المشقة من حمل الإناء . أما غطاء الإناء فعلى هيئة تمثال أسد رابض ، يلهث ، ولا يمثل السبع على هذه الصورة إلا إذا أصابه التعب . ويتضح لنا من دراسة هذا الإناء أن الفنان كان علما بطبائع الحيوان وغرائزها ، وعلى ذلك لم يكن الإناء يضم دهنا عطريا فقط وإنما تحفة فنية رائعة .

يضم المتحف المصرى بين تحفه الخاصة بأدوات الزينة أوعية لم تظهر إلا منذ أيام الدولة الحديثة ، وهى عبارة عن قرون بعض الحيوانات أخذت منها وأعدت لتضم زيتا عطريا .

وقد عثر فى حفائر دير المدينة (١) على قرن وجد داخل أحد التوابيت الخاصة بالسيدات ، وطول القرن ٣٦ سنتيمتراً ، وقد أغلق من نهاية طرفه الواسع بغطاء من خشب ، وعثر بجواره على حلقة من المعدن وضعت أصلا فى الجزء المنحنى من القرن . وكانت تستخدم ليعلق منها بقطعة من القماش كما هو واضح بالصورة فى المراجع المذكور . وثبتت فى الناحية الأخرى من القرن ملعقة من الخشب نقش ظهرها على هيئة يديمنى ، وفتح فى راحة اليد ثقب بسيط يوصل إلى ثقب آخر صغير فى هذا الطرف المدبب ليصل منه السائل العطرى إلى الملعقة ، وعثر على قطعة صغيرة من القماش خصصت لإحكام غلق هذا الثقب . وقد احتوى نصف الإناء على سائل دهنى يميل لونه إلى الإخضرار ، وبعد فحصه فحفا كيمائيا تبين أنه زيت استعمل فى التعطير . وهذا الوعاء شبيه بالرداذة (البخاخة) الحالية .

1) B. Bruyère, Rapport sur les Fouilles de Deir el Medineh (1934—1935) Deuxieme partie (Le Caire 1937) p. 84 ph.42.

أوعية الكحل :

اهتم المصريون رجالاً ونساءً بعيونهم ، وقد عثر على أواني خاصة بالكحل لها أشكال مختلفة ، صنعت أيضاً من مواد مختلفة من حجر ومعادن وخشب وغاب ، كما وجدت مصورة على التوايت بجوار أواني العطور ، وعثر على بعض هذه الأواني مغطاه بقطع من الجلد ومربوطة برباط من الكتان ، وأحياناً رسمت أكياس الكحل شفافه بحيث ترى منها مادة الكحل .

وعاء صغير على هيئة جزع النخل وينتهي بالسعف وهو معروض بالمتحف المصري ، وقد حاول الفنان أن يحاكي فيه بعض الأعمدة التي كانت هاماتها على هيئة سعف النخل ، ارتفاعه ١٠.٥ سنتيمتراً . صنع الوعاء من عجينة الزجاج الأزرق ، وقد زينت قاعدة الإناء وهامته بزجاج موج أصفر وأبيض في غاية الجمال والدقة .

بالمتحف المصري وعاء للكحل من الفخار على هيئة قنفذ (شكل ١٦) ، استطاع الفنان أن يخرج إناءً أصور فيه الحيوان تصويراً مفصلاً فرسم جلده على هيئة معينات وهي تمثل الشوك الذي يعلو الجلد ، وكذلك أظهر الوجه بجميع تفاصيله . أما فتحة الإناء فواضحة بظهر الحيوان وقد وضع فيها المروء .

الصناديق والسلال التي كانت تحفظ بها أدوات الزينة :

لم يتخذ الناس في مصر الفرعونيه منضدة يضعون عليها أدوات الزينة كما تفعل الآن ، لكنهم كانوا يحفظون المرايا والأوعية والمغارف (الملاءق) والشفرات ودبابيس الشعر والأمشاط وغيرها في صناديق من الخشب أو في سلال من غاب البردي ، وكثيراً ما كانت توضع هذه الأوعية والقوارير في السلال والصناديق أو بجانب التوايت داخل قبور الموتى .

بمتحف (المتروبوليتان) صندوق خاص بأدوات الزينة (شكل ١٧) لسيدة من سيدات الدولة الوسطى من أيام امنمحات الرابع تدعى (كمنى) ، عثر عليه عام ١٩١٠ في قبر أحد الأشراف بطيبة . صنع هذا الصندوق من خشب الأرز وطعم بالعاج والأبنوس ، وقد أعد الجزء العلوى من الصندوق ليستقبل فيه المرآة ، وبالجزء الأسفل درج قسم إلى ثمان فتحات تضم أواني الدهون العطرية ، وقد كتب على غطاء الصندوق اسم امنمحات الرابع داخل

(خرطوش) والتعويذة الخاصة بالقرايين وألقاب صاحبة الصندوق . وعلى الجانب الأمامي للصندوق منظر يمثل (كمنى) ، وهي تقدم إناءين مملؤين بدهن معطر إلى الملك المنمحات الرابع ، ويغلق الصندوق بمنزلاج يمر في فتحة من الفضة في الجزء الأمامي من الدرج ، وبالقرب من الصندوق أوعية خاصة بالكحل صنعت من المرمر أحدها على هيئة أوزتان استدارت رقبتيهما لتكونا عروتي الإناء ، ومثل الوعاء الثاني على هيئة قرد ، والثالث على صورة إناء مستدير .

بالمتحف المصري إحدى السلالات التي كشف عنها في دير المدينة من البوص وغاب البردي بشكل بيضاوى طولها ٢٦ سنتيمتراً وعرضها ١٥ سنتيمتراً وارتفاعها ١٣ سنتيمتراً ولها غطاء مسطح . ووجد بالساعة مشطان من الخشب وثلاثة أعواد صغيرة خاصة بالكحل ومحك من الظران وإناء للكحل من المرمر ودبوس للشعر من الأبنوس وإناء صغير من الفخار وبقايا أصداف كانت تستعمل كعنصر من عناصر المساحيق التي تضاف إلى بعض مستحضرات التجميل ، ولازالت بعض مساحيق الصدف تخلط بالطلاء الذي يوضع على الأظافر (المانيكير) لتجعلها براقه .

عثر على صندوق من البوص مؤرخ من العصر اليوناني الروماني بسقارة وبداخله ثمان زجاجات صغيرة وأصداف ومشط ووعاء للكحل ، وهو محفوظ بالمتحف المصري تحت رقم J. E . 79039 a' q .

أواني أو مغارف (ملاعق) خاصة بمستحضرات التجميل

إننتقل الفنان إلى لون آخر في صناعة أواني أو مغارف خاصة بمستحضرات التجميل ، وأكبر الظن أن هذا الاتجاه الجديد قد خلقته ظروف الأيام حينما إتسعت رقعة الإمبراطورية المصرية في عصر الراحة والرخاء المادى ، حيث فكر الناس في التمتع بثمرات الجهاد الطويل . ستظهر هذه الأوعية في عصر الطرب وما يقوم حوله من إنغماس في اللذات وما يتبعها من أبهة وعلى الأخص أيام امنوفيس الثالث ، وكان يموج البلاط في أيامه بالعناصر الآسيوية التي جاءت تحمل خيرات بلادها .

أخذ الفنان يتجه إتجاهاً جديداً يلائم العصر ، فمثل بعضاً من الأسرى

الأسويين ، والجنوبيين ، كذلك الجوارى وهم يحملون أوعية الزينة والتجميل ويضم المتحف المصرى وغيره من دور المتحف العالمية نماذج مما قام بها الفنان من تمثيل هؤلاء الأسرى يحملون بعض الأوعية التى كانت تضم زينة الناس من آل فرعون .

يحتفظ متحف اللوفر بوعاء صغير أو مغرفة من الخشب ، وهنا نرى جارية عارية إلا من حلقة فوق صدرها ، وقد ظهرت واقفة على قطعة مستديرة من خشب أغلب الظن أنها من أدوات الموسيقى ، ويسراها كيس من قماش مطرز ، وتحمل فوق كتفها الأيمن معتمدة على ذراعها أناءاً له عروتان حمل على زهرات من لوتس ، أما غطاء الإناء فيتم فتحة بواسطة مسبار متحرك يرى بالقرب من رأسها . والأثر رائع خصوصاً ذلك القوام الرشيق للفتاة ووجهها والشعر الذى ينساب بجذيلة فوق صدرها .

صندوق أو مغرفة (شكل ١٨) ، وترى الجارية وقد وضعت فوق كتفها وعاءاً له عروتان ، وربما كان يمثل تجويف المغرفة الخاصة بمسبحات التجميل ، مثلت الجارية تميل إلى الأمام قليلاً حتى تتمكن من حمل الإناء ، وهناك غزالة تحملها الفتاة لم يظهر منها إلا الرأس . ونلاحظ أن الجارية كانت تضع على صدرها رداءً مطرزاً تطريزاً بديعاً بأشكال هندسية جميلة ، وتدل من رأسها فوق الكتف وعلى الصدر جدائل من شعر مستعار .

بالمتحف المصرى وعاء من الخشب إرتفاعه ١٤ سنتيمتراً (شكل ١٩) رقم J·E· 31382 على هيئة أسير حليق اللحية وشعر الرأس ، جاثياً على أحد ركبتيه فوق قاعدة من الخشب أيضاً يرتدى مئزراً قصيراً ، وصدره عار ورأسه كبيرة وعيناه واسعتان وجبهته عريضة ، وملاح وجبهته معبرة تعبيراً صادقاً ففى عينيه وفيه إحساس بال ألم وشعور بضيق ، فهو يحمل فوق كتفيه إناءاً ، وحفر على الجزء الأسفل للوعاء رسم يمثل فروع بعض الأشجار وثلاثة عجول تعدو ، أما رقبة الإناء فزينت بثلاث طويلة وخط مموج ومربعات على هيئة رقعة الشطرنج ، وحفر على الغطاء عجل يعدو وقد طعم بالعاج . والغطاء مقبب وقد ثبت فى الإناء برباط من كتان ، وزود بخاتم من طين عليه نقش . والخلاصة أن الصانع المصرى استطاع أن يصور أسيراً تصويراً واضحاً

عبر فيه تعبيراً صادقاً بما كان يجول بخاطرهم ، فهو يعلم أن بعض هذه الدهون والعمود يؤتى بها من قلب أفريقيا أو من آسيا ، فلا أقل من أن يحملها واحد من أهالى هذه الأقطار البعيدة النائية بعد أن يقطع بها الفيافي والقفار ويشقى فى سبيل إحضارها إلى فرعون مصر (١) .

بمتحف اللوفر صندوق صور على هيئة أسير من أولئك الذين رأيناهم فى الوعاء السابق ، وقد مثل الأسير بشفتين غليظتين وأنف كبير وفك عريض وجبهة ضيقة ، وقد حمل الأسير فوق كتفه إناءاً أو صندوقاً أحيط بزهور وأوراق نباتات . استطاع الفنان أن يمثل ذلك الأسير الأسيرى تمثيلاً صادقاً بجميع ما نلاحظه من أسارى الأسرى ، وقد ظهر كبير البطن مكتر الصدر بالشحم واضعاً على ذراعه زدهاءه (٢) .

المغارف (الملاءق) الخاصة بالمساحيق :

عثر على كثير من الملاءق الخاصة بالمساحيق من مواد وأشكال مختلفة ، ولا تخلو دار من دور المتحف العالمية منها . وسنحاول إعطاء بعض الأمثلة . وأقدم ما كشف من هذه المغارف ما يرجع إلى عصر التأسيس إذ عثر فى حفائر حلوان فى السنوات الأخيرة على مغرفة لها تجويف بسيط وتنتهى يدها برأس غزالة (٣) .

١ — مغارف على هيئة خرطوش:

بالمتحف المصرى مغرفة من الخشب عثر عليها بسقارة عام ١٨٦٣ طولها ٢٠ سنتيمتراً ، وهى مستطيلة الشكل تجويفها على هيئة خرطوش ، نقش بداخله بعض زهور من اللوتس والبروى ، وإلى أسفل الطغراء يد المغرفة ، وقد حفر على وجهها غزالة تعدو شدة من رأسها وأذنيها بحبال ، وأمامها وخلفها زهرات من لوتس .

1) A.S.A.E.T. II Fig. 2.

(٢) أنظر أيضاً مجموعات المتحف المصرى فى تضم وعاءين على هذه الصورة تحت رقمى J. E. 31928, J. E. 29356.

3) Zaki Youssef Saad, Royal Excavations at Helwan 1945—1947) pl. Xxllleu b tomb No. 104 and tomb No. 299 H 5.

بالمتحف المصرى مغرفة من هذا النوع يدها على هيئة رأس أوزة منحنية رقبته لتكون عروة لتعلق منها، وقد استطاعت رقبة الطائر نخرج منها ثلاث زهرات من بردى يرتكز عليها تجويف المغرفة الذى مثل على هيئة خرطوش وقد زين من الداخل بزهرات وبراعم من اللوتس ومياه تسبح فيها أسماك .

٢ — مغارف أيادها على هيئة رأس طائر :

مغرفة بالمتحف المصرى من المرمر طولها ١٤٣ سم سنتيمترًا رقم J. E. 30759 ، عثر عليها بسقارة ويدها على هيئة جزء من جسم الطائر، وقد انحت رأس الأوزة حتى كونت عروة تعلق منها .

٣ — مغارف أيادها على هيئة زهرة :

بالمتحف المصرى مغرفة طولها ٢٦٥ سم سنتيمترًا من الخشب ، نحتت يدها نحتاً دقيقاً على هيئة مجموعة من زهور اللوتس . وقد راعى الصانع الدقة في إبراز كثير من تفاصيل هذا النبات . وأعتقد أنه صور هذا الزهر يذبت في إناء إسطوانى الشكل زينته صفحته برسوم هندسية مربعة ومستديرة وخطوط رأسية وعرضية منتظمة إنتظاماً دقيقاً . أما تجويف المغرفة فمثل على هيئة ورقة من أوراق شجر الأرز (١) .

مغرفة من الخشب بالمتحف المصرى طولها ١٥٥ سم سنتيمترًا عثر عليها بسقارة عام ١٨٩٨ على هيئة زهرة من زهرات البردى يحيطها برعمان ، وقد شدت سوق الزهرة برباط على هيئة حلقات منحوتة في الخشب .

يضم المتحف المصرى بين ودائع مغرفة من الخشب طولها ١٦٥ سم سنتيمترًا لا يختلف تجويفها عن المغارف الحديثة (الملاعق التى نستخدمها الآن فى الأكل) أما يدها فقد نحتت على هيئة أسنان المشط الذى كان يستخدم فى تصفيف الشعر ، والد حفرة على اليد جدائل مضمرة من الشعر .

بمتحف بروكلين مغرفة أو صندوق صغير على هيئة ثمار الرمان (شكل ٢٠) .

1) Cahier No. 5 supplement des A.S.A.E. p. 39 Fig. 36 et Fig. 37.

(م ٣ — المجلة التاريخية)

٤ — مغارف أياديها على هيئة حيوان :

يبدأ الفنان هذه المرة إختيار موضوع آخر من الطبيعة المصرية السمحة، فيتخذ من الخشب أو العاج تماثيل حيوانية برية وبحرية لتكون أيادي لتلك المغارف ، أما التجاويف فكانت على هيئة حيوانات مائية أو برية أيضاً .

بالمتحف المصرى مغرفة من الخشب طولها ٢٢ سنتيمتراً C . G . C . 45 123 ، يدها على هيئة كلب ينقض بفمه على سمكة التى تمثل تجويف المغرفة . أراد الصانع المصرى أن يتصرف ليجعل من هذا الحيوان يداً للمغرفة، فنجدته قد نحت الكلب ممتداً أرجله الخلفية وذيله وجسمه ، أما الأرجل الأمامية فتعاونه على قضم السمكة ، وتلك عادة نلاحظها عند الكلب حينما يلتهم العظام أو غيرها مما يأكل من أشياء صلبة . أدرك الفنان القديم كل ذلك عند هذا الحيوان ، فلم ينس التفاصيل الخاصة بالكلب ، وكل ما يوجد بالرأس والجسم والأذنين ، أما السمكة فثلث تمثيلاً صادقاً ، فقد نحت جسدها ليتسع للمساحيق ، أما فمها فيلا حظ عليه فتحة ضيقة نتيجة لتأثرها بما أصابها من أنياب ذلك الحيوان . كل ذلك يدل على دقة الفنان المصرى .

٥ — مغارف أياديها على شكل جوارى :

يتجه الفنان المصرى إلى لون آخر من المناظر المنحوتة على الخشب فيتخذ من بعض الجوارى وهن يجمعن زهرات اللوتس أو يضربن على القيثارة ، أيادي لبعض مغارف مساحيق التجميل . وإلى القارىء الكريم بعض هذه المغارف . بالمتحف المصرى C . G . C . 45 136 مغرفة طولها ٢٥ سنتيمتراً من الخشب ، تمثل إحدى الجوارى تقف فوق زورق يسير على الماء ، ويخرج من الغدير زهرات من اللوتس ، وغالباً ما كانت تحاول الجارية أن تدفع الزورق بعضاً قد تبقى جزء منها فى يدها اليمنى ، والجزء الآخر ملتصق بالزهر والقارب ، وقد اسندت يدها اليسرى على زهر اللوتس ويخرج من وسط هذا كله تجويف المغرفة وسط زهور اللوتس وثمار بعض النباتات يكتنفها براعم اللوتس . أما الجارية فقد ارتدت مژراً قصيراً ، كما تتحلى بصدرية وتضع فوق رأسها شعراً مستعاراً تدلى حتى صدرها .

تقتنى متاحف الآثار فى أوربا مغارف من هذا النوع الأخير فى غاية الدقة والجمال . وقد آثرت وأنا اكتب وصفاً لبعض أدوات الزينة من هذا النوع

أن أطلع القارىء على طرف من ثروة حضارة مصر الفرعونية نقلها الضعف السياسى إلى أوربا . ويضم متحف اللوفر بباريس من هذه المغارف أحسنها وأجملها وأكثرها تنوعاً . ومن هذا النوع على سبيل المثال أربع مغارف من الخشب ، إحداهن تمثل فتاة تقف بين زهرات اللوتس ، وقد تجمع بعض من الزهر فوق رأسها . أما الثانية فتتمشى على استحياء بين زهر البردى وهى تحمل قيثارة ، وعلى رأسها زهرات من لوتس يخرج منها تجويف المغرفة . والثالثة (شكل ٢١) تقف فى زورق يسير فوق الماء بين الغاب وزهر البردى ، أما تجويف المغرفة فمستطيل الشكل زين بغدير ينمو حوله البردى . والرابعة (شكل ٢٢) يدها على هيئة جارية تحمل على ذراعيها طيراً وزهوراً .

إستطاع الفنان فى هذه القطع الأربع أن يخرج فتيات مصريات لهن ملامح مصرية صميمة ، فالأولى تلك التى ظهرت بين زهرات اللوتس ، فيها جمال رائع وأناقة واضحة ، خصوصاً شعرها ورداؤها التى رفعتها لتستطيع السير وسط الغاب دون أن يتمزق أو يتلف ، أما الثانية فقد تجردت من ثيابها إلا من قماط حول خصرها ، بينما ظهرت الثالثة فى قوام رائع ورشيق ، ورابعتهن عليها مسحة من جمال فتان .

راعى الفنان فى هذه القطع الدقة فى تصوير الزهر والأوراق وأنواع طير الماء ، كل ذلك جاء نتيجة حسن ملاحظته ودراسته العميقة للنبات والحيوان والطير ، فهذا طير الماء الذى صور فى المغرفة الثالثة مثل جالساً على زهرات البردى يستمتع لعازفة القيثارة التى تمر بالغدير ، وقد عودتهم الطبيعة أن يسكنوا عن الصفير حين سماع الأصوات والأنغام الموسيقية .

٦ — مغارف ذات أيدي على هيئة فتيات سابحات (١) :

إتخذ الناس أيام الدولة الحديثة حيث الرخاء المادى ، مغارف لها أيدي على هيئة فتيات سابحات تجردن من الثياب إلا من بعض الأقمطة حول الخصر ، كما زين جيدهن ببعض الزينة ، كما وضعت إحداهن قرطاً فى أذنيها .

1) A.S.A.E.T. L 11 Remarques sur les « Cuillères à fard » du type dit à la nageuse.

مثلت إحدى السابحات المعروضة بالمتحف المصرى من خشب طولها ٣٠ سنتيمترًا ، وهى جارية مصرية طرحت على بطنها ، ومدت ذراعيها لتضع فوقهما تجويف مغرفة مساحيق التجميل على هيئة بطة نفتح فيها .

باللوفر أيضاً إحدى السابحات (١) غالباً ما تكون زنجية ، فتصفيفة الشعر وملاخ الوجه كلها تدل على صحة هذا الرأى ، وقد مثلت ممددة على بطنها كزميلاتها السابقة ، ووضعت على ذراعيها طير رأسه من عاج وقد طعمت رقبتة بالأبنوس ، أما جسمه فكان هو تجويف المغرفة ، وظهرت الفتاة عارية إلا من بعض الأشرطة على صدرها وما تحت خصرها ، كذلك زين جيدها بشئ من خرز .

يقتنى متحف بروكلن (شكل ٢٣) إحدى هذه السابحات من الخشب ويظهر أنها من أهل الجنوب ، صف شعرها بطريقة تختلف عن تلك التى رأيناها عند المصريين ، ومثلت الفتاة ممددة على بطنها وقد وضعت على يديها إناءاً على هيئة طائر من الطيور ضاع رأسه ورقبته ولم يبق منه إلا الجسم والذيل ، ولم تضع هذه الزنجية إلا قماطاً من قماش .

بالمتحف المصرى مغرفة (شكل ٢٤) من الخشب طول يدها ٤٣ سنتيمترًا على هيئة سيدة إستلقت على بطنها ومدت ذراعيها: ايوضع عليها وعاء العطور و تجويف المغرفة . ومن النظرة الأولى إلى الرسم نرى فى هذه التحفة الفنية الكثير من العناية التى إمتاز بها الصانع المصرى القديم فأخرج سيدة ذات ملاخ مصرية قديمة ، وقد صفت شعرها ، وألقت بجزء من جدائلها المنتظمة على أذنائها اليمنى ، وهى آخر المبتكرات الحديثة فى فن تصفيف الشعر وزينت جيدها بصدرية من الخرز وكذلك رسغها إزدان بأساور ، أما جسدها فربط بأشرطة رقيقة عليها آثار من ذهب . ونستطيع أن نقول بعد الذى شاهدناه من جمال النحت فى هذه المغرفة أن الفنان المصرى أعطانا فكرة صادقة عن جمال الأجسام فى مصر الفرعونية ، إلى غير ذلك من سحر العيون وجمال الخلقة وخفة الروح .

1) J. Vandier, Les Antiquités Egyptiennes au Musée du Louvre (Paris 1946) pl. XIII, 1.

خاتمة :

ذلك عرض سريع ومرآة صافية ، نستطيع أن نرى فيها صور الماضى البعيد لحضارة مصر الفرعونية رغم ما مضى بها من محن أفقدها الكثير من ذلك التراث ، فوقع بين لصوص الآثار ونقل إلى أيدي المستعمر حينما مرت بلادنا الطيبة بفترة من فترات الضعف السياسى .

نستطيع أن نستنتج مما قدمنا له من قبل مقدار ما ترك المصريون القدماء من آثار تدل على سلامة الذوق وصدق التعبير ودقة الملاحظة وحب الطبيعة ، كل ذلك ظهر واضحاً فى صناعة الأباريق والمرايا والشفرات والمغارف والامشاط الخ . أتاحت لهم الأيام الكثير من متاع الدنيا ، خصوصاً أيام الدولة الحديثة إذ تدفق الخير على البلاد ، فأخذ الصناع يصنعون من الحجر والنحاس والخشب والعاج أوان وصحاف زينوا بها دور المترفين . ربما يتهم بعض الناس المصريين القدماء بالإسراف فى صناعة أدوات الزينة أو ميلهم إلى المبالغة فى الكماليات ، لكن حب المصريين للفن وشغفهم بالطبيعة وما فيها من جمال ساحر ، وإيمانهم بالبعث ، كل ذلك دفعهم إلى العناية بكل شىء ، والإفادة من كل شىء ، ما كان فى حياتهم الخاصة والعامة ، فجمالوا كل ما يرونه وما يقومون بعمله حتى يقربونه من درجات الكمال .

لاحظنا فى هذه الدراسة السريعة عبر آلاف السنين أن المصرى كان دائماً التفكير فى الطبيعة ، فصور السمك فى الماء والطير سابحاً والحركة من حول ذلك ، وما ظهر من نبات حول الماء وما فوقه من زوارق ، كل ذلك رسم رسماً واضحاً . كما صور الوحوش الكاسرة والطيور الجارحة فى تماثيل دقيقة وبأوضاع مختلفة . وقد إمتاز فنّه بالتنوع حتى أننا لم نربين هذه الآنية التى قمنا بدراستها إناءاً يشبه الآخر .

نظر المصرى إلى ما حوله من نبات وزهر وإمكان الإفادة مما خلقه الله فى هذه الأعشاب والأشجار من رائحة زكية ، ولماذا لا يتخذ منها عطراً طيباً يملأ نفسه إنشراحاً ، كما أرسلت البعثات إلى بلاد (بنت) أيام الملكة حتشبسوت لاستحضار النباتات العطرية ، كذلك وفد إلى وادى النيل من آسيا الكثير من العطور الآسيوية .

أما عن الضوء الذى ألقته الحضارة المصرية على غيرها من الحضارات فى الشرق القديم فأمر ذلك واضح مما خلفه الناس من هذه الشعوب من قوارير خاصة بالزيت العطري ومغارف ومرايا الخ... استخدمها سكان الشرق القديم فى كثير من بقاع فلسطين وسوريا . وتلك صور من الحياة المصرية نقلت إلى بلدان الشرق لتكون دليلا على مقدار تأثير الناس بالحياة المصرية الرفيعة . فهذا أحد الأمراء الاسيويين حينما جاءه سفير مصر (ون آمون) يعترف له بما يلى ويقول « أن آمون أنشأ كل البلاد ، ولكنه أنشأ من قبل أرض مصر التى أتيت منها . لقد أتت منها الصناعة لتصل إلى مكاني ، لقد أتت الحكمة منهما لتصل إلى مكاني . . . مامن سفينة إلى النهر ليست لآمون . إن البحر ملك له . . » ومن ذلك نرى اعتراف بزعامة مصر فى العلم والصناعة .

وبعد أرجو أن أكون قد وفقت فى تلك النظرة العابرة إلى إظهار بعض معان هذه التحف الفنية الخاصة بأدوات الزينة فى مصر الفرعونية .

دكتور عبد الحميد زايد

الأستاذ المساعد

بكلية الآداب جامعة القاهرة



۱ کا

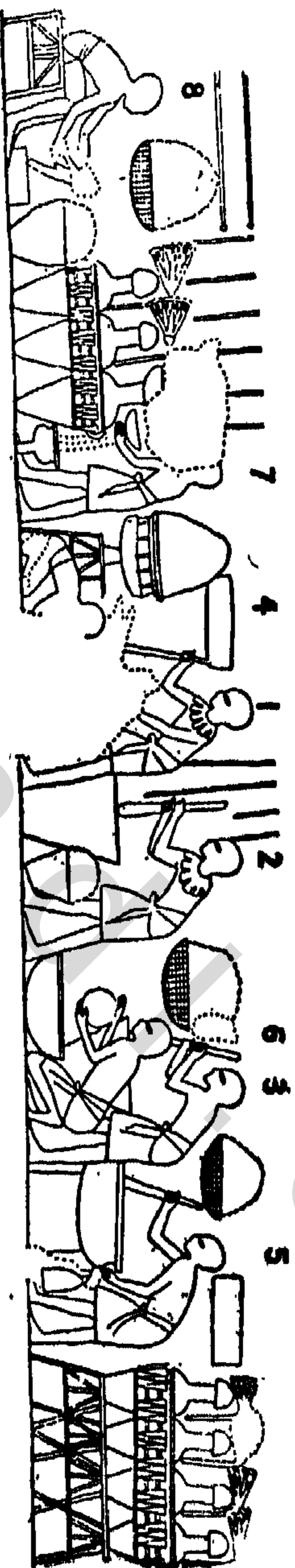
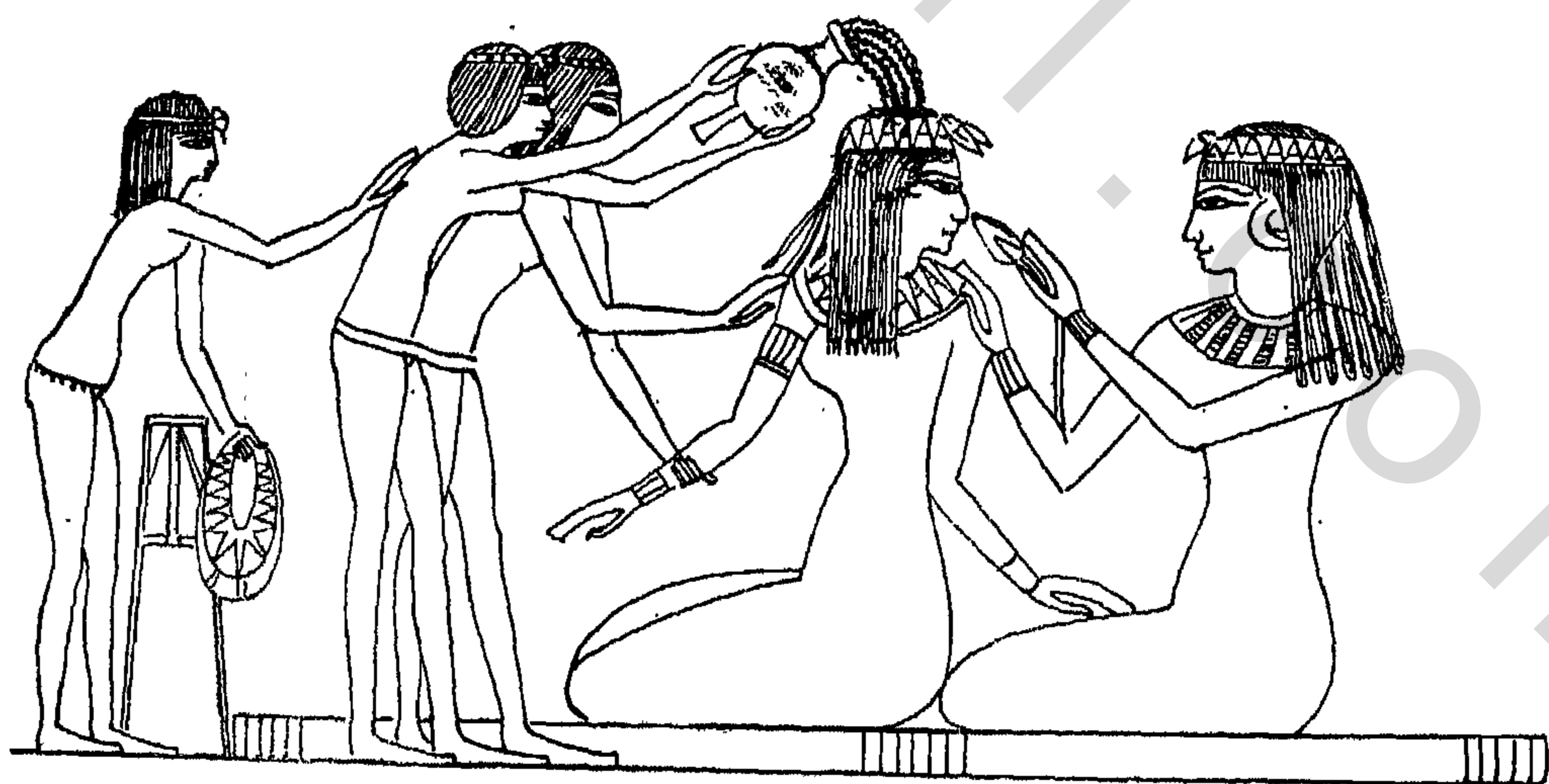


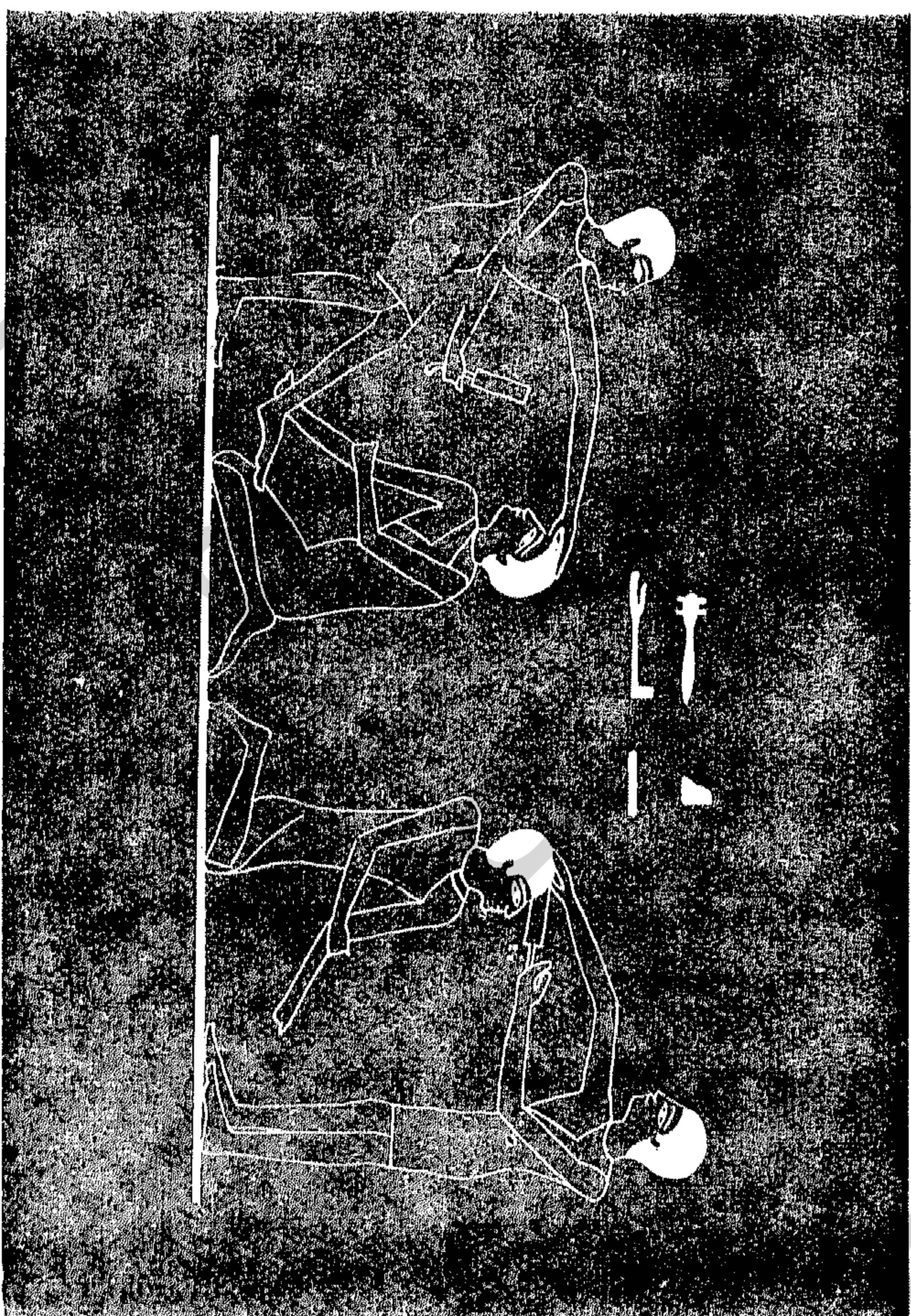
FIGURE 190—An ointment-compounder's workshop. Three assistants (1, 2, 3) crush dried herbs or olives with pestle and mortar. The man crouching (4) is possibly grinding further ingredients on a quern. The mixture is added to the bowl of molten fat and stirred (5). On cooling, it is shaped into balls (6). The seven jars, decorated with flowers, probably contain spiced wine, a useful solvent because of its alcohol-content. An assistant (7) is siphoning wine out of one of them and filtering it into a bowl. The man on the extreme left (8), shaping a piece of wood with an adze, is perhaps the overseer. A bowl heaped with the unguents that have been made rests on a table above the crouching figure. From a tomb at Thebes, Egypt. c 1500 B.C.



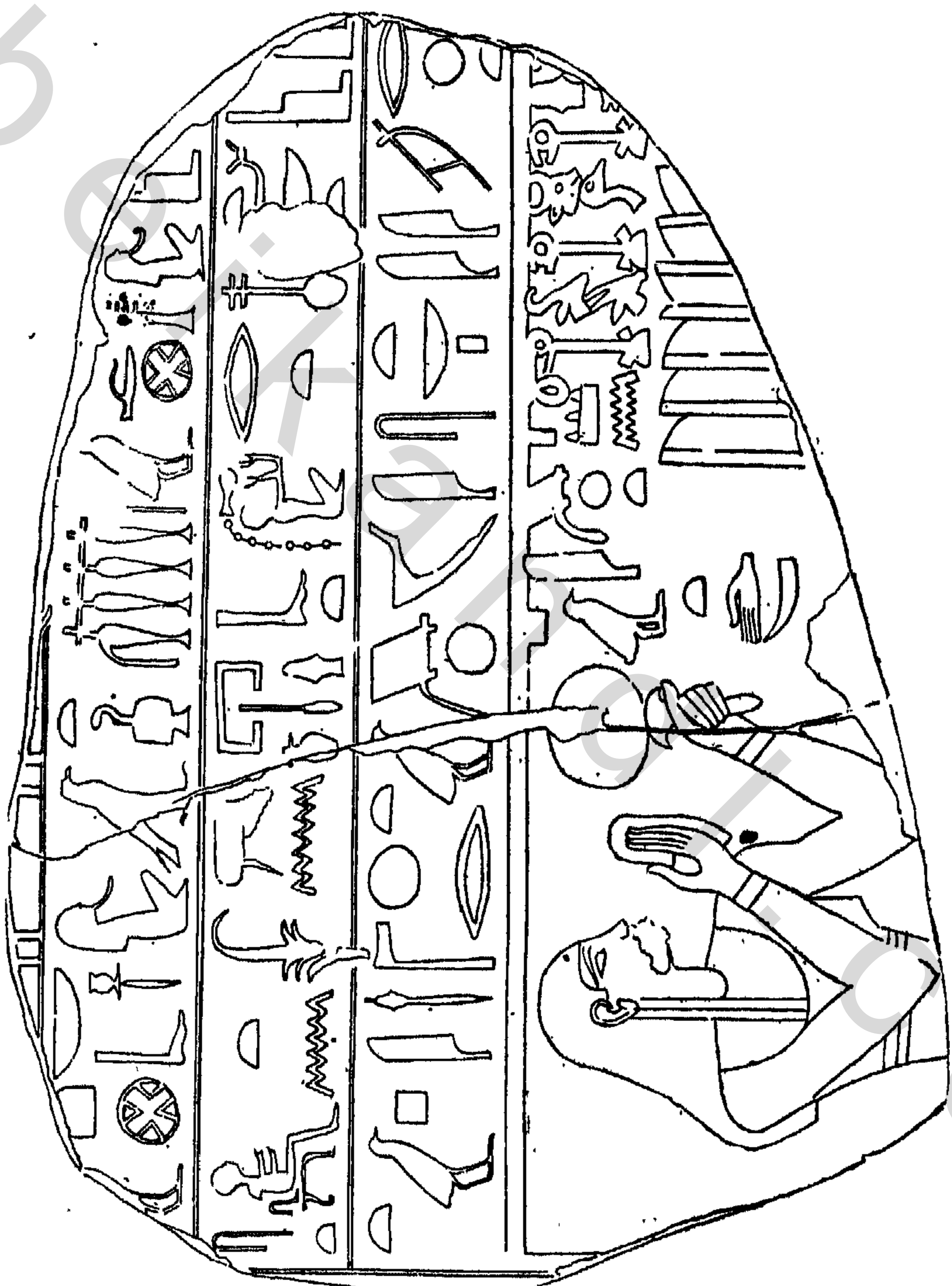
شکل ۳



شکل ۴



شکل ۵



شكر ٦



۷
عکس

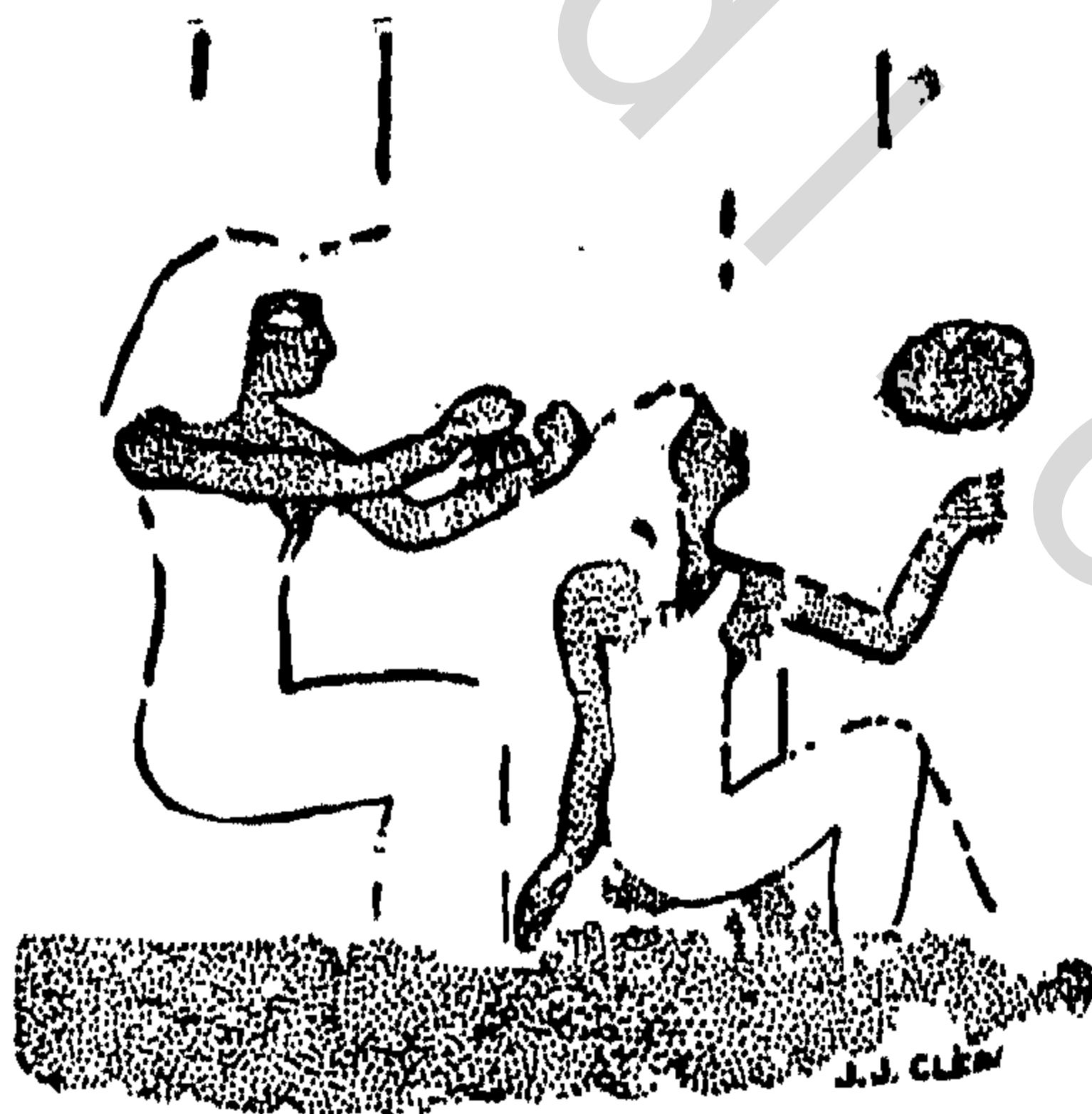




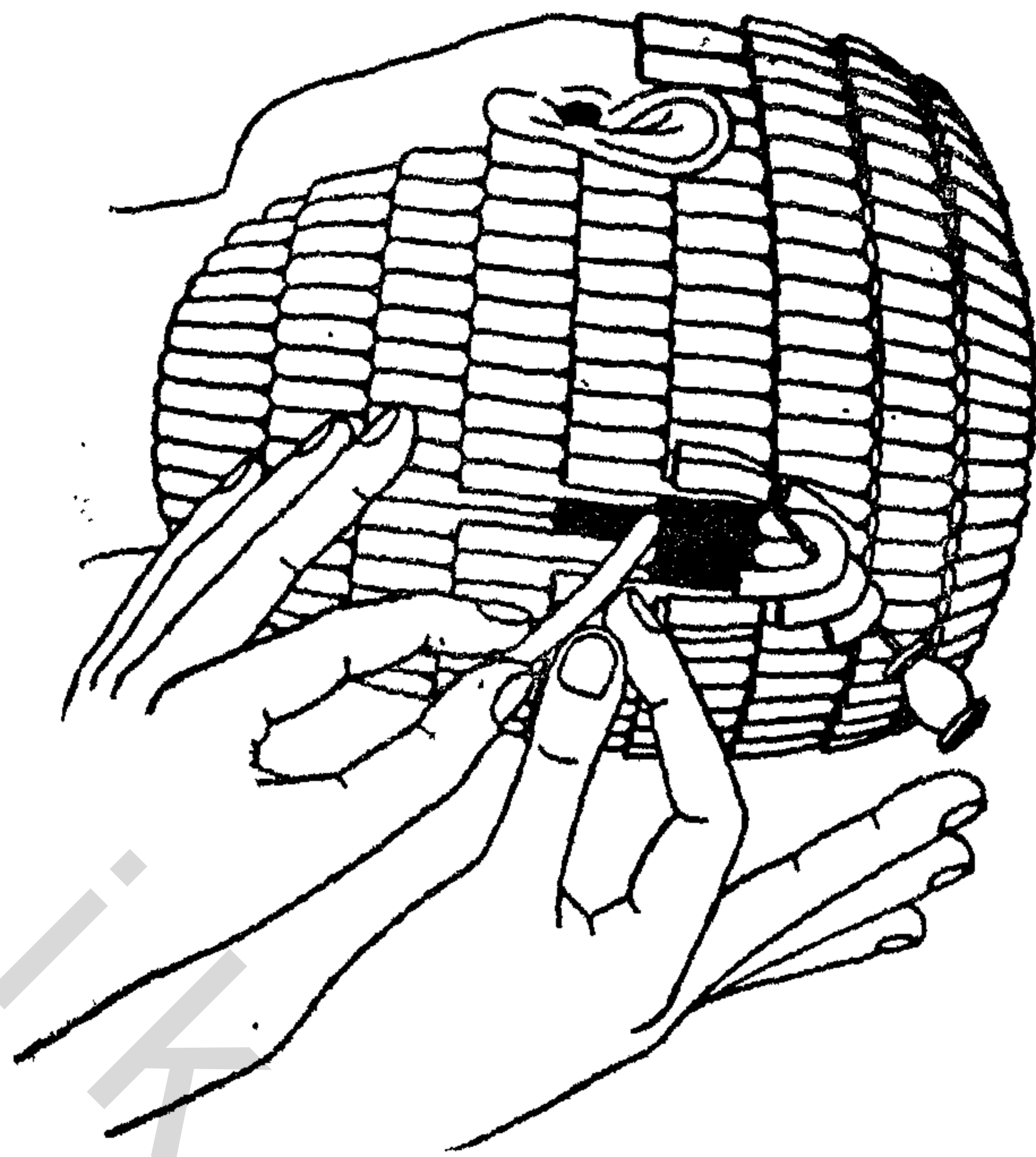
شکل ۱۰



شکل ۹

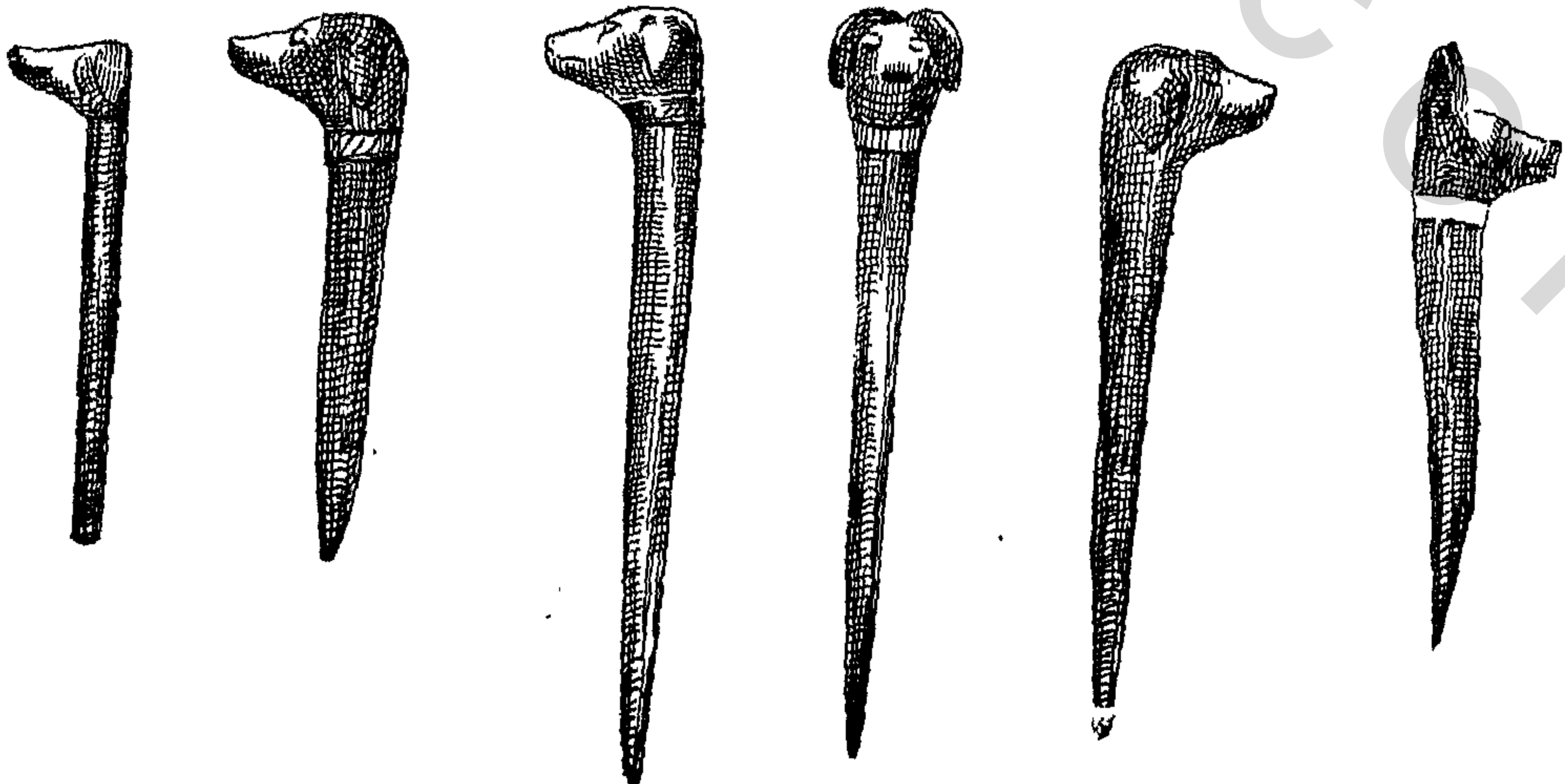
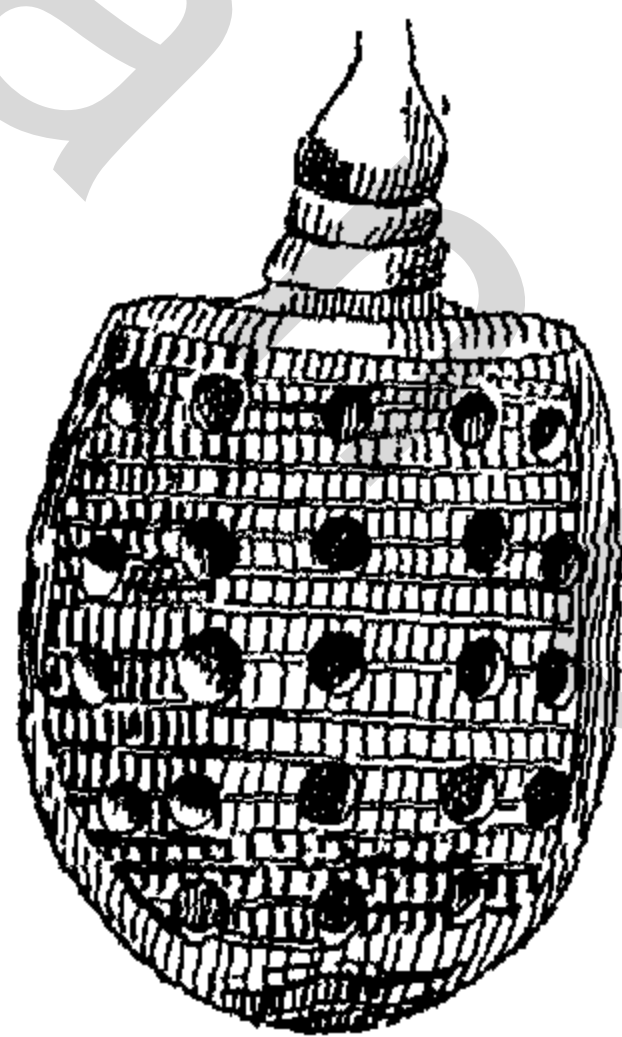


شکل ۱۱



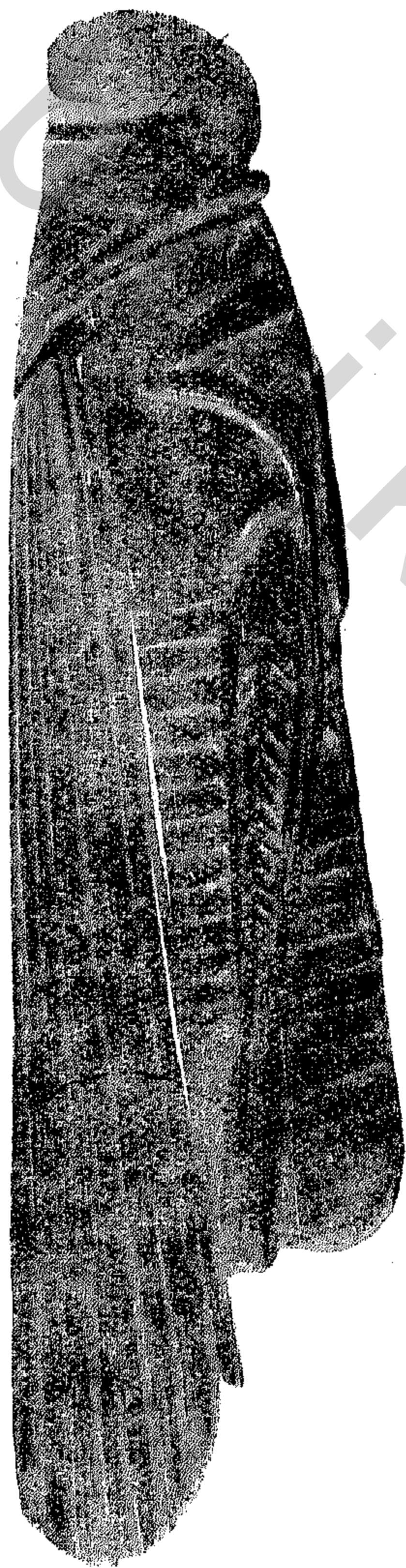
شکل ۱۲ ←

↓ شکل ۱۳

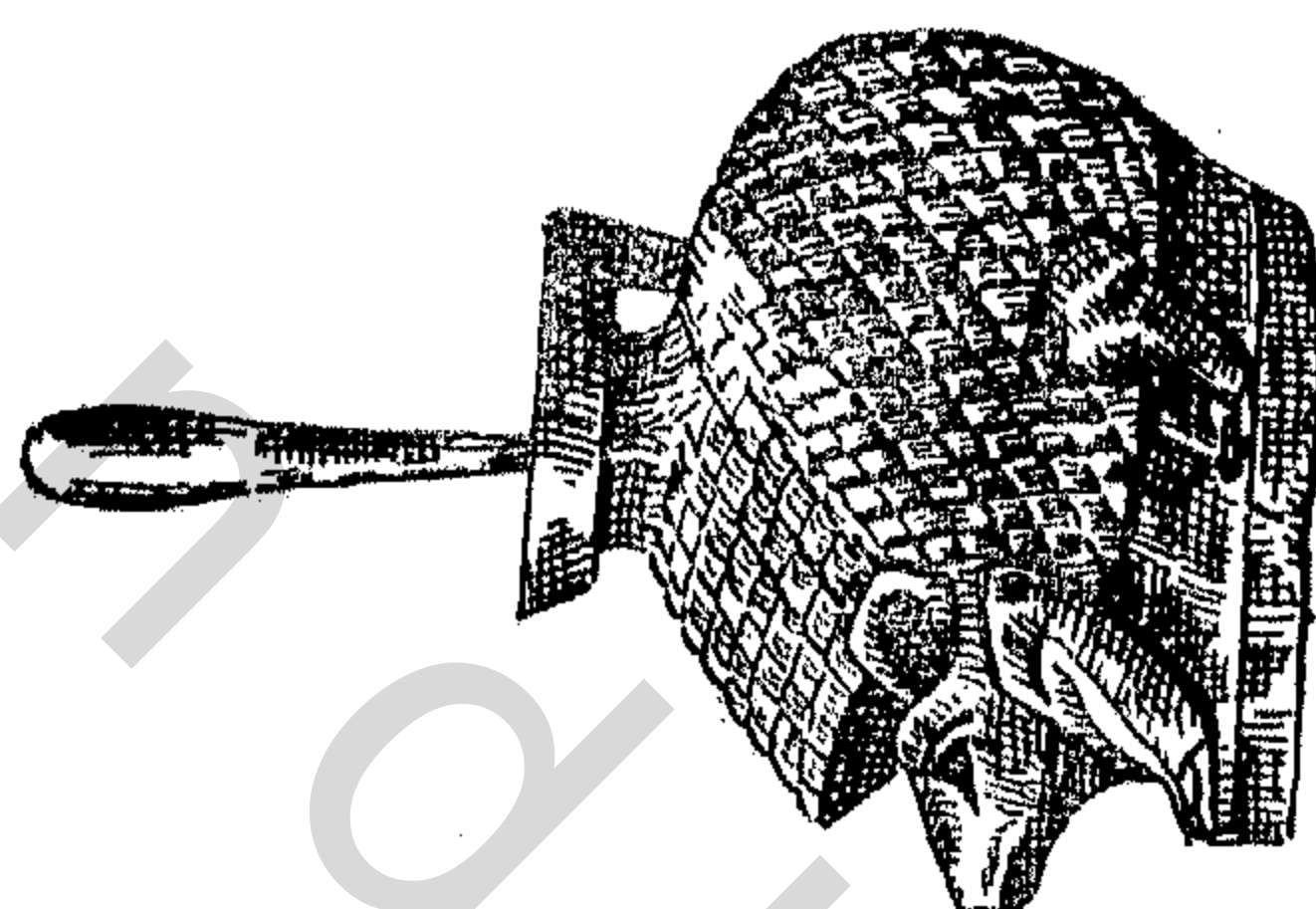




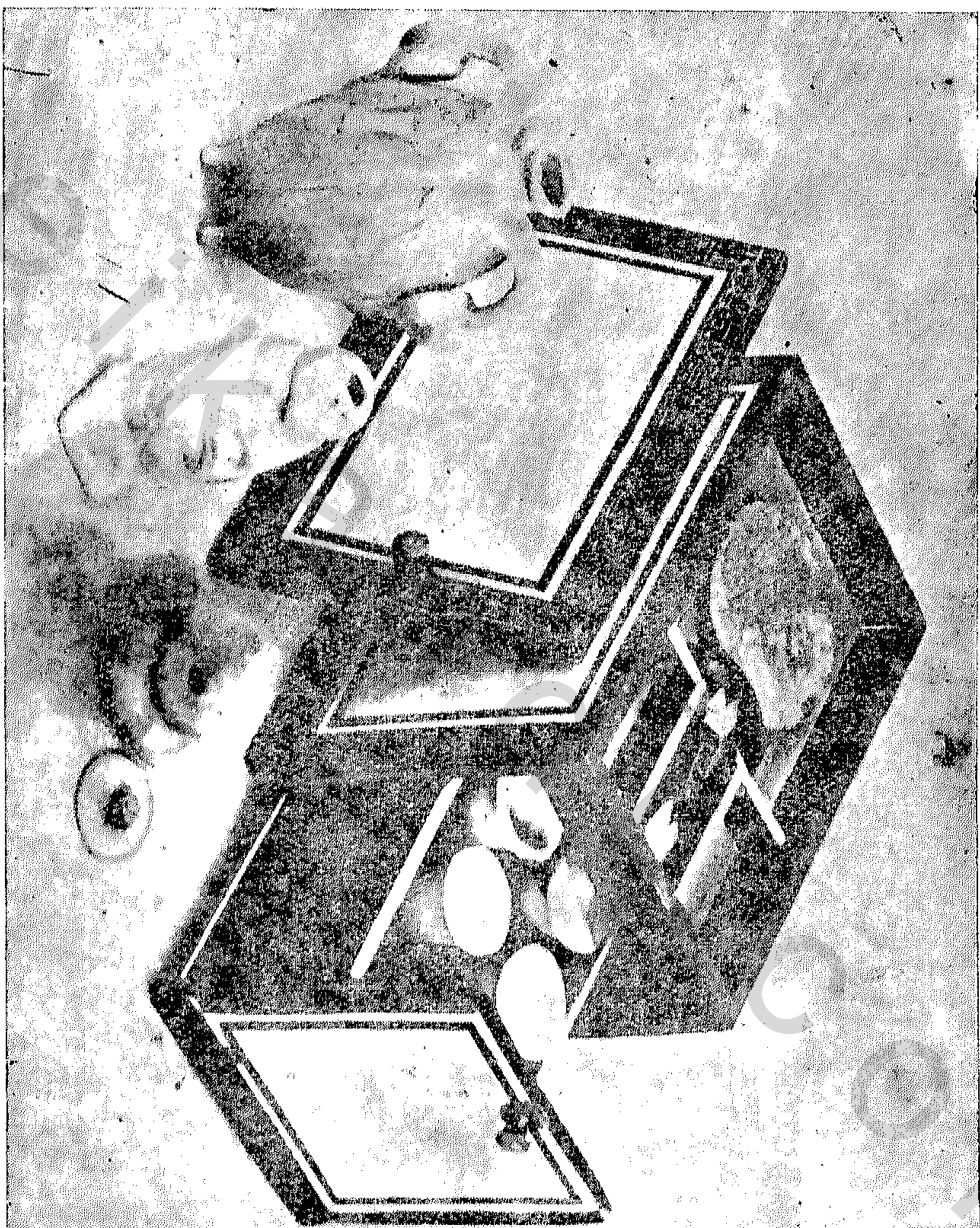
شکل ۱۲



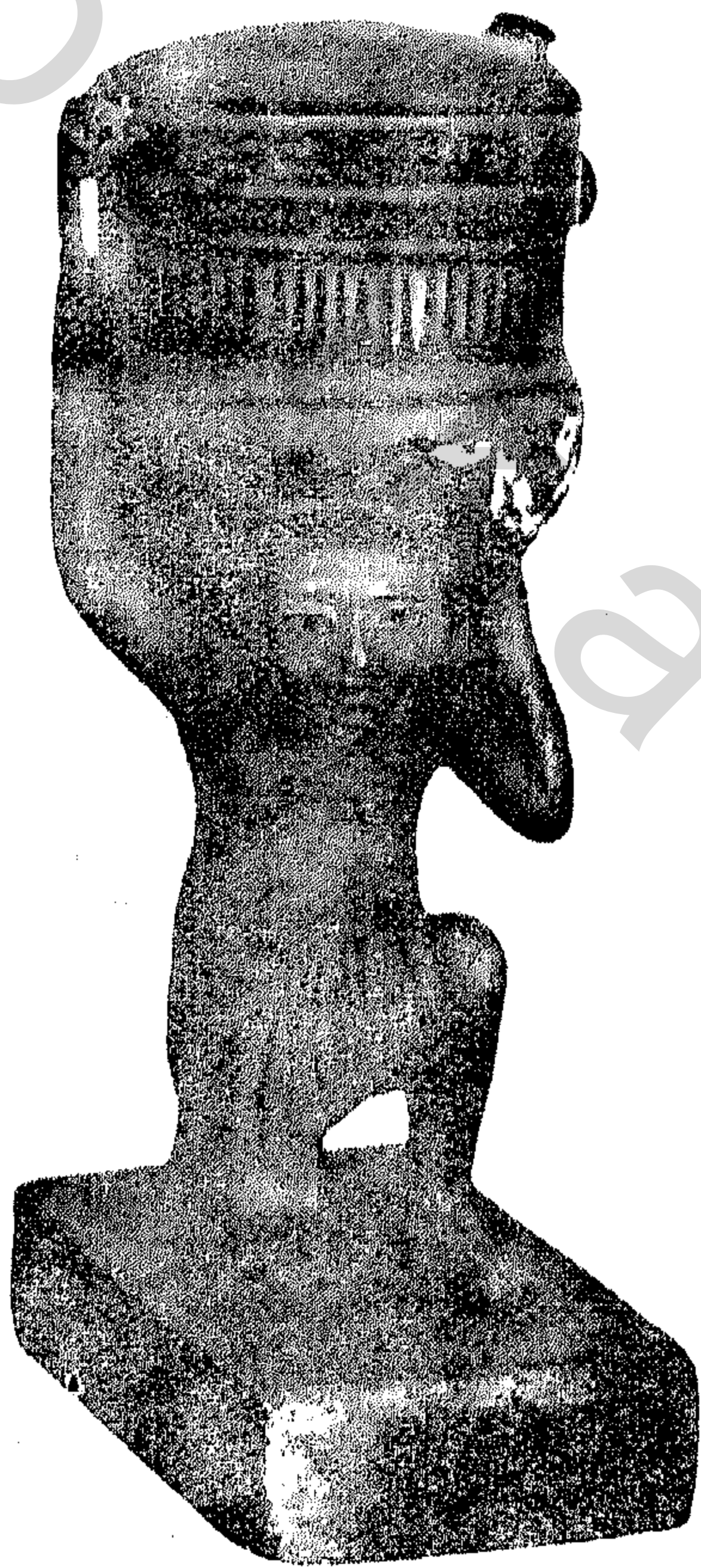
شکل ۱۰



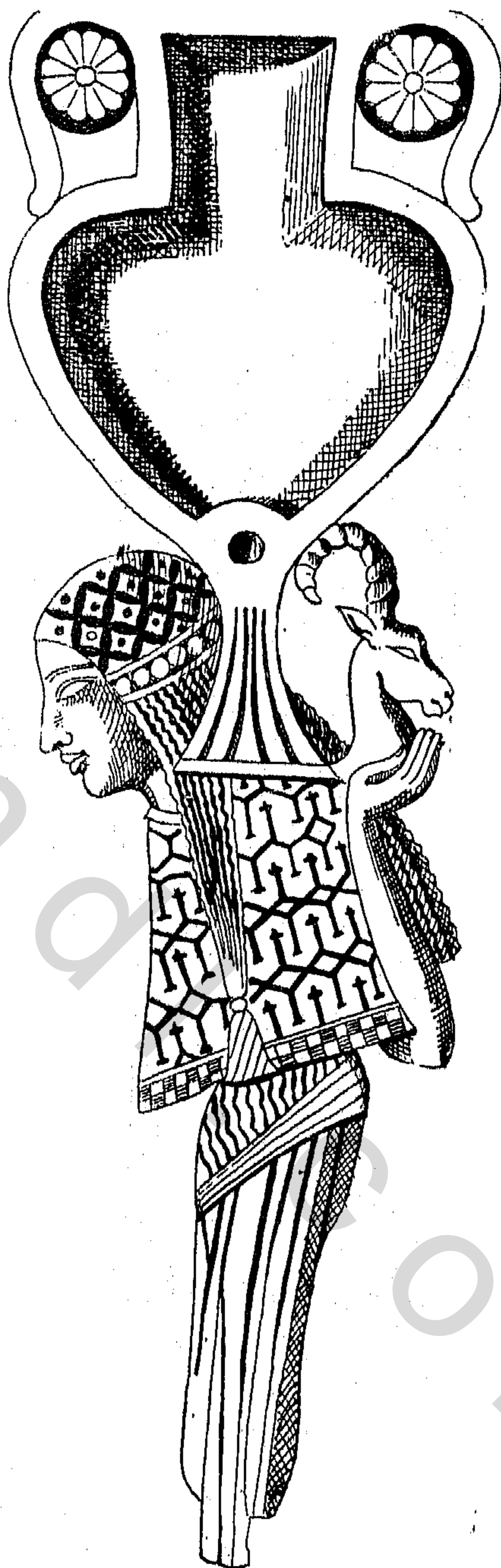
شکل ۱۶



عکس ۱۷



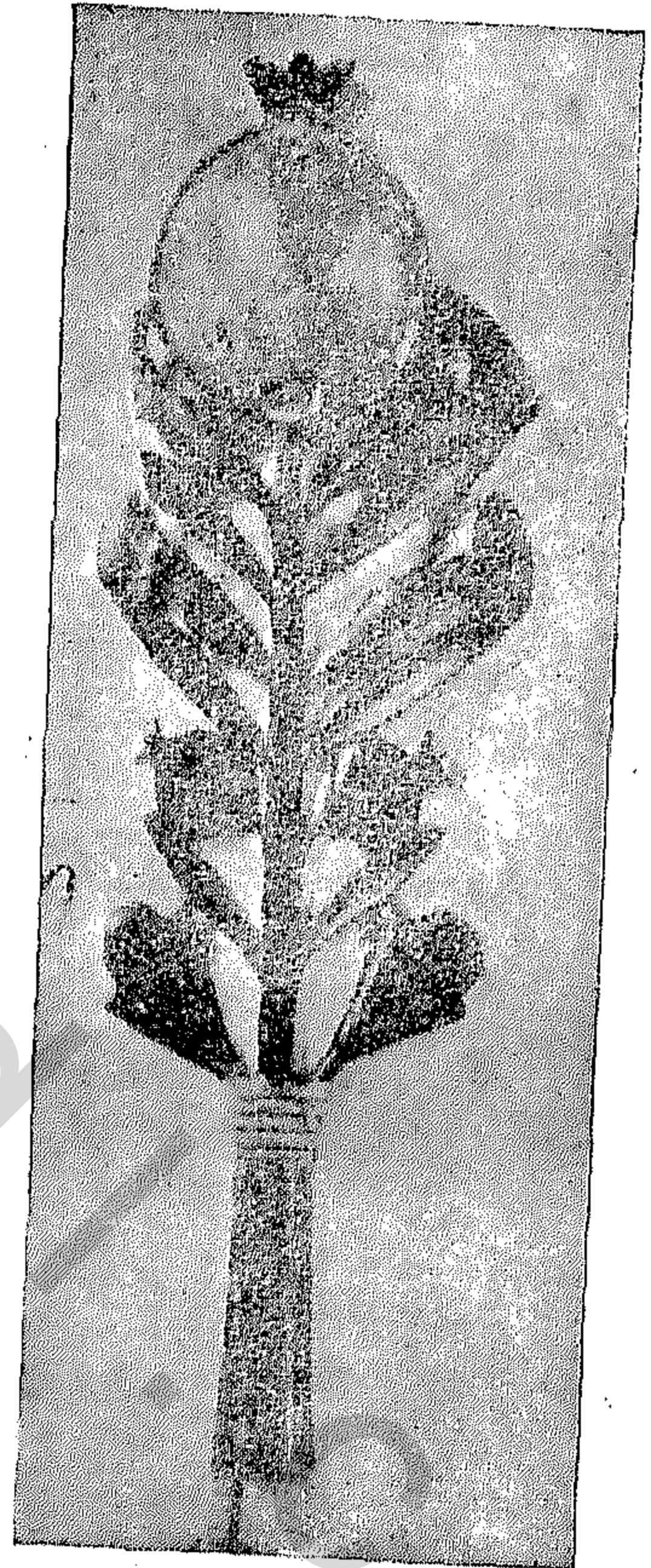
شکل ۱۹



شکل ۱۸



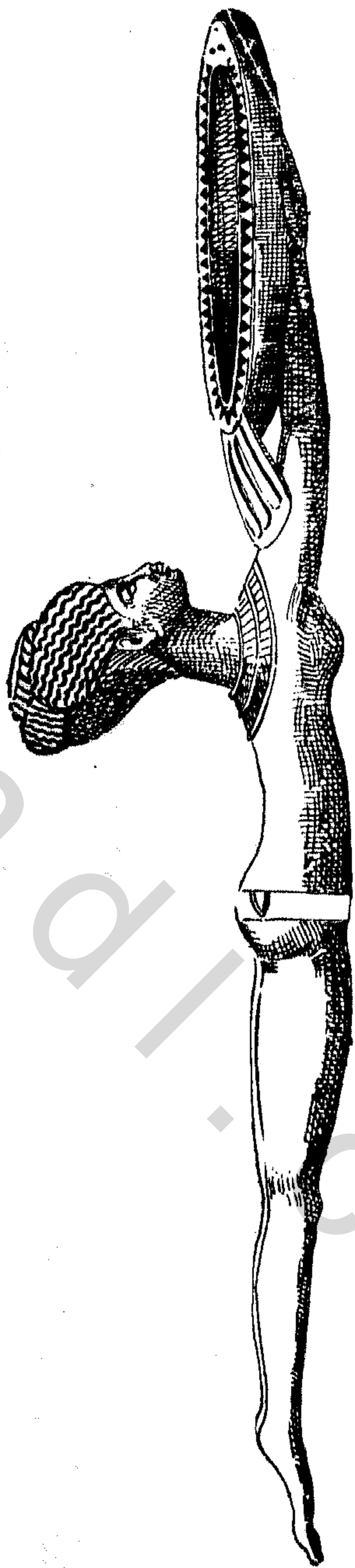
شکل ۲۱



شکل ۲۰

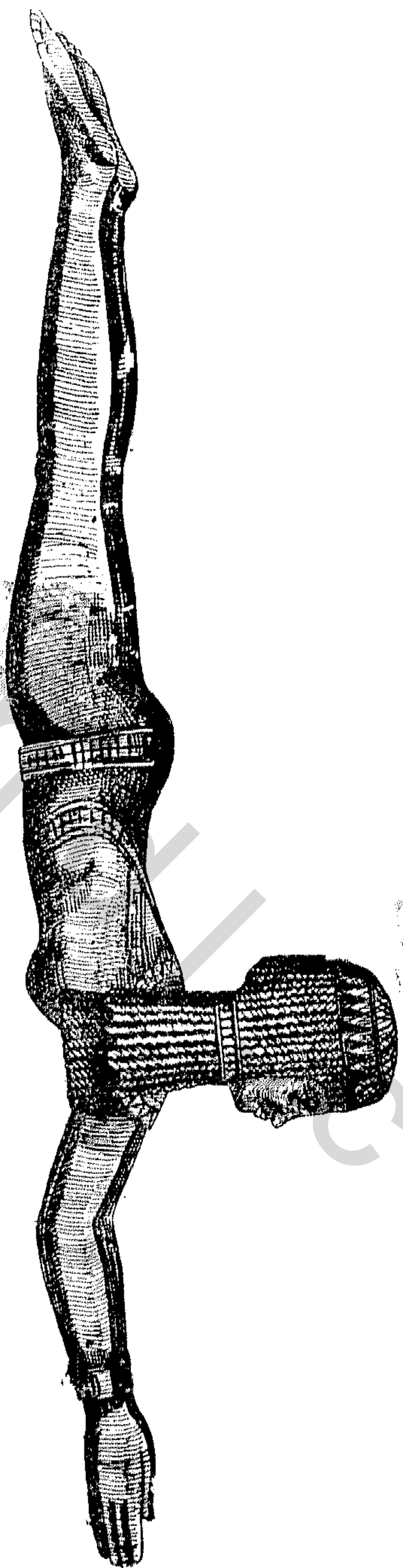


شکل ۲۲



شکل ۲۳

۲۳
نکل



« أحمد كمال العالم الأثرى الأول في مصر »

اختفت الآثار المصرية في زوايا الإهمال والنسيان ، وتعرض جانب كبير منها للتدمير والضياع ، بعد أن قضى خلال القرن الرابع الميلادي على الديانة الوثنية في مصر ، وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام . وانزوت مصر الفرعونية خمسة عشر قرناً ، وطوى الماضي المزدهر السحيق لتحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والأراجيف ، وتعتمد على الخيال .

ظل الأمر كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين بدأ العلماء في البحث والكشف عن تلك الآثار ودراستها دراسة علمية سليمة ، وظهر علم الآثار المصرية (إيجيبتولوجى) وأخذ في النمو والإزدهار ، مما أتاح إعادة كتابة التاريخ المصرى القديم ، والكشف عن أصول الحضارة المصرية . وقد تم إزدهار ونمو هذا العلم الناشئ ، الذى لا يزيد عمره على قرن ونصف من الزمان في خطوات ثلاث متعاقبة .

جاءت الخطوة الأولى مع حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، إذ أحضر معه طائفة من العلماء درسوا مصر دراسة علمية شاملة ، وكان فيما درسوه آثار البلاد ومعالمها التاريخية ، وأخرجوا نتيجة أبحاثهم ودراساتهم في كتاب علمى ضخيم هو كتاب « وصف مصر » ، الذى نشر في باريس ما بين عامى ١٨٠٩ ، ١٨١٣ . وبعد ما جاء في هذا المؤلف الكبير عن آثار مصر وما تضمنه من رسوم وخرائط وصور بداية الأعمال العلمية التى تهدف إلى دراسة مصر القديمة دراسة وافية منظمة .

ويشاء القدر أن تضيف الصدفة حسنة أخرى إلى أعمال الحملة الفرنسية إذ عثر أحد رجال الحملة سنة ١٧٩٩ على الأثر المعروف بحجر رشيد . وقد بدأت الخطوة الثانية في نهضة علم الآثار المصرية حين أقبل الكثير من العلماء على هذا الحجر ، تجتذبتهم الفرصة المتاحة لمقارنة الكتابات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية المسجلة عليه ، والمتفقة معنى ونصاً وإن اختلفت لغة وخطاً . وانتهى الأمر بنجاح العالم الفرنسى « جان فرنسوا شامليون » في

الكشف عن أصول الكتابة واللغة المصرية القديمة . ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء في قراءة وترجمة الوثائق المصرية ، وتقدمت الدراسات اللغوية ، مما أدى إلى انقشاع الغموض الذي كان يحيط بحياة المصريين القدماء وبتاريخهم وحضارتهم .

وقد مهد الكشف عن أصول اللغة المصرية إلى الخطوة الثالثة التي تجلت في اهتمام الجامعات والمؤسسات العلمية بالآثار المصرية ، وبدأت مرحلة الكشف عن الآثار وصيانتها ودراستها ، ففتحت المقابر ورمت المعابد وجمعت أوراق البردي واكتظت المتاحف بالآثار ، كما سلطت على مصر القديمة أشعة مناهج البحث العلمي الحديث . وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى ظهور عدد كبير من العلماء خلال القرن التاسع عشر والعشرين بذلوا جهوداً جبارة في التنقيب المنظم عن الآثار وفي تسجيلها ووصفها وقراءة ما بها من نصوص ، ثم دراسة وتحليل ما كشفوه وسجلوه وترجموه ، مستهدفين في ذلك إستنباط معالم التاريخ المصري القديم ومقومات الحضارة المصرية القديمة .

وكان من بين علماء الجيل الأول العالم الألماني هنري بروكش (باشا) الذي ولد سنة ١٨٢٧ وتوفي سنة ١٨٩٤ ، والذي يعد من رواد اللغة الديموطيقية إذ ألف كتاباً عن أجروميته سنة ١٨٥٥ ، كما ألف قاموساً في اللغة الهيروغليفية في سبعة أجزاء ما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٨٢ ، وألف قاموساً جغرافياً لمصر القديمة ، وقام ببحوث ممتازة في تاريخ مصر وجغرافيتها القديمة . وقد أنشأ هذا العالم الألماني الكبير أول مدرسة للدراسات الأنرية بالقاهرة سنة ١٨٦٩ ، ظل مديراً لها حتى أغلقت بعد بضع سنين .

كان بين طلبة تلك المدرسة العالم الأنري الكبير المرحوم أحمد كمال (باشا) ، وهو أول مؤرخ عربي - منذ الفتح الإسلامي لمصر - كتب في تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابة علمية سليمة ، وإمام الرعيل الأول من الأثريين المصريين . ولذا رأيت من واجبنا أن نعلم شيئاً عن مثل هذا الرجل الذي كرس حياته للعلم ، وترك وراءه ذخيرة علمية ثمينة من بحوث ودراسات ، ظل عاكفاً عليها ، حفيظاً بها ، يوليها أطياب أوقاته ، حتى صعدت روحه إلى

بارئها . إن معرفة ما قام به مثل هؤلاء الرجال ، واطلاع الجيل الحاضر عليه ، لواجب مقدس ، يمليه علينا صوت الحق والعدل ، ويحتمه الوفاء والعرفان الجميل .

ولد أحمد كمال بالقاهرة في التاسع والعشرين من شعبان سنة ١٢٦٧ هجرية (عام ١٨٤٩ الميلادى) ، والتحق بمدرسة المبتديان الابتدائية بالعباسية ، ثم بالمدرسة التجهيزية التي كان مقرها إحدى الثكنات العسكرية بالعباسية ، (وهي تقابل المدارس الثانوية اليوم) ، وتعد الطلبة للالتحاق بالمدارس العليا . ثم درس بمدرسة الألسن أو مدرسة « بروكش » للآثار واللغة القديمة .

وقد عمل قبل أن يلتحق بمصلحة الآثار في جهات متعددة ، فكان معاوناً ومترجماً في نظارة المعارف ، ومعلماً للغة الألمانية بالمدارس الأميرية بالقاهرة والإسكندرية ، ومترجماً للغة الفرنسية بمصلحة وابورات البوستان وبديوان البحرية وبعموم الجمارك وبنظارة المالية . ولكن شغفه بالآثار جعله يترك هذه الوظائف رغم ما كان يجنيه من مكاسب مادية ، ويلتحق بوظيفة كاتب بمصلحة الآثار ، ثم لم يلبث أن شغل منصب مترجم بالأنتيكخانة المصرية مع وظيفة معلم لغة قديمة بها . ولم تلبث وظيفة أمين مساعد بالمتحف المصري تمكن من الفوز بها ، وكان أول مصري يتقلد هذا المنصب . وقد ظل يعمل بمصلحة الآثار حتى اعتزل العمل سنة ١٩١٤ ، وهو في الخامسة والستين من عمره .

وقام أحمد كمال أيضاً بتدريس اللغة المصرية القديمة والحضارة المصرية في مدرسة المعلمين (العليا) وفي الجامعة المصرية الأهلية ، وكان عضواً بمجلس المعارف وبالمجمع العلمي المصري وبالمجمع اللغوي الذي أسسه جماعة من المهتمين باللغة العربية سنة ١٨٩٢ . وقد منح أثناء حياته الكثير من الرتب والنياشين : أنعم عليه برتبة الباكوية ثم الباشوية ، وتقلد نياشين كثيرة منها النيشان العثماني من الدرجة الرابعة ثم الثالثة والنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة ، كما منح لقب أمين متحف شرف بعد إحالته على المعاش .

وتوفي أحمد كمال عن أربعة وسبعين عاماً في ٥ أغسطس سنة ١٩٢٣

بمنزله بأهرام الجيزة ، وهكذا طويت حياته بعد أن ترك صفحة خالدة في سجل العلم . لقد عاش أحمد كمال في زمن لم يعرف فيها المصريون أهمية الآثار وقيمتها ، ولم يعنوا العناية اللازمة بها ، في فترة حثكرك فيها الأجانب العلم وتولوا المناصب الكبيرة في البلاد ، مما عرضه للكثير من المتاعب والمضايقات ، ومع ذلك فإنه لم يضعف أمامها ولم تعقه العقبات التي وضعت في طريقه ، بل صمد ونجح في صموده بفضل ما اكتسبه في حياته من تجارب وتدريب وخبرات ، وبفضل إيمانه بعظمة مصر القديمة ورقى حضارتها ، وبفضل إلمامه بالكثير من اللغات الحديثة كالفرنسية والإنجليزية والألمانية بجانب العربية والتركية وبعض اللغات السامية ، وبفضل إطلاعه على ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث في اللغة والتاريخ والحضارة والديانة وجغرافية البلاد القديمة ، وأخيراً بفضل ما جبل عليه من إخلاص ودقة في العمل وجد وتفان في البحث وشغف وميل للدراسة والتحصيل .

والآن بعد أن ألمنا إلاماً عاماً بتاريخ حياة « أحمد كمال » لتحدث الآن عن أياديه البيضاء في ميدان الآثار ، وسأقسم هذا المجال الواسع إلى ثلاث نواح رئيسية :

أولاً : جهوده العلمية وما تركه لنا من كتب ودراسات وأبحاث .

ثانياً : جهوده العملية في المتاحف والحفائر والرحلات الاستكشافية والتفتيشية .

ثالثاً : جهوده في نشر الثقافة الأثرية في البلاد ، وجهاده في سبيل تنجريح وتشجيع الأثرين من المصريين .

* * *

ألف أحمد كمال عدداً كبيراً من الكتب باللغة العربية ، كما ترجم وألف باللغة الفرنسية كذلك . وسنحدث الآن بإيجاز عن كتبه التي أخرجها باللغة العربية وهي حسب ترتيب صدورها :

١ — « كتاب العقد الثمين في محاسن وأخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين » وقد تناول في هذا الكتاب — الذي بلغت عدد صفحاته ٢٢٤ صفحة —

تاريخ مصر الفرعونية بايجاز مع الاهتمام بالنواحي الحضارية . تحدث في مقدمة الكتاب عن فائدة التاريخ وعن أصل المصريين وحدود مصر وأقسامها الإدارية وعن النيل واسمائه وفروعه ومصباته وعن تقسيم التاريخ الفرعوني إلى أسرات ملكية . ثم تناول في متن الكتاب أحداث وتاريخ أسرة بعد أسرة وملك بعد ملك ، مدوناً أسماء وألقاب كل فرعون ومدة حكمه . وتخلل هذا السرد التاريخي فصل عن العلوم في الدولة القديمة وآخر عن أعياد ومواسم المصريين القدماء ، كما ختم الكتاب بفصل عن الحروف الهيروغليفية وكيفية قراءتها .

٢ — « كتاب الفوائد البهية في قواعد اللغة الهيروغليفية » وهو كتاب ضخيم يتناول قواعد وأصول اللغة الهيروغليفية وطريقة الكتابة المصرية القديمة ، سار في تبويبه وتنظيمه على أسس وقواعد اللغة العربية ، لا كما يفعل العلماء الآن حين يبحثون في قواعد اللغة المصرية القديمة فيقربون بينها وبين أجروميات اللغات الأفرنجية . وقد تناول في الباب الأول من هذا الكتاب الإسم ويتحدث عن نوع الإسم (مذكر ومؤنث) وأحوال الإسم (مفرد ومثنى وجمع) وأقسام الإسم (جامد ومشتق وبسيط ومركب) وتحدث عن أداة التعريف وأسماء الأعلام وأسماء الإشارة القريبة والبعيدة والضمائر المتصلة منها والمنفصلة والصفات والنسبة والتشبيه والتفضيل ومبالغة التفضيل ثم تناول الأعداد الأصلية والتركيبية والعمليات الحسابية والمقاييس والمكييل والموازين وكذا ظرف الزمان والمكان وأسماء الإستفهام . وتحدث في الباب الثاني عن الفعل والفاعل والمفعول والمصدر وإسم الفاعل وإسم المفعول وعن تكوين الأزمنة وصيغها وعن الأفعال المساعدة والتعدية والبناء للمجهول . وتحدث في الباب الثالث عن الحروف فتكلم عن حروف الجر والاستثناء والعطف والتعليل والتشبيه والنفي والتمني والترجي والتنبية والنداء والإضافة . وافرد في نهاية الكتاب جانباً للتحدث عن خطوط اللغة المصرية من هيروغليفية وهيروغليفية مختصرة وهيراطيقية وديموطيقية وقبطية ، كما أعطى جدولاً بالإشارات الهيروغليفية بمختلف أنواعها وأقسامها ، وأرفق بهذا كله بعض التمارين للمطالعة والترجمة وكذا قاموساً صغيراً للكلمات الهيروغليفية الهامة ومعانيها والنطق القبطي لها .

٣ — « كتاب اللالى الدرية فى النباتات والأشجار القديمة المصرية » وهو عبارة عن معجم فى ٣١٦ صفحة للنباتات القديمة مرتباً حسب الحروف الأبجدية، وبه أسماء النباتات باللغة الهيروغليفية ومرادفاتها العربية والفرنسية، وأحياناً القبطية أو الديموطيقية أو العبرية أو اليونانية . ومما هو جدير بالذكر أن مركز تسجيل الآثار أدرك أهمية حصر وتحقيق النباتات والحيوانات فى مصر القديمة فكلف سنة ١٩٥٧ المرحوم الدكتور لويس كايمر بعمل قاموس واف عن نباتات مصر القديمة وحيواناتها . وقد تم عمل تخطيط شامل لذلك القاموس وأخذ الدكتور كايمر ومساعدته فى تدوين عدد من البطاقات تختص كل منها بنبات أو حيوان ولكن الدكتور كايمر — للأسف الشديد — مرض وتوفى قبل إتمام هذا العمل الكبير .

٤ — « كتاب بغية الطالبين فى علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين » ويقع فى ٥٨٤ صفحة من الحجم الكبير ، كما تضمن أكثر من ٣٠٠ رسم توضيحى . وقد تناول أحمد كمال فى هذا الكتاب علم الميقات وعلم الفلك وعلوم الرياضة عند المصريين ، ثم تحدث عن ديانة قدماء المصريين وعقائدهم فى الآلهة والروح . وأفرد باباً خاصاً لعلم الطب المصرى القديم مهد له بكلمة عن أوراق البردى الطبية ثم تحدث فى كافة الموضوعات الطبية كمعالجة الحروق ومداواة الجروح وعلاج الأسنان والكبد والأذن والأدوية المفيدة للجلد والمراهم المنزلة للالام ... ألخ . كذلك أفرد فى هذا الكتاب باباً للمعادن والأحجار المصرية القديمة وآخر للنباتات وثالث للحيوانات . وكان أحمد كمال حريصاً فى جميع هذا الأبواب على كتابة أسماء هذه المواد باللغة المصرية القديمة مع مراعاة الترتيب الأبجدي .

٥ — « كتاب ترويح النفس فى مدينة الشمس المعروفة الآن بعين شمس » وقد تحدث فى هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ٢١٠ صفحة عن تأسيس تلك المدينة ، وأسمائها القديمة، وتاريخها ، ومعابدها ، ومعبوداتها ، ونظريات الديانة ، ثم عن انحطاطها ، وحالتها الحاضرة ، وآثارها وأطلالها الحالية ، والحفائر التى أجريت بها . وتحدث فى هذا الكتاب عن علوم التقويم والفلك والتنجيم وهى علوم برع فيها كهنة هذة المدينة . وقد فند فى هذا الكتاب الرأى

الخاطئ القائل بأن العبرانيين هم الذين أسسوا هذه المدينة أثناء أسرهم بمصر، كما نصح الحكومة بعدم بيع أراضيها بعين شمس إلا إذا اشترطت أن يصبح كل ما يوجد بها من آثار حقاً خالصاً لها .

٦ — « كتاب الدرر النفيس في مدينة ممفيس » وهو كتاب صغير تحدث فيه عن تأسيس المدينة في عهد مينا ، وعن أسماءها القديمة ، وأقاليمها ، وأهمية موقعها الجغرافي ، وتاريخها . وقد أشار في سياق الحديث إلى أن الوضع الطبيعي لعاصمة البلاد هو غرب النيل حيث الوادى المتسع والخير الوفير ، وأنه لم يتخذ عاصمة لمصر في شرق الوادى إلا كل غريب عن البلاد .

٧ — « كتاب الحضارة القديمة في مصر والشرق » وهو عبارة عن مجموعة المحاضرات التي ألقاها في الجامعة المصرية الأهلية . تحدث في المقدمة عن معنى الحضارة والمذاهب المختلفة في أسباب ظهورها وكيفية إنتشارها ، وعن الجغرافيا الرياضية عند المصريين ، وعن النيل ، وأصل المصريين ومن أين وفدوا ، وعن أطوار الحضارة الأولى في العصور الحجرية والعصر العتيق . وتحدث في متن هذا الكتاب عن الآثار المصرية بأنواعها المختلفة ، وعن أسماء مصر وإشتقاقاتها ، وعن أقاليمها وعن الزراعة والتجارة والملاحة والمعارف والفنون ونظام الحكم والكتابة والديانة والسحر والطب ، كما تناول بالدراسة تاريخ الدولتين القديمة والوسطى .

٨ — « كتاب الدرر المكنوز والسر المفروز في الدلائل والخفايا والدقائق والكنوز » وقد أخرجه في جزئين الأول باللغة العربية والثاني ترجمة للجزء الأول باللغة الفرنسية . وقد تحدث في هذا الكتاب عن المساجد والكنائس والآبار والكهوف القديمة في جهات ومدن مصر المختلفة .

هذه هي كتب أحمد كمال في اللغة العربية وهي التي أرجو أن يعاد طبعا حتى يسهل الإطلاع عليها وقد قام بجانب هذا بترجمة دليلي متحفى القاهرة والإسكندرية من اللغة الفرنسية إلى العربية ، كما نشرت له مقالات في بعض المجلات العربية كالمتطف والمنار .

أما مؤلفاته الفرنسية فأهمها كتابان يدخلان في نطاق الكتاب الوج (أو الفهرست) العام لمتحف القاهرة ، ذلك المجهود العلمى الضخم الذى اشترك فيه

عشرات من العلماء ، وكان أعظم شرف لعالم الآثار وقتئذ أن يشترك في وضع هذا الكتالوج ، الذي كان ولا يزال من أهم مراجع الآثار المصرية .

تناول الكتاب الأول لوحات القبور Stèles hiéroglyphiques d'Epoque Ptolémaïque et Romaine التي ترجع إلى العصر اليوناني الروماني ، فقام بوصف وتسجيل نصوص ٢٠٨ من هذه اللوحات مع تدوين ملاحظاته عنها في الجزء الأول ، وأفرد الجزء الثاني لصورها .

ودرس في الكتاب الثاني موائد القرابين Tables d' Offrandes من الدولة الوسطى حتى العهد الروماني ، فتناول في الجزء الأول ٢٥٦ مائدة قرابين بالوصف والنسخ وتقرير حالتها ومستواها الفني ، وأفرد الجزء الثاني لصورها .

كذلك قام بكتابة ما يقرب من ستين مقالا باللغة الفرنسية ، خص منها مجلة مصاحبة الآثار أربعون مقالا ، ووزع الجزء الثاني على المجلة الفرنسية للآثار ومجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ومجلة المجمع العلمي .

وقد تناولت بعض هذه المقالات موضوعات دينية، ونحدر في مقال منها مثالا عن الأقزام المقدسة في أما كن مختلفة من العالم ، وتناول في مقال آخر « نظريات قدماء المصريين في طريقة خلق العالم » بالبحث والدراسة . وخصص بعض المقالات لوصف بعض الآثار التي اكتشفها أو عثر عليها ، فحرص على تسجيل نصوصها وتدوين ملاحظاته العلمية عنها . وتناولت مقالات أخرى الجغرافية التاريخية لمصر وطبوغرافيتها القديمة : فكذب مقالا في خمس وأربعين صفحة عن أصل كلمة مصر والأسماء الجغرافية التي تعبر عن ذلك وسكانها الأصليين ومحدث في بعض مقالاته عن مدن مصرية من حيث موقعها وأصل إسمها وتاريخها وآثارها وجباناتها والخفائر التي أجريت بها ، ووضحاً ذلك بالرسوم والخرائط، منها مقال عن مدينة سمبود القديمة ، وآخر عن الحية ، وثالث عن بوتو (تل الفراعين) ، ورابع عن هليوپوليس (عين شمس) ، وخامس عن منطقة البرلس ، وسادس عن بعض الأماكن الأثرية في الوجه البحري ... الخ .

وتناولت بعض مقالاته الخفائر التي أجراها أو أترف عليها أو تقارير عن

الرحلات التفتيشية والاستكشافية التي قام بها . أما أهم مقالاته فهي التي تناولت موضوعات لغوية : تحدث في مقال من أربعين صفحة عن أسماء ملوك مصر التي وردت في المخطوطات العربية مع التعليق عليها والبحث عن أصلها ، وتحدث في مقال آخر من خمس وثلاثين صفحة عن أسماء الملابس عند المصريين القدماء مع مقارنتها بالمرادفات العربية ، وأفرد مقالا ثالثاً لأصنام العرب محاولاً الربط بين أسمائها وبعض ألفاظ اللغة المصرية القديمة أو إيجاد صلة بينها وبين المعبودات المصرية ، وفي مقال رابع تناول بالدراسة أصل كلمة مصر .

والآن لننتحدث عن أهم وأثمن ما كتبه وهو « المعجم المصري القديم » ، الذي لا يزال مخطوطاً في ٢٢ جزء لم يطبع للآن ، والذي يجمع مفردات اللغة المصرية وما يقابلها بالعربية والفرنسية والقبطية والعبرية .

هذا المعجم يرتبط بناحية اهتم بها أحمد كمال وهي مدى صلة اللغة المصرية القديمة باللغات السامية بوجه عام واللغة العربية بوجه خاص . فقد لاحظ العلماء منذ منتصف القرن التاسع عشر في قواعد اللغة المصرية القديمة الشيء الكثير من مظاهر وخصائص اللغات السامية : من ذلك اعتماد اللغة المصرية على الحروف الساكنة وخلوها من المتحركة ، وتشابه صيغ الفعل وأزمانه مع الفعل السامي ، واشتمالها للمثنى بجانب المفرد والجمع ، ولظروف الزمان والمكان ، ولياء النسب وتاء التأنيث والضمائر المتصلة ، ثم استخدام اللغة المصرية الجمل الفعلية بجانب الإسمية ، كما لوحظ أن الكثير من ألفاظ اللغة المصرية قريب في تركيبه ونطقه من مرادفات السامية .

وهذا الميدان الواسع المتشعب لا يمكن أن يطرقه إلا عالم ملم باللغة المصرية واللغات السامية وخاصة العربية إماماً كبيراً ، وقد طرق أحمد كمال هذا الميدان ، وتناول العلاقة بين اللغة المصرية والعربية في محاضرة ألقاها بمدرسة المعلمين، الناصرية سنة ١٩١٤ جاء فيها :

«اعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتي في اللغة المصرية القديمة منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري إلى أن بلغت الستين مهدت لي سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد ... » .

ثم جاء في هذه المحاضرة :

« ولما وقفت على أصول اللغتين العربية والمصرية وعلى ما فيهما من القلب والإبدال أمكنني الخوض في مقارنتهما بالبراهين القاطعة التي تظهر لنا حقائق المعاني وتبين لنا فخوى النصوص التي وضعت . لا أفتخر بذلك ولا أبريء نفسي من الغلط في مثل هذا المجال الواسع ولكني سلكت طريقاً أضمن وأرقى من غيره وهو تطبيق اللغة المصرية القديمة على اللغة العربية مع بيان القلب والإبدال في بعض كلماتها ، اقتداء بالمصريين أنفسهم ، حتى تظهر لنا حقيقة المعنى لوجودها محفوظة في اللغتين ... » .

وعلى هذا الأساس بدأ أحمد كمال في كتابة معجمه الذي استغرقت كتابته ، ما يقرب من عشرين عاماً ، وأخرجه في ٢٢ جزءاً ، وينضمّن كل جزء أحد الحروف الهيرغليفية . وكانت طريقته في هذا المعجم أن يدون الكلمات الهيرغليفية - وقد يسجل أحياناً النصوص التي احتوتها - ثم يذكر مرادفاتها العربية والفرنسية والقبطية والعبرية . ولنضرب مثلاً بحرف الـ « س » فقد تضمن المجلد الخاص بهذا الحرف ١٠٧٢ صفحة من القطع الكبير حافلة بالمعلومات والمقارنات والملاحظات .

وقد انتهى أحمد كمال من معجمه تقريباً قبل أن يظهر قاموس إرمان «وجرايو» الصغير سنة ١٩٢١ ، كما أن المعجم المصري الكبير المعروف بقاموس برلين ، الذي أخرجه المجمع العلمي البروسي جامعاً بين الكلمات المصرية والقبطية والألمانية ، لم يظهر إلا في الفترة بين ١٩٢٦ ، ١٩٣١ أي بعد بضع سنوات من وفاة المرحوم أحمد كمال .

وتقدم أحمد كمال قبل وفاته ببضعة أشهر إلى وزارة المعارف طالباً طبع المعجم على نفقتها ، فأحيل جزء منه وهو المتضمن حرف « القاف » إلى مدير المطبوعات وكان إنجائزياً في ذلك للوقت ، فأحاله إلى كبير الأمناء بمصلحة الآثار ، العالم الإنجليزى « فرث » ليبدى رأيه فيه . وقد أشرك « فرث » معه في هذا الموضوع ، العالم الفرنسى « لاكو » مدير مصلحة الآثار وقتذاك ، وعالم الآثار الأمريكى « ريزنر » الذى كان يدير حفائر جامعة « هارفرد » بمنطقة أهرام الجيزة ، وقد حبذ الأمريكى طبع المعجم ورفض الفرنسى ذلك ، وامتنع

الإنجليزيان عن إبداء الرأي ، وهكذا قضى على هذا المعجم بأن يطوى في زوايا النسيان .

وإني لأنتهز هذه الفرصة فاطالب باعادة النظر في أمر نشر هذا المعجم بعد تحقيق بعض ما أجراه من مقارنات بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية وسائر اللغات السامية . وهذا أمر طبيعي فالمعجم في حاجة دائماً إلى التنقيح والتعديل والإضافة . وأتوجه برجاء خاص إلى السيد رئيس الجمعية الدكتور أحمد بدوي أن يعنى بهذا الموضوع ، فهو يهتم إهتماماً كبيراً بالمعجم والقواميس ، وقد سمع معظمنا عن المعجم الذي أخرجه سيادته منذ بضع سنوات بعنوان « المعجم الصغير في مفردات اللغة المصرية القديمة » ، كما كان دائماً شديد الإيمان بالصلة القوية بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية وخاصة العربية ، وقد انعكس هذا الإيمان في محاضراته في معهد الآثار المصرية في اللغة الهيرغليفية التي كانت تتضمن نماذج عديدة من الكلمات المتقاربة في التركيب والنطق في اللغتين المصرية القديمة والعربية ، كما ألقى سيادته في ٤ فبراير سنة ١٩٦١ بحثاً قيمياً في مجمع اللغة العربية بعنوان « اللغة المصرية القديمة وصلتها باللغات السامية » . إني أطمع في أن يولى هذا الموضوع شيئاً من اهتمامه .

* * *

هذا مجمل للنشاط المرحوم أحمد كمال العلي ، وموجز لما قام به في ميادين البحث والدراسة والتأليف ، وقد شمل نشاطه كافة نواحي علم الآثار من لغة وتاريخ وحضارة وفن ودين ، والآن لننظر قليلاً فيما قام به من مجهودات عملية في ميدان الآثار .

قام أحمد كمال بحولات استكشافية وبحثية في كافة المناطق الأثرية بالبلاد ، كتب عنها تقارير هامة مفيدة .

وأسهم أحمد كمال في التنقيبات والحفائر التي أجريت في عشرات من المواقع الأثرية ، وخاصة في مصر الوسطى ، أذكر منها على سبيل المثال لالحصر حفائر البرشه ، وعرب البرج ، وأطفيح ، والشيخ سعيد ، ومير ، ودير (م : — المجلة التاريخية)

الجبراوى ، ودرنكة ، وبالقرب من ديروط ، وديمة في شمال بركة قارون .
وقد كتب عدداً من التقارير الممتازة عن هذه الحفائر في مجلة مصلحة الآثار ،
من أمتعها تقاريره عن حفائرة قرب ديروط التي شغلت ما يقرب من ١٤٠ صفحة
من اعداد تلك المجلة .

كذلك قام أحمد كمال بالدور الرئيسى فى العثور على موميات الفراعنة
التي كانت مكدسة بمخبأ الدير البحرى بغرب طيبة .

وبذل أحمد كمال جهداً كبيراً فى سبيل نقل آثار المتحف المصرى ،
وفى تنظيمها وترتيبها عندما نقلت من متحف بولاق إلى متحف الجزيرة سنة ١٨٩٠م
ثم عندما نقلت من متحف الجزيرة إلى المتحف الحالى سنة ١٩٠٠ .

كذلك جاهد أحمد كمال لإنشاء المتاحف الإقليمية فى عواصم الأقاليم
ونجح فى إنشاء متاحف أسيوط والمنيا وطنطا . وانى أنقل هنا جانباً من
مقال كتبه فى هذا الشأن فى جريدة الأهرام ، موجهاً الحديث فيه إلى مديرى
المديريات :

« فيا أيها المديرون ، أهل الفصل والمعارف ، القائمون باصلاح شئون البلاد،
المعهود إليكم أمرها وتقديمها ، أسوق إليكم حديثى هذا لبذل كل ما تستطيعون
من الوسائل لإنشاء المتاحف ودور الكتب والمكتبات الفردية . هذا ولا يخفى
أن مجالس المديريات والبلديات يمكنها القيام بصرف ما تحتاج إليه هذه المتاحف
ودور الكتب والمكتبات الفردية لانه أمر متيسر لكل مدير غيور على بلاده .
فالمتاحف لا تكلفهم شيئاً ، فان المتحف المصرى العام عليه أن يورد الآثار التى
لا تقيده والتي يبيعها الآن للاجانب فى قاعة المبيعات بأبخس الأثمان وأن يعطهم
القواعد والنصبات والدوايب وأنواع الأثاث المودعة فى المخازن بلا فائدة .
وليكن لكل مدير الحق فى حفظ كل شئ يحده السباخة فى الخرائب والاطلال
من الآثار التى تبدو بدون ثمرة ولا فائدة ، وبذلك تصبح كل مديرية حافظة
لآثار سكانها القدماء تنافس أختها فى التقاط ما يؤخذ منها أثناء السباخ »

وهذا المقال يبين لنا فى نفس الوقت ما أبداه هذا العالم من سخط على خروج
آثار مصر القيمة إلى الخارج بلا رابط أو ضابط .

. ناحية ثالثة بذل فيها أحمد كمال جهداً كبيراً بجانب الناحيتين العلمية والعملية هي سعيه في نشر الثقافة الأثرية ، وتبصير المصريين بعظمة بلادهم السابقة ، ومحاولة خلق جيل ناشئ من الاثريين المصريين يعملون في حقل الآثار الذي كان قاصراً في ذلك الوقت على الأجانب .

ولقد كانت مهمته شاقة صعبة إذ كان الوعي الأثري شبه معدوم والعناية بالآثار ودراستها أموراً غير مألوفة ، وسأقدم على سبيل المثل جانباً مما كتبه المرحوم محمد المويلحي في كتابه « حديث عيسى بن هشام » مندداً بالآثار الفرعونية ، متندراً بمعرفة أحمد كمال باللغة الهيروغليفية إذ قال :

« ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ، ولا أفادوك عنها شيئاً ، ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين . ولن تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة الهيروغليف أعنى لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون ، مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغربية ، والله أعلم بمقدار علمه بها .

ولو تمنيت الاماني لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها الغالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس . ويا ليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم ، فانها تكلف الامة المصرية نفقات على البحث عنها في خفايا الارض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها إلى المتحف ، وناهيك بنفقات المتحف التي أتفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق وثانياً على متحف الجزيرة وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد بقصر النيل فانها تعد بالملايين » .

ويرجع إلى أحمد كمال فضل السعي لدى ناظر المعارف أحمد حشمت باشا لإنشاء فرقة لدراسة علم الآثار المصرية بمدرسة المعلمين الخديوية . وقد كلل سعيه بالنجاح فأنشئت أول فرقة ، التحق بها المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا والمرحوم الدكتور سليم حسن والمرحوم رياض جندى ملطى والمرحوم أحمد البدرى والسادة رمسيس شافعى و « محمود حمزة » كما التحق بالفرقة الثانية المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . وكان أهم أغراض هذه الفرقة دراسة الآثار والتاريخ المصرى القديم وذلك لإعداد موظفين .

ولما أكملت الفرقة الاولى دراستها سنة ١٩١٢ ونالت دبلوم مدرسة المعلمين الخديوية حاول أحمد كمال إلحاق بعض أفرادها بالمتحف المصرى ولكنه لم يوفق فى هذا السبيل للعراقيل التى أقامها الأُجنب فى سبيل ذلك، فاشتغل خريجوا الفرقة بالتدريس حتى أوفدت منهم وزارة الأُشغال (التى كانت تتبعها . مصلحة الآثار حينئذ) سنة ١٩٣٢ سليم حسن إلى باريس، ومحمود، وحمزه إلى لقربول ثم باريس كما أرسلت سامى جبره إلى لقربول وعباس يومي إلى باريس ليستكمل الجميع دراستهم فى الآثار .

ولما اكتشفت مقبرة توت عنخ آمون شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣ أثار اكتشافها إهتمام مصر والعالم بأجمعه ، ففكرت وزارة المعارف فى إعادة إفتتاح تلك الفرقة بمدرسة المعلمين، وتم ذلك فى يناير ١٩٢٤ ، والتحق بها بعض الطلبة الحاصلين على البكالوريا . وحين صدر المرسوم الملكى بإنشاء الجامعة المصرية ١٩٢٥ تقرر أن يكون من أقسام كلية الآداب قسم للآثار ، وألحقت تلك الفرقة بكلية الآداب فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ .

* * *

هذا هو تاريخ أحمد كمال الذى ارتقى سلم المجد على درجات العلم والكفاح ، والذى أوقف حياته على خدمة الآثار ، وظل رغم شيوخه وحق أيامه الاخيرة مثابراً على الكتابة والبحث والتأليف ، والذى كشف عن عظمة وبهاء الحضارة المصرية ونظر فى أحوالها الإقتصادية والفكرية والفنية والإجتماعية ، كما نظر فى حياتها السياسية ، والذى أدرك أن طبيعة عمل الأثرين المصريين ليس مجرد التحفظ على بقية من آثار حدت على مر القرون والدهور أو مجرد تفاخر على بقية العالم بما كانت عليه بلادنا حين شقت حضارتها على بقية البلدان ، وإنما هو عمل ودراسة وبحث وتحليل وصقل وتقويم ، ينعكس على الشعب فى شكل ثقافة وعزة تدفعه إلى الأمام .

ومع ذلك فحين توفى أحمد كمال لم تنعه مجلة مصلحة الآثار بكلمة واحدة رغم ما جرت عاياه من عادة نعى كل عالم أجنبى فى صفحات طوال . ولم تنعه من عشرات المجلات العلمية سوى مجلة المجمع العلمى ومجلة الآثار المصرية البريطانية وكان ذلك فى بضعة سطور .

وكل زائر للمتحف المصرى يرى أسماء ثمانية عشر عالماً أثرياً مسجلة على واجهة المتحف ، ليس من بينها اسم أحمد كمال كما يقابل الزائر فى حديقة المتحف المصرى تمثال وتابوت مريت . وفى داخل المتحف سبعة عشر تمثالا لكبار الأثريين الأجانب ، وليس من بينهم بالطبع تمثال « أحمد كمال » . بل لقد طالب بعض المختصين بوزارة المعارف بعمل تمثال له ، وفعلا أقامت الوزارة له تمثالا جصيا ، ولكنه أودع متحف التعليم . وإنى لأرجو تدارك ذلك حين إنشاء متحف الآثار الجديد .

* * *

أرجو أن يرسم الجيل الناشئ من الأثريين سيرة هذا الرجل ، ويحذوا حذوه ، ويعوا خطاه فى خدمة العلم والثقافة والوطن ، وأن يتموا رسالته التى جاهد فى سبيلها حتى النفس الأخير .

محمد جمال الدين مختار

obeykanda.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دراسات في النقود الإسلامية

أهمية اختراع النقود :

من المعروف أن إختراع النقود كان من أعظم الأمور التي اهتدى إليها الإنسان منذ العصور القديمة ، شأنه في ذلك شأن اختراع أحرف الكتابة ، أو استكشاف كيفية إشعال النار .

ولا شك أن تطور المجتمعات البشرية ، جعلت من العسير على الإنسان أن يلجأ دائماً إلى نظام المقايضة ، أو أن يستمر هذا النظام بما فيه من عيوب وما لبث الإنسان أن توصل إلى إيجاد وحدة معيارية تقاس بها قيم مختلف السلع والخدمات ، ثم أصبحت هذه الوحدة وسيطاً للمبادلة يقبلها الأفراد عموماً في الوفاء بالالتزامات . فالنقد إذن ، أو النقود ، هي أى شيء يتمتع بقبول عام في الوفاء بالالتزامات أياً كان نوعه وأياً كانت صفاته . وأصبحت النقود فضلاً عن ذلك أداة لاختزان القوة الشرائية وذلك كي تستخدم عند الحاجة في المستقبل ، فمادام في إمكان الفرد مبادلة أى شيء بالنقود فإنه يمكن للمرء أن يكتنز النقود أو يخزنها لينفقها كيفما شاء ووقتاً شاء . ومن هنا كانت الأهمية العظيمة للنقود ، وذلك ، وذلك لأهمية الوظائف التي تؤديها باعتبارها وحدة للحساب ، ووسيطاً للمبادلة ، وأداة لاختزان القوة الشرائية (١) .

وكانت « النقود السلعية » أقدم أنواع النقود ، واحتلت المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة مكان الصدارة بين المعادن النقدية ، وتلتها في المنزلة معادن أخرى مثل الحديد والنيحاس والزنك والقصدير .

ولعل سك النقود هو أهم حادث تاريخي أعقب اختيار المعادن النفيسة

(١) انظر الدكتور محمد زكي شافعي: مقدمة في النقود والبنوك . (القاهرة ، ١٩٦٢ ،

للتداول (١) أما النقود والنقد فقد جاء في لسان العرب : النقد والتنقاد تميز الدراهم واخراج الزيف منها . وقيل النقد مصدر نقدته دراهمه ، ونقدت له الدراهم أى أعطيتها ، فانقدها أى قبضها ، ونقدت الدراهم وأنتقدتها : إذا أخرجت منها الزيف (٢) .

نصوص تاريخية تبين أهمية النقود :

ولم يغفل الكتاب والمؤرخون المسلمون ذكر ما للنقود من أهمية بالغة فذكروا نصوصا طريفة في هذا المعنى . فيؤثر عن الجاحظ قوله :
«والدرهم هو القطب الذى تدور عليه روى الدنيا» (٣) وذكر الجاحظ (٤)
أيضاً وصية لرجل أوصى بها أبناءه فقال « أى بنى . إن إتفاق القراريط
يفتح عليك أبواب الدوانيق ، وإتفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم ،
وإتفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير ، والعشرات تفتح عليك أبواب
المئين ، والمئين تفتح عليك أبواب الألوف ، حتى يأتى ذلك على الفرع والأصل ».

ما أشبه ذلك الكلام بالحكمة الانجليزية التى تقول « احرص على الملائم
تحرص الجنيهات على نفسها » . Take Gare OF The Pennies, and The .
Pouds Will Take Gare of Themselves . على أن أهمية النقود جعلت
الناس أحياناً تتفنن فى الحرص عليها بل وفى تأليها فيذكر الجاحظ « زعموا
أن رجلاً قد بلغ فى البخل غايته وصار إماماً ، وأنه كان إذا صار فى يده
الدرهم ، خاطبه وناجاه وفداه ، واستبطنه ، وكان مما يقول : كم من
أرض قد قطعت وكم من كيس قد فارقت ، وكم من حامل رفعت ،

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ - ٣٥

(٢) الأب انستاس الكرملى : النقود العربية (القاهرة ١٩٣٩) ، ص ١٥٨ - ١٦١ .

(٣) الجاحظ : كتاب البخل . ج ٢ ص ١١٦ (شرح العوامى والجارم - طبعة
دار الكتب . أنظر كذلك ، الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس الخراج والنظام المالية للدولة الإسلامية .
(القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٥٠ .

(٤) الجاحظ : المصدر السابق ج ٢ ص ١٢ ، والدكتور محمد ضياء الدين الرئيس :
المرجع السابق ص ٣٥٠

ومن رفيع قد أخلت ، لك عندى أن لا تعرى ، ولا تضحى (١) « (٢)
ولكن من المؤكد أن النقود ليس لها قيمة في حد ذاتها ، ولكن استعمالها
وتداولها هو الذى يخلق قيمتها .

وشبه العرب الدينار بالشمس ، والدرهم بالبدر ، وفى ذلك قال الشاعر :
ويظلم وجه الأرض فى أعين الورى

بالأشمس دينار ولا بدرورهم (٣)

كذلك تسمى الرجال بالدرهم والدينار ، ومن مشاهير الرجال «الجعد بن
درهم» مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية ، والذى ينسب إليه
فيعرف باسم مروان الجعدى .

وكذلك من مشاهير الرجال عيسى بن دينار فقيه الأندلس المالكى الشهير
على عهد عبد الرحمن الداخل الأموى وابنه هشام .

فائدة علم النميات أو السكة أو النقود لدراسة التاريخ الإسلامى :

يعتبر علم النميات أو السكة أو النقود ، من أهم فروع علم التاريخ .
أما النميات فهى جمع النمي ، ومعناها فى القاموس ، صنجة الميزان ، وكذلك
الفلوس والدرهم التى فيها رصاص أو نحاس ، والراجح أن الكلمة من أصل
لاتينى هو : Nummus أو Numus ومعناه الفضة المضروبة دراهم ، أو قطعة
الفضة نقداً . ولعلها مشتقة من الأصل اليونانى Nomos أو Noummos وهو
اسم نقد صقلى قديم اشتق منه اسم النقد باليونانية وهو Nomisma (٤) .

ومن هذا الأصل اشتقت الكلمة الفرنسية La Numismatique ، أى علم

(١) يقال صحا يضحو ضحوا أى برز للشمس

(٢) الجاحظ : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٧ ، وضياء الدين الرئيس : المصدر السابق

ص ٣٥٠ .

(٣) الكرملى : النقود : هامش ص ٢٥ .

(٤) المرجع نفسه : النقود ، ص ١٦١ .

النميات ، والكلمة الإنجليزية Numismatics وتعرف النقود باسم السكة .
ومعنى السكة ، الحديدة المنقوشة التي يضرب عليها النقود ، وقد يتجاوز الناس
فيطلقونها على النقود نفسها . ويتضح المعنى الأصيل للسكة مما كتبه المقرئ في
في كتابه عن النقود القديمة الإسلامية « وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج ،
فسيرها الحجاج إلى الآفاق ، لتضرب الدراهم بها . وتقدم إلى الأمصار كلها
أن يكتب إليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم ،
وأن تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الإسلامية ، وتحمل أولاً فأولاً » (١) .

ويذكر ابن خلدون (٢) في مقدمته أن السكة هي « الختم على الدنانير
والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة
ويضرب بها على الدينار أو الدرهم ، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة
مستقيمة ، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة
بعد أخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح
يصطلح عليه ، فيكون التعامل بها عدداً ، وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل
بها وزناً . ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل
إلى أثرها ، وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل إلى القيام على
ذلك والنظر في إستيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها في
عرف الدول ، وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش
بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها
بتلك النقوش المعروفة ... » .

ولا شك أن علم النميات أو السكة ، أو دراسة النقود الإسلامية من
الدراسات التي يفيد منها التاريخ الإسلامي أكبر فائدة . وكان ضرب النقود في
ديار الإسلام من اختصاص رئيس الجماعة السياسية من خليفة أو سلطان أو

(١) المرجع السابق : س ٣٦

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، الفصل السادس والثلاثون في شارات الملك والسلطان الخاصة به

أمير أو الذين يمثلونه من الولاة والحكام (١) ولذا فاننا ندرس من الكتابات المنقوشة على السكة ، ألقاب الأمراء والحكام وتاريخ الضرب ، وبعض عبارات خاصة بالمذهب الدينى كما أنها تبين تبعية الولاة للخلافة أو استقلالهم عنها ، ومدى هذا الاستقلال . كذلك يتضح لنا من دراستنا للنقود ، المواد التى اتخذت منها النقود ، والموازين ، والمكايل ، والأثمان . كما تكشف السكة الإسلامية عن أسماء مدن كانت تضم دوراً لضرب النقود مما يشهد بما كان لهذه المدن من شأن إدارى كبير .

ولاشك أن قيمة النقود التاريخية كبيرة وذلك لأنها وثائق صحيحة وقديمة ورسمية وليس من السهل الطعن فيها (٢) .

والحق أن دراسة النقود الإسلامية تكشف للباحث كثيراً من الحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فى التاريخ الإسلامى . فدراسة النقود الإسلامية ترتبط بالزكاة والصدقات والدية وغير ذلك مما يهتم به المجتمع الإسلامى وتهتم به الدراسات الفقهية الدينية .

كذلك تكشف دراستنا للنقود الإسلامية عن الكثير من الحقائق الاقتصادية فى التاريخ الإسلامى . والمعروف أن دراسة النقود من الدراسات الهامة جداً التى تفيد الاقتصاديين وعلماء الاقتصاد ، وذلك لإرباط النقد بالمسائل الاقتصادية . ولا شك أن للنقود دوراً أساسياً فى النظام الاقتصادى ، وأول ذلك هو توسيع نطاق التبادل بحيث يساعد ذلك على تقسيم العمل والتخصص فى الإنتاج بطريقة مثلى ، فالنقود تستمد أهميتها من طبيعتها توفرها على خدمة

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى .

(مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة المجلد ١٢ - الجزء الأول - مايو ١٩٥٠) ص ١٦٧ — ١٦٩ وكذلك ، الدكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيدين (القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٩٢ — ١٩٥) . ومصادر التاريخ الإسلامى . (القاهرة ١٩٦٠ ص ٩٩ — ١٠١) .

الاقتصاد القومي في مجوعه ، فهي في حد ذاتها مثل المعادن النفيسة لا تستطيع أن تطعمنا أو تكسوننا أو توفر لنا المأوى ، وإنما يهيء استعمالها بلوغ أقصى درجات تقسيم العمل والتخصص في الإنتاج بحيث يترتب على ذلك زيادة كفاءة الاقتصاد القومي في إنتاج السلع ، والخدمات التي يتسنى بها إشباع الحاجات الأساسية وغير الأساسية للأفراد (١) .

ويجدر بنا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التي عثر عليها في روسيا وفنلندة والسويد والنرويج ، بل في سويسرا وجزيرة أيسلندة والجزائر البريطانية ، وترجع قطع العملة المذكورة إلى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول وبداية الخامس بعد الهجرة (أو بين القرن السابع وبداية الحادي عشر الميلادي) . وليس معنى ذلك أن كثيراً من التجار المسلمين أنفسهم وصلوا إلى أيسلندة أو النرويج أو الجزر البريطانية ، ولكن كتب الرحلات وتقويم البلدان عندهم تشير إلى ترددهم على جنوبي روسيا ، وإلى وصولهم أوروبا الوسطى . ويشهد ذلك كله بما كان للمسلمين من سيادة تجارية في تلك البقاع (٢) .

النقود العربية قبل ظهور الاسلام :

لم يكن للعرب نقود خاصة بهم حين ظهر الإسلام . فقد كانوا يتعاملون بالدارهم الفضية الساسانية ، وبالدينار البيزنطية الذهبية (٣) ولا شك أن تعاملهم بنقود الفرس والبيزنطيين يرجع إلى مجاورتهم لهاتين الدولتين ومستعمراتها ، وإلى رحلاتهم التجارية العديدة . ومع ذلك فقد كانت هناك نقود عربية متداولة بين العرب في الجاهلية ، في نطاق ضيق جداً ، مثل نقود اليمن الحميرية (٤) .

(١) محمد زكي شافعي : مقدمة في النقود ، ص ٣ — ٧ .

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (مطابع دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٨ .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ ، ص ١٤٨ ، والبلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٧١ — ٤٧٢ القاهرة ، ١٣١٩ هـ .

(٤) النقشبندی : الدينار الإسلامي ج ١ ، ص ١٠ ، بغداد ، ١٩٥٣ م .

كذلك اقتبس الانباط من الاغريق والرومان ضرب النقود. ووصلت إلينا نقود من عصر ملك الانباط الحارث الثالث (٨٧ - ٦٢ ق . م) وعلى أحد وجهيها صورة رأس متجها إلى اليمين ، وعلى الوجه الآخر رسم إلهة النصر (وهى إلهة عند الرومان على شكل امرأة مجنحة) واسم الملك باليونانية Basileos Aretou ولقبه philhellene أى محب لليونان .

كذلك وصلت إلينا نقود من عصر ملك الانباط عبادة الثانى (٦٢-٤٧ ق.م) وعلى أحد وجهيها رسم رأس وعلى الوجه الآخر صورة نسر ونقوش نبطية معناها الملك عبادة ، ملك الانباط « السنة الثانية » . ووصلت إلينا نقود أخرى من عصر عبادة الثانى وعلى أحد وجهيها رسم رأسين ، وعلى الوجه الآخر صورة النسر والنقوش النبطية الموجودة فى النوع السابق .

كذلك وصل إلينا نقد مالك الاول (٤٧ - ٣٠ ق . م) وعلى أحد وجهيه رأسان وعلى الآخر نسر وعليه كتابة معناها « الملك مالك ملك الانباط » (١) كذلك كان لدولة تدمر نقود بشكل نقود الإسكندرية الرومانية عليها كتابة وصور . وقد وصل إلينا نقد زنوبيا (الزباء أو زينب) ملكة تدمر (٢٦٧ م - ٢٧٢ م) وعلى أحد وجهيه صورة رأسها وكتفيها وحول الصورة اسمها بالحرف اليونانية هكذا « سبتيميا زينوبيا » وعلى الوجه الآخر صورة أخرى ، أما النقد الآخر فعليه صورة رأس ابنها وهب اللات واسمها ولقبه (٢) .

ولكن النقد المتداول بين العرب قبيل ظهور الإسلام كان الدينار الذهبى البيزنطى والدراهم الفارسية الفضية .

واشتهر عند العرب الدينار الهرقلى ، فكاتب دنانير هرقل ترد على أهل مكة فى الجاهلية (٣) وكان ذهب الدينار الهرقلى من أحسن الذهب ، وشكله بديعاً حسناً ، ومنه قول الشاعر فى صبيان النصارى .

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) نفس المؤلف والمرجع ، ص ٩٣ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٥٧١ .

كان دنانيراً على قسماتهم وإن كان قد شُف الوجوه لقاء (١)
وكما استعمل العرب الدينار البيزنطي ، نقلوا اسمه من اليونانية اللاتينية
Denarius Aureus أو Denarius (٢) .

فأطلقوا عليه اسم الدينار أو الدينر (من غير ألف) .
وورد لفظ دينار في القرآن الكريم ، ففي سورة آل عمران الآية ٧٥ :
(ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه اليك ، ومنهم من إن
تأمنه بدينار لا يؤدّه انيك إلا ما دُمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا
ليس علينا في الأميين سبيلٌ ويقولون على الله الكذب وهم
يعلمون)

وزن الدينار الدرهم والتعامل بالوزن :

وكان الدينار يزن مثقالاً من الذهب أي ٢٦٥ رء من الجرامات أو ٦٦ حبة
Grains وهذا الوزن هو وزن السوليدس SoLidus وهو النقد الذهب أو الدينار
البيزنطي الذي كان شائعاً في بزنطة قبل الإسلام (٣) .

وكانت زنة المثقال إثنان وعشرون قيراطاً إلا كسراً كما يذكر البلاذري (٤)
أو إلا حبة كما يذكر المقرئ (٥) .

وكان وزن الدينار يقدر أيضاً باثنين وسبعين حبة شعير، أو ستة آلاف
حبة خردل من الوسط (٦) ويذكر المقرئ أن المثقال منذ وضع لم يختلف في

(١) الكرملي : النقود العربية ، هامش ص ٢٥ .

(٢) النقشبندی : الدينار الإسلامي ، ص ١٠ — ١١ ، الكرملي : النقود ،
هامش ص ٢٥ .

(٣) النقشبندی : الدينار الإسلامي . ص ١٢ وما به من مراجع .

(٤) الكرملي : النقود العربية ، ص ١٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٨ — ٢٩ .

(٦) النقشبندی : الدينار الإسلامي ، ص ١٣ ، وما به من مراجع .

جاهلية ولا إسلام وأنه يزن ستة آلاف حبة من حب الخردل (١).

أما أجزاء الدينار فكان نصف دينار ، وثلاث دينار ، وأحياناً ربع ، كما كان للدينار أضعاف (٢).

وذكر البلاذري أن قريشا كانت تزن الفضة بوزن تسميه درهما ، وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً ، وكان كل عشرة من أوزان الدراهم سبعة من أوزان الدنانير أي وزن الدرهم كان $٤٢٦٥ \times \frac{٧}{٣} = ٩٨٥$ من الجرامات وكان لهم وزن الشيرة ، وهو $\frac{١}{٣}$ من الدرهم ، وكانت لهم الأوقية وزن أربعين درهما ، والنش وزن عشرين درهما . وكانت لهم النواة وهي وزن خمسة دراهم وكان الرطل (٣) يزن اثنتي عشرة أوقية (٤).

وذكر المقرئ أن المثقال من الفضة كان يسمى درهما ، وأن المثقال من الذهب كان يسمى ديناراً (٥).

ويؤكد المقرئ ما ذكره البلاذري من أوزان الفضة ، فيقول إن أهل مكة في الجاهلية كانوا يتبايعون بأوزان اصطلاحوا عليها فيما بينهم وهي الرطل الذي هو اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية هي أربعون درهما فيكون الرطل ثمانين وأربعمائة درهم ، والنص وهو نصف الأوقية حولت صاده شينا فقل نش وهو عشرون درهما ، والنواة وهي خمسة دراهم (٦).

ويذكر المقرئ أنواعاً مختلفة من الدراهم الفضية الساسانية التي شاعت عند العرب قبل الإسلام وكانت هذه الدراهم مختلفة الأوزان والأسماء ،

(١) الكرملي : النقود العربية ، ص ٢٩ — ٣٠ .

(٢) النقشبندی : الدينار الاسلامي : ص ١١ وما به من مراجع .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٧١ و ٤٧٢ .

(٤) لعل كلمة رطل مأخوذة من الأصل اللاتيني لبيرة . (انظر الكرملي : النقود ،

هامش ، ص ٢٦)

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٥ .

(٦) المرجع نفسه : ص ٢٦ — ٢٧ .

فكانت هناك الدراهم السود الوافية (١) وهي دراهم الفرس البغلية (٢) وكان الدرهم وزنه المثلثال الذهب ، وكان هناك « الدراهم الجواز » (٣) وكانت تنقص في العشرة ثلاثة فكل سبعة « بغليه » عشرة « بالجواز ، وكان لهم أيضا دراهم تسمى جوراقية (٤) وكانت هناك الدراهم الطبرية (٥) العتق (٦) .

ويذكر المقرئ أن الدرهم الطبري ثمانية دوانيق (٧) والدرهم البغلي أربعة دوانيق ، وقيل بالعكس . والدرهم الجوراقى أربعة دوانيق ونصف والدانق ثمانى حبات وخمسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر ، وقد قطع من طرفيها ما أمتد (٨) ويذكر السيوطي أن الدانق قيراطان ، والقيراط طسوجان ، والطسوج حبتان ، والحبة هي حبة الحنطة . أما حبة الحنطة فوزنها نحو من جزء واحد من عشرين جزءاً من الجرام (٩)

وكانت الأربعة فلوس تساوى طسوجا واحداً في حياة الجاحظ (١٠) .

ويتكلم المقرئ عن العملات المساعدة الصغيرة والحقيقة فيقول « وقد كانت الامم في الاسلام ، وقبله ، لهم أشياء يتعاملون بها بدل الفلوس ، كالببيض

-
- (١) يفرق ابن تغرى بردى بين الدراهم الوافية والبغلية أنظر النجوم الزاهرة — طبعة ليدن — ج ٢ ، ص ٢١٣ .
- (٢) لعل هذا الاسم نسبة الى بغل وهو اسم رجل يهودى ضرب تلك الدراهم (الكرملى : النقود ، هامش ، ص ٢٢)
- (٣) الدراهم الجواز مشتقة من قول الاقتصاديين جاوز الدراهم أى قبلها على ما فيها من الدخل (انظر الكرملى النقود : هامش ، ص ٢٢) .
- (٤) الدراهم الجوراقية منسوبة الى جورقان ، وهى قرية بنواحي همدان . (الكرملى : النقود : هامش ، ص ٢٣ .
- (٥) المقصود بذلك الدراهم المضروبة في طبرستان ، وليس في طبرية بالاردن . (الكرملى : هامش ص ٢٤) .
- (٦) الكرملى : النقود ، ص ٢٢ — ٢٣ .
- (٧) الدانق كلمة مأخوذة من الفارسية دانه ، أى حبة (الكرملى : هامش ، ص ٢٧)
- (٨) نفس المرجع ، ص ٢٧ .
- (٩) نفس المرجع ، هامش ص ٢٦ .
- (١٠) الجاحظ : كتاب البخل ، ص ١٩٧ ، ص ٥٨ — ٥٩ ، ص ٢٠١ .

والكسر من الخبز ، والورق ، ولحاء الشجر (قشره) والودع الذي يستخرج من البحر ، ويقال له الكورى ، وغير ذلك (١) .

ويشرح المقرئى أن الخبز كان يستعمل أحياناً عملة في بغداد ، وذلك برسالة الشيخ الرئيس أبى القاسم بن أبى زيد الذى زار بغداد في سنة بضع وأربعمائة فيقول : ويتعاملون به (الخبز) في الأسواق ويقيمونه مقام الدرهم في الانفاق وينتقدونه نقداً قد اصطالحوا عليه وجعلوا لذلك قانوناً يرجعون إليه ، فيردون المثلوم والمكرج (وهو الذى فسد وعلته خضرة) كما يرد الدرهم الزائف ، والدينار المبهرج ، ويشترى به أكثر الماء كولات والمشحومات ويدخلون به الحمامات ، ويأخذونه النباذ والخمار ، ولا يردونه البزاز ولا العطار « ثم يبين المقرئى سعر الرغيف قائلاً : « ومع هذه العناية والاحتياط يباع كل ستين (رغيفاً) بقيراط » (٢)

وهكذا نرى أن الدنانير قبيل الإسلام كانت ثابتة الوزن وكانت تزن مثقالاً ، أما الدراهم فكانت كما ذكرنا متنوعة كما كانت أوزانها تختلف حسب أنواعها .

ولذلك كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بالنقود بالوزن بحساب المئاقيل وذلك باعتبارها تبراً أى مادة من ذهب أو فضة ، ولا يقبلون التعامل بها بالعد ويفضون النظر عن كونها نقوداً مضرية (٣) .

ويذكر المقرئى أن الدينار كان « يسمى لوزنه ديناراً ، وإنما هو تبر ويسمى الدرهم لوزنه درهما وإنما هو تبر » (٤) .

واعل عذر العرب في التعامل بالنقود وزناً وليس عداً ، هو تنوع الدرهم

(١) الكرملى : النقود : ص ٦٨

(٢) المقرئى : إغاثة الامة بكشف الغمة ، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال — القاهرة ١٩٤٠ م ، ص ٦٧ — ٦٨ .

(٣) النقشبندى : الدينار الاسلامى ، ص ١٠ .

(٤) الكرملى : النقود ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(م ٥ — المجلة التاريخية)

وأوزانه ، أما الدنانير فمع إنها كانت ثابتة الوزن والقيمة إلا أنه قد ينقص بعضها بسبب التداول أو التزييف .

العين والورق :

وكان العرب يطلقون على نقود الذهب كلمة « العين » وعلى نقود الفضة كلمة « الورق » واستمرت هذه التسمية بعد الإسلام . وفي القاموس أورد بمعنى كثر ماله ودراهمه والتجارة موروقة للمال بمعنى مكثرة (١) .

ويذكر البلاذري (٢) أن عبد الملك بن مروان « أول من ضرب الذهب والورق بعد عام الجماعة » .

ويذكر الكندي (٣) صاحب كتاب الولاة والقضاة ، أنه في عهد ولاية الحسن بن التختاخ (١٩٣ - ١٩٤ هـ) بمصر ثار العرب عليه حينما أعطاهم العطاء ثلثاً عيناً (أى من الدنانير أو الذهب المضروب) وثلثاً بزاً (أى الثياب من الكتان والقطن) وثلثاً قمحاً .

وكذلك يذكر الماوردي (٤) في كلامه عن الأراضى التى يقرض عليها الخراج ، أنه مما يؤثر في زيادة الخراج أو نقصانه ، قرب الأراض من البلدان والأسواق ، وبعدها ، لزيادة ائمانها ونقصانها ، ويقول : وهذا إنما يعتبر فيما يكون خراجها ورقاً (والورق هنا بمعنى النقود) ولا يعتبر فيما يكون خراجها حباً (الحب بمعنى الغلال) .

(١) نفس المرجع ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٦٣ - ١٦٤ ؛ وكذلك النقشبندى ، ص ١٠

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٧٤ .

(٣) الكندي : كتاب الولاة والقضاة (بيروت ، ١٩٠٨ م ، ص ١٤٦ ، وكذلك دكتورة سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ م ، ص ٧٧ .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ هـ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، وكذلك دكتورة سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٥١

النقود الإسلامية قبل خلافة عبد الملك بن مروان :

يذكر البلاذري أنه لما ظهر الإسلام أقر الرسول عليه الصلاة والسلام النقود المتداولة بين العرب من دراهم ودنانير ، وكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل كما مر بنا . وكذلك فعل من بعده خليفته أبو بكر الصديق . وبقي الأمر على حاله أيام عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، وظل الحال كذلك أيام معاوية ثم ضرب مصعب بن الزبير ، في أيام عبد الله ابن الزبير دراهم قليلة كسرت بعد (١) .

ويذكر المقرئ في كتابه « النقود القديمة الإسلامية » أنه في سنة ثمانى عشرة من الهجرة ضرب عمر بن الخطاب الدراهم « على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها ، غير أنه زاد في بعضها « الحمد لله » وفي بعضها « محمد رسول الله » وفي بعضها « لا إله إلا الله وحده » وفي آخر مدة عمر وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل (٢) . وإن صح هذا القول يكون عمر قد غير في أواخر خلافته نسبة العملة الفضية إلى العملة الذهبية ولكن الواضح من المصادر القديمة المختلفة أن عمر بن الخطاب أبقى النسبة المعروفة قبل ذلك بين الفضة والذهب وإنما جعل كل درهم ستة دوانيق .

ويذكر المقرئ أنه لما بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان ضرب في خلافته دراهم نقشها « الله أكبر » . ولما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ضرب الدراهم السود الناقصة ، فكان كل درهم ستة دوانيق ، أو خمسة عشر قيراطا إلا حبة أو حبتين . ولما جمع لزياد بن أبيه ولاية الكوفة والبصرة في خلافة معاوية ضرب دراهم على غرار دراهم معاوية وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل (٣) .

ومما يستلفت النظر هنا أن المقرئ يسمي دراهم معاوية « السود الناقصة » وفي اعتقادنا أن المقرئ يعني بذلك أنها بعكس الدراهم المعروفة منذ العصر

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٧١ .

(٢) الكرملي : النقود ، ص ٣١ — ٣٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٢ — ٣٣ .

الجاهلي باسم « السود الوافية » وهي التي ذكر أنها البغلية ، وأن الدرهم وزنه زنة المئقال الذهب (١) أو أنه يتكون من ثمانية دوانيق (٢) .

ويذكر المقرئ أن معاوية لم يضرب الدراهم فقط وإنما ضرب دنانير « عليها تمثال متقلداً سيفاً » (٣) والمقصود بالتمثال طبعاً صورة الرجل .

ولما قام عبد الله بن الزبير بمكة ودعا لنفسه بالخلافة ، ضرب دراهم مدورة ، وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة . ويذكر المقرئ أن ما ضرب من الدراهم قبل ذلك كان « ممسوحاً غليظاً قصيراً ، فدورها عبد الله ، ونقش على أحد وجهي الدراهم : « محمد رسول الله » وعلى الآخر « أمر الله بالوفاء والعدل » وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل ، وأعطاهم الناس في العطاء حتى قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فقال « ماتبقى من سنة الفاسق أو المنافق شيئاً » فغيرها (٤) وطبيعي أن الحجاج يشير بذلك القول إلى عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب .

ويذكر ابن خلدون في مقدمته أن مصعب بن الزبير هو أول من ضرب الدنانير والدراهم في العراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله ، وكتب عليها في أحد الوجهين « بركة الله » وفي الآخر « اسم الله » (٥) .

وتكاد المصادر الإسلامية القديمة تتفق على أن المسلمين بدأوا يضربون الدراهم منذ خلافة عمر بن الخطاب ، ولكنها لا تتفق على من بدأ من الخلفاء أو الأمراء بضرب الدنانير الذهبية .

والراجح أن المسلمين بدأوا بضرب الدنانير منذ خلافة عمر بن الخطاب ولكن على نطاق ضيق جداً وظلت النقود المتداولة هي الدنانير البيزنطية والدراهم

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٤) للمرجع السابق ص ٣٣ — ٣٤ .

(٥) ابن خلدون : المقدمة : ص ٢٦١ .

الفضية الفارسية جنباً إلى جنب مع الدراهم والدنانير التي ضربها الخلفاء والأمراء المسلمون .

ويذكر كاترمير (١) وسوفير (٢) أن الكاتب القبطي بشندي أسقف قفط الذي عاصر فتح العرب لمصر ، كتب كتاباً إلى الأساقفة وهذا الكتاب محفوظ في المكتبة الاهلية في باريس وهو يقول فيه :

« إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس ، وصورة السيد المسيح ، ومسحوا الصليب وصورة المسيح وكتبوا مكانها اسم نبيهم محمد الذي يتبعون تعاليمه ، وإسم خليفة نبيهم ، ونقشوا الاسمين معاً على النقود الذهبية.. وهذا النص يبين أنه منذ فتح العرب لمصر في خلافة عمر بن الخطاب ، ضرب المسلمون الدنانير الذهبية، وإن كان لا يذكر على وجه التحديد اسم الخليفة .

وكذلك يتضح من النص السابق ومن النصوص الإسلامية القديمة أن العرب لما ضربوا نقودهم أبقوها على شكلها الرومي والفارسي بنقوشها وشكلها مع إضافة العبارات الإسلامية . ونقل جورجى زيدان في كتابه التمدن الإسلامي عن المؤرخ الألماني الدكتور « مولر » أن خالد بن الوليد ضرب باسمه في الشام نقوداً سنة ١٥ أو ١٦ هـ ، جعلها على رسم الدنانير الرومية تماماً وأبقى عليها الصليب والتاج والصولجان ، وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالأحرف اليونانية (٣) .

ولعل ضرب خالد للدنانير باسمه كان من الأسباب التي دعت الخليفة عمر بن الخطاب

(١) Quatremère: Mémoires Géographiques et Historiques sur l'Egypte t. I. p. 343. (Paris 1811).

(٢) Sauvage, : Matériaux pour servir à l'Histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes (Extrait du Journal Asiatique, Série . XIV pp. 56. 457 Paris 1879.

(٣) الكرملي : النقود : ص ٩١ ، جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١

إلى عزل خالد عن قيادة الجيوش العربية في الشام بعد موقعة اليرموك (١) .

وقد عثر على دينار إسلامي يعتبر من الدنانير النادرة . وهذا الدينار ضرب على طراز النقود النحاس التي ضربت في الاسكندرية للأمبراطور البيزنطي هرقل وإبنه قسطنطين وهيراقلوناس .

ووجدت نسخ قليلة جداً من هذا الدينار لا يتجاوز عددها أصابع اليد حفظت في متاحف ألمانيا وبريطانيا وأمريكا وتركيا ، ووصفها لافوا Lavoix ولين بول Lane Poole وإسماعيل غالب (في موزه هايون قاتا لونغى) وجورج مايلز G. C. miles ، ومن الأوصاف المختلفة يتضح أن هذا الدينار الذهب يشبه تماماً النقود النحاس التي ضربها هرقل في الإسكندرية . ووزن الدينار حوالي ٥٣٤ جراماً وقطره ٢٠ ملمتراً ، ولا يختلف الدينار عن نقود هرقل إلا في تحويل الصلبان إلى دوائر ووجود كتابة كوفية هي : (بسم الله لا إله إلا الله وحده — محمد رسول الله) وهذه الكتابة تكون « طوق النقد » أى الهامش المحيط بمركز الدينار وكذلك كتب على الدينار الإسلامي الحرفان B. I. .

واعتبر ستانلى لين بول ، وإسماعيل غالب ، الحرفان B. I. تاريخ الدينار بالسنين وفسرها بأحدى وعشرين .

وإذا أخذنا بهذا التفسير يكون هذا الدينار الذهب النادر قد ضرب في سنة ٢١ هـ فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب (٢) .

ولعله يكون قد ضرب فى مصر فى دور الضرب البيزنطية التى كانت موجودة قبل الفتح العربى ويرجح قولنا هذا ما كتبه بشندى أسقف قفط عن العرب والنقود بعد فتح مصر .

(١) الكرملى : النقود : ص ٩١ .

(٢) النقشبندى : الدينار الإسلامى : ص ١٨ — ٢٢ ، ومابه من مراجع .

النقود الإسلامية في خلافة عبد الملك بن مروان
٦٥ - ٨٦ هـ (٦٨٥ - ٧٠٥ م) :

ولى عبد الملك بن مروان خلافة المسلمين في النصف الثاني من القرن الأول الهجرى حين كان العالم الإسلامى يجتاز مرحلة خطيرة من الفتن الداخلية والحركات الخارجية الثائرة على الخلافة، فضلاً عن الإعتداءات البيزنطية على الحدود الإسلامية . وفى سنة ٧٣ هـ استطاع عبد الملك أن يلم شمل العالم الإسلامى بعد أن تخلص من المناوئين والمعارضين للخلافة الأموية، وخضع العالم الإسلامى خضوعاً تاماً لعبد الملك ، وقرىء اسمه من منابر الشرق والغرب ، واعتز العرب في أيامه ، وعظم نفوذهم .

كذلك اهتم عبد الملك بإصلاح السكة وتوحيدها في جميع أنحاء الدولة الإسلامية، والحق أن لعبد الملك الفضل الأول في إصلاح السكة وتوحيدها في أنحاء الدولة الإسلامية ، والإستغناء عن النقود الأجنبية - فارسية كانت أو رومية .

ويعطينا المؤرخون العرب أسباباً غير مقنعة لتعريب النقد زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، فيقولون إن السبب الذى حدا بعبد الملك إلى ذلك هو أن القراطيس - أى أوراق البردى - كانت تدخل إلى بلاد الروم من أرض مصر وتأتى الدنانير إلى العرب من قبل الروم، فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذى يكتب في رؤس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها عبارات من ذكر الله . فكتب إليه ملك الروم : أنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فان تركتموه ، وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه . فكبر ذلك في صدر عبد الملك، وكره أن يدع سنة حسنة سنّها ، فأرسل إلى خالد بن يزيد ابن معاوية، فاستشاره في ذلك، فأشار عليه خالد بتحريم دنانيرهم ، وكان أن ضرب عبد الملك الدنانير الإسلامية ومنع التعامل بدنانير بيزنطية (١) .

ولكن الراجح أن تعريب النقد ، وتوحيده ، والإستغناء عن النقود الأجنبية رومية كانت أو فارسية ، كان جزءاً من سياسة عبد الملك بن مروان

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : ص ٢٤٠ (ليدن ١٨٦٦ م) ، المقرئى : النقود الإسلامية (القسطنطينية ، ١٢٩٨ هـ) ص ٦ ، أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ . (طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م) .

التي استهدفت تعريب مؤسسات الدولة كما أنه كان رمزاً للسيادة الكاملة للدولة العربية (١)، وعلى كل حال فقد توصل لافوا Lavoix بمقارنة المصادر العربية والبيزنطية، وفهارس مجموعات النقود، إلى أن إصلاح عبد الملك بدأ حوالي ٧٤٠هـ - ٦٩٢ - ٦٩٣ م ولكن ضرب النقود استمر بأشكالها القديمة عدة سنوات بعد هذا التاريخ (٢).

والواقع أن التعامل بالدنانير البيزنطية في الدولة الإسلامية، كان مظهراً من مظاهر استمرار الأساليب البيزنطية في الدولة العربية هذا فضلاً عن استمرار نظم الإدارة الحكومية في الشام ومصر وغرب العالم الإسلامي كما كان الحال قبل الفتح العربي، بل إن العلامات الخاصة التي تشير إلى الثالث المقدس ظلت باقية على إنتاج البردي العربي في الدولة الإسلامية.

ونعرف أن معاوية بن أبي سفيان اضطر إلى دفع جزية سنوية للإمبراطور البيزنطي أثناء إنشغاله في صراعه ضد علي بن أبي طالب. كذلك اضطر عبد الملك بن مروان أن يدفع جزية للدولة البيزنطية أثناء إنشغاله بمحاربة عبد الله بن الزبير. لكننا نرى عبد الملك يبدأ في إكمال تعريب الدولة وفي إصلاحاته الداخلية بعد تخلصه من الفتن والمشاكل الداخلية. كذلك نراه يحاول التخلص من الضغط البيزنطي حرياً كان أو اقتصادياً فجاء سك الدنانير الذهبية بمثابة إعلان الحرب الاقتصادية ضد بيزنطة ونرى عبد الملك يرسل الدنانير الذهبية الجديدة ضمن الاتاوة المتفق عليها إلى جستنيان الثاني في القسطنطينية. كما أوقف تصدير أوراق البردي من مصر إلى بيزنطة وأزال من هذا الورق علامة الثالث المسيحية وأحل محلها كتابات عربية دينية. وكان عبد الملك يرغب من وراء هذا إقامة سلطانه على أساس اقتصادي مستقل، وأن ينزل بأعدائه البيزنطيين نوعاً من الضغط الاقتصادي. وكان رد جستنيان الثاني عندما تسلم الجزية المقررة بالدنانير العربية الجديدة أن أعلن الحرب على عبد الملك

(١) انظر الدكتور عبدالعزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٢١٣.

(٢) انظر Lavoix, Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Paris 1887, p. XX et. p. XXVIII.

في سنة ٦٩٣ م (٧٤ هـ) . لكن عبد الملك انتصر انتصاراً باهراً على جستنيان الثاني أمبراطور بيزنطة (١) وكان ذلك بالقرب من سباسبوليس (سيواس) من أعمال كيليكية .

ويروى البلاذري أن عبد الملك ضرب شيئاً من الدنانير في سنة ٧٤ هـ ، ثم ضربها سنة ٧٥ هـ ، ويذكر أيضاً في رواية أخرى أن عبد الملك أول من ضرب الذهب عام الجماعة سنة ٧٤ هـ ، ثم ضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ هـ ثم أمر بضررها في جميع النواحي سنة ٧٦ (٢) ، ويذكر المقرئ أنه لما « استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير ، فخص عن النقود ، والأوزان ، والمكايل ، وضرب الدنانير والدراهم في سنة ست وسبعين من الهجرة » (٣) ويحدثنا المقرئ في رواية من رواياته أن دنانير عبد الملك الأولى كان فيها صورة ، فيقول عن عبد الملك : « وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق ، أن اضربها قبلي فضررها ، وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها بقايا الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، فلم ينكروا منها سوى نقشها ، فان فيها صورة ، وكان سعيد بن المسيب ، رحمه الله ، يبيع بها ويشترى ، ولا يعيب من أمرها شيئاً » (٤) .

والواقع أن مجموعات الدنانير والنقود الباقية لدينا في المتاحف تؤيد كلام المقرئ إلى حد بعيد ، فان أقدم دينار إسلامي عثر عليه لعبد الملك مؤرخ سنة ٧٦ هـ . وهذا الدينار ضربه عبد الملك على الطراز البيزنطي وفيه تصوير يمثل الخليفة متقلداً سيفاً ، وفيه تأريخ الضرب بحروف كوفية . ثم ضرب عبد الملك الدنانير على النمط نفسه عام ٧٧ هـ .

وفي سنة ٧٧ هـ أحدث عبد الملك ضرب الدينار على طراز إسلامي عربي

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط : ترجمة أحمد محمد عيسى القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٢١ - ١٣٦ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٧٣ .

(٣) الكرملي : النقود ، ص ٣٤ .

(٤) المرجع السابق : ص ٣٤ .

مغاير للطراز البيزنطى فظهر الدينار لا يحمل إلا كتابات كوفية . واستمر ضرب النقود بهذا الشكل الأخير إلى نهاية العصر الأموى (١) .

ولم يضع الأمويون أسماءهم ، ولا أسماء أحد من أبنائهم وقوادهم على الدينار مطلقاً ولعل عبد الملك حين وضع صورته على الدينار الذى ضربه سنة ست وسبعين ، وسبع وسبعين كان يتشبه بالبيزنطيين ثم عدل عن ذلك إلى الشكل الإسلامى العربى . ولا يمكن معرفة نسبة الدينار الأموى إلى الخليفة إلا بتأريخه . وقد يختلط علينا الأمر فى السنة التى يتوفى خليفة ويتولى الخلافة آخر (٢) .

وكان أول من نقش كلمة « دينار » بحروف كوفية على النقود الذهب فى الإسلام هو عبد الملك بن مروان سنة ٧٦هـ ، واستمر الحال كذلك طوال العهد الأموى . أما أجزاء الدينار فكان ينقش محل كلمة « دينار » ، نوع الجزء فيقال مثلاً : هذا نصف وهذا ثلث وهذا الربع ولم يعرف عن الأمويين أنهم ضربوا أضعافاً للدينار (٣) .

وزن دينار عبد الملك ونسبته الى الدراهم :

ولما كانت النقود ترتبط بالمسائل الشرعية مثل الزكاة والصدقات والدية ، فان عبد الملك أخذ تلك المسألة فى الاعتبار حين ضرب النقود فاتخذ النسبة القديمة المعروفة ، والى أقرها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى أن كل سبعة دنانير وزن عشرة دراهم . وكذلك عدل عبد الملك بين الدراهم الكبار والصغار إذ وجد الدراهم الكبار ثمانية دوانيق والصغار أربعة دوانيق فاتخذ أمراً وسطاً ومنزله بين منزلتين فجعل وزن كل درهم ستة دوانيق ، حتى لا يظلم الناس فى دفع ما يجب عليهم دفعه من خراج أو زكاة . ولذلك قيل كان « فيما صنع عبد الملك فى الدراهم ثلاث فضائل

الاولى : أن كل سبعة مثاقيل زنة عشرة دراهم .

(١) النقشبندى : الدينار الإسلامى ، ص ١٧ - ٢٤ ، وما به من مراجع .

(٢) المرجع نفسه : ص ١٦ .

(٣) المرجع نفسه : ص ١١ وما به من مراجع .

(٤) الكرملى : النقود الإسلامية : ص ٣٦ - ٣٧ .

والثانية : أنه عدل بين صغارها وكبارها حتى اعتدلت وصار الدرهم ستة دنانيق .

والثالثة : أنه موافق لما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في فريضة الزكاة بغير وكس ولا اشتطاط . قضت بذلك السنة ، واجتمعت عليهما الأمة .

عبد الملك والصنيج الزجاج :

ولصيانة الوزن من التلاعب ، وضع عبد الملك صنيجا من الزجاج وهي أوزان معينة من الزجاج لوزن النقود الفضية والذهبية ، ولحفظ الوزن من التغيير . والزجاج في تلك الأيام أحسن مادة لهذا الغرض (١) .

تقييم النقود بالعملة المصرية الحالية :

وجدير بالذكر أنه حين ظهر الإسلام كانت الدولة العربية تأخذ بنظام المعدنين وقد أقر الرسول عليه الصلاة والسلام ، العملة الموجودة ، وارتبط بتلك العملة فرض هام وهو الزكاة ، كما تعلق بها بعض المسائل الشرعية الأخرى كالدية والصدقات .

واستقر النصاب الشرعى الذى تجب فيه الزكاة من المال ولا تجب فيما دونه ، على عشرين مثقالا من الذهب أو مائتى درهم من الفضة وجعل في كل عشرين نصف مثقال كما جعل في كل مائتين خمسة دراهم (٢) .

ويتضح من زكاة الأموال ومن النصوص الكثيرة أن سعر الديار أو المثقال كان يساوى عشرة دراهم في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وفي عهد الخلفاء الراشدين .

ولم يكن الدرهم جزءاً من الدينار وإنما كان هذا نقد على أساس الفضة وذلك نقد على أساس الذهب ولكل من النقدين وحداته ، وكان للمؤمن

(١) النقشبندى : الدينار الإسلامى ص ١٥ ، الدورى : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١١٤ — ١١٥ ؛ الكرملى : النقود ، ص ٣٠ .

الخيار في أن يخرج من هذا النقد أو ذاك ، مادامت القيمة واحدة ونجد عمر بن الخطاب يجعل أربعة دنانير على أهل الذهب ، في الجزية ، معادلة لأربعين درهماً على أهل الورق ، أى الفضة وكذلك راعى هذه النسبة في تقدير الخراج (١) .

ويروى أبو يوسف أن عمر بن الخطاب وضع الديات على أهل الذهب ألف دينار ، وعلى أهل الورق عشرة آلاف درهم (٢) كذلك روى أبو يوسف عن ابن مسعود أنه قال : « لا يقطع » — أى في حد السرقة — « إلا في دينار أو عشرة دراهم (٣) » .

وقد نص على تلك النسبة بين الدينار والدرهم بعض الفقهاء مثل أبي عبيد فهو يقول « لأن أصل الدنانير أن يعدل الدينار بعشرة دراهم » (٤) .

وقد كان الدينار الشرعى أو المثقال يزن في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين وفي سكة عبد الملك بن مروان ٢٦٥ ر٤ من الجرامات .

ولكن نلاحظ أنه بمرور الزمن كان يتغير السعر أى ما يساويه الدينار من دراهم فكان سعر الدينار يزيد أحياناً زيادة واضحة فقد يبلغ الدينار ١٥ درهماً أو ١٦ درهماً أو ١٤ درهماً (٥) .

ولم يغفل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون هذه الحقيقة فيذكر في مقدمته بعد كلامه عن النقود زمن الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء ونقود عبد الملك بن مروان « . . ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعى في الدينار والدرهم ، واختلفت في كل الأقطار

(١) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ١٣١ ، أبو يوسف : الخراج ، القاهرة، ١٩٥٢ ص ١٢٨ ١٣٣ ، ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية، ص ٣٧٠ .

(٢) أبو يوسف . الخراج، ص ١٥٥

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨ ، ضياء الدين الرئيس : الخراج ، ص ٣٧٠ .

(٤) أبو عبيدة : الأموال القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، ص ٥١٩ ،

(٥) الدورى : تاريخ العراق : ص ٢٢١ — ٢٢٢ وما به من مراجع .

والآفاق ، ورجع الناس إلى تصور مقاديرها الشرعية ذهنياً كما كان في الصدر الأول ، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية» . (١) .

ولعل التعامل بالنقود كان في العادة بالعد اللهم إلا إذا كان هناك ضرورة للوزن كان تكون النقود ممسوحة أو مكسرة . وكان من ضرورات الوزن أيضاً تقدير الزكاة على أساس الدينار الشرعي الذي يزن مثقالاً والدرهم الشرعي ، وذلك بوزن الدراهم والدنانير التي تختلف أوزانها عن الأوزان الشرعية (٢) .

واجتهد بعض الأساتذة والباحثين المحدثين في تقويم قيمتي الدينار الشرعي والدرهم الشرعي الإسلامي بالعملة المصرية الحالية . فقد ر مؤلفو كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» الذي اعتمدته وزارة الأوقاف ، الدينار بـ ٥٧٨ قرشاً كما قدروا الدرهم بـ ٢٦ قرشاً (٣) .

ونلاحظ في هذا التقدير عدم مراعاة النسبة الشرعية بين الدينار والدرهم . وإلا لكان الدرهم في رأيهم $\frac{٥٨٨}{١٠} = ٥٨.٨$ قرشاً .

كذلك ذكر الاستاذ الخضري أن وزن الدينار يساوي نصف الجنيه الإنجليزى ، أما وزن الدرهم فيساوي وزن القطعة ذات القرشين تقريباً لأن وزنها ٣٥٠ جرامات (٤) .

كذلك نقل الدكتور حسن إبراهيم حسن عن « ستانلى لين بول » أنه

(١) ابن خلدون : المقدمة ، الفصل السادس والثلاثون في شارات الملك والسلطان الخاصة به ، ص ٢٦٣ — ٢٦٤

(٢) الدورى : المرجع السابق : ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة — وزارة الأوقاف — طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٩ ، قسم العبادات ، ص ٤٨١ ، وانظر تعليق ضياء الدين الرئيس في كتاب الخراج ، ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٤) الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية — المجلد الأول ج ٢ ص ٢٢١ الطبعة السادسة ، المكتبة التجارية ، ١٣٧٠ هـ ، وراجع تعليق ضياء الدين الرئيس في كتاب : الخراج ، ص ٣٧١ .

قدر الدينار بمقدار ١٥١٥ قرشاً (١) ، وقدر جورجى زيدان الدينار بنحو نصف جيه ، والدرهم بنحو فرنك (٢) أو أربعة قروش .

ويقدر الأمير عمر طوسون الدينار بنحو ستين قرشاً (٣) .

على أننا إذا تأملنا الاجتهاد السابق من بعض الباحثين فى تقويم الدينار والدرهم بالعملة المصرية نرى أنهم أغفلوا سعر صرف الدينار بالدرهم الذى اتفق عليه زمن الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين، فكان الدينار يصرف بعشر دراهم .

كذلك اجتهد الباحثون فى تقويم الدينار والدرهم بالعملة المصرية على أساس الجنيه المصرى الذهبى أو الجنيه الإنجليزى الذهبى . والمعروف أن الجنيه المصرى الذهبى يزن ثمانية جرامات ونصف من الذهب (٤) أى ضعف المثلثال الذهب أو الدينار تقريباً ولكن يجدر ملاحظة الفرق الآن بين الجنيه المصرى وثنائه ١٠٠ قرش ، وبين الجنيه المصرى الذهبى الذى أصبح سلعة وليس نقداً متداولاً ويقدر ثمنه بنحو ستة جنيهات مصرية .

وإذا حسبنا ثمن الدينار وثن الجنيه المصرى الذهبى بالعملة المصرية الآن يكون ثمن الدينار حوالى ٣٠٠ قرش أما الدرهم فيكون ثمنه $\frac{٣٠٠}{١٠}$ أى ٣٠ قرشاً . هذا من ناحية ثمن الدينار والدرهم إذا اعتبرناها بالوزن أو سلعة ذهبية أو فضية .

أما من ناحية قيمة الدينار والدرهم فلا شك أنهما اختلفا اختلافاً كبيراً منذ فجر الإسلام إلى الآن، وذلك لاختلاف قوتيهما الشرائية من وقت لآخر . وحسبنا لنعرف مدى القوة الشرائية للدينار أن عمر بن الخطاب وضع الديات على أهل الذهب ألف دينار ، وعلى أهل الورق عشرة آلاف درهم ، وعلى

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية، ص ٣٠٠، الطبعة الأولى، ١٩٣٩ م .

(٢) جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٢، ص ٣٣ و ٦٧ و ٦٨، طبعة الهلال، ١٩٢٦ .

(٣) الأمير عمر طوسون : مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، (الإسكندرية ١٩٣١) .

(٤) الدكتور محمد زكى شافعى ، مقدمة فى القانون، ص ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٥ .

« أهل الإبل مائة من الإبل ، وعلى أهل البقر مائتي بقرة ، وعلى أهل الشاة ألفي شاة » (١) .

أى أن الإبل الواحد كان سعره ١٠ دنانير $10 \times 300 =$ أى ثلاثين جنيهاً مصرياً أو ١٠٠ درهم وكان سعر البقرة ٥ دنانير (5×300) أى حوالى خمسة عشر جنيهاً مصرياً و ٥٠ درهماً ، والشاة نصف دينار $(\frac{1}{2} \times 300)$ أى حوالى ١٥٠ قرشاً أو ٥ دراهم .

كذلك نعرف من أوراق البردى العربية أن إيجار فدان القمح فى مصر فى فجر الإسلام كان يتراوح بين دينار ودينارين ، وأحياناً يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار ، فيكون الإيجار $\frac{1}{2}$ دينار أو $\frac{3}{4}$ دينار (٢) .

نقود الأمويين والعباسيين منذ خلافة عبد الملك :

أمر عبد الملك بن مروان الحجاج بنشر الدراهم الجديدة فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية وبمنع تداول الدراهم السابقة ، وباقتناع الناس بحلب الدراهم القديمة إلى دار الضرب لطبعها من جديد (٣) أما عبد الملك نفسه فقد ضرب الدنانير الدمشقية كما يذكر البلاذرى (٤)

وسار الخلفاء الأمويون بعد عبد الملك على سياسته فى ضرب النقود . فكان الخلفاء يتشددون فى عيار الدينار الذهب وكان الذهب خالصاً بقدر ما كانت تساعدهم طرق التصفية . وقيس عيار دينار الرشيد وآخر للمطيع فكان عيارها

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ١٥٥ .

(٢) Grohmann, : Arabic Papyri in the Egyptian Library. vol. II Cairo 1936 pp. 32—34.

والدكتور سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ٢٧٠ القاهرة ١٩٤٧ .

(٣) الكرملى : النقود ص ٣٦ ، الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٤) الكرملى ، النقود ، ص ١٠ .

٩٧٩٪ أى ٢٣٥ من القراريط (حبة) باعتبار أن الذهب الخالص ٢٤ قيراطا (حبة). (١)

كذلك تشدد الخلفاء بعد عبد الملك فى صحة الوزن وتخليص الفضة، فضرب عمر بن هبيرة والى العراق للخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ = ٧٢٠ - ٧٢٤ م) دراهم أجود من دراهم الحجاج على عيار ستة دوانيق. ولما ولى خالد بن عبد الله القسرى العراق للخليفة هشام بن عبد الملك اشتد فى النقود أكثر من شدة ابن هبيرة «حتى أحكم أمرها ابلغ من أحكامه». وذهب خلفه فى ولاية العراق، يوسف بن عمر، ابعده منه فى تخليصها والدقة فى العيار. فكانت الدراهم «الهبيرية» «والخالدية»، «واليوسفية» أجود نقود بنى أمية. ولم يكن الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى يقبل فى الخراج من نقود بنى أمية غيرها، ولهذا سميت الدراهم الأولى «المكروهة» (٢)

وفى العصر العباسى كان الخلفاء يضربون الدرهم والدنانير وكانوا ينقصون أحيانا وزن الدرهم فضرب أبو العباس السفاح الدراهم بالأنبار ونقصها حبة واحدة، ثم نقصها حبتين، وفى خلافة المنصور أصبح النقص ثلاث حبات. ولم يصبح للدراهم وزن ثابت مما جعل الناس يتعاملون بها بالوزن ولما قتل كجعفر البرمكى فوض هارون الرشيد امر دار الضرب إلى السندى بن شاهك فاعتنى بتخليص الذهب والفضة فى النقد وضرب الدرهم على العيار الصحيح. لكن الامر لم يثبت على حال بعد هذا (٣)

أما وزن الدينار العباسى فكان مثل وزن الدينار الأموى وهو ٢٦٥ ر٤ من الجرامات أى ٦٦ حبة، وهذا هو الوزن الشرعى للدينار أو المثقال (٤) واستمرت

(١) النقشبندى، الدينار الإسلامى، ص ١٣ - ١٤، و ٣٥ - ٣٦.

(٢) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٤٧٤، الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢١٤.

(٣) الكرملى: النقود، ص ٤٦ - ٥١، الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، ص

٢١٤ - ٢١٥، وما به من مراجع

(٤) النقشبندى: الدينار الإسلامى، ص ٣٤.

كلمة دينار تنقش على جميع النقود الذهب للدولة العباسية والدول التي نشأت في عهدها أو انفصلت عنها (١)

وضرب آخر دينار في بغداد بعد سقوط الدولة العباسية حول سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) ثم اختفت هذه الكلمة من النقود الذهب واستمرت في مصر إلى حكم سلطان المماليك البحرية المظفر سيف الدين حاجي سنة (٧٤٧ هـ - ٧٤٨ هـ) (١٣٤٦ - ١٣٤٧ م) ولم تنقش على النقود الذهب المصرية كلمة « دينار » بعد ذلك (٢)

ولم يذكر اسم أحد على الدينار العباسي حتى سنة ١٧٠ هـ وهي السنة المشتركة بين الهادي وأخيه هرون الرشيد . وفي هذه السنة نقش على قسم من الدنانير لأول مرة أسماء ثلاثة أمراء وهم «علي» «وجعفر» «والعلاء» أما «علي» فهو علي بن سليمان بن علي العباسي الذي ولي مصر سنة ١٦٩ هـ وعزل سنة ١٧١ هـ في عهد الرشيد ، وأما جعفر الذي ذكر سنة ١٧٠ هـ فالغالب أنه جعفر بن الهادي الذي رشحه والده لولاية العهد بدلا من هارون الرشيد . أما العلاء فقد يكون العلاء بن سعيد أو العلاء مولى هارون الرشيد أو غيرهما (٣) .

وكان هارون الرشيد أول خليفة ذكر اسمه على الدينار (٤) وضرب العباسيون من الدنانير ما كان أكثر من المثقال إلى أربعة مثاقيل وذلك للتعامل بها . وضربوا عدا هذا أنواعا من الدنانير كبيرة الحجم والوزن وذلك لکنزها أو للصلة والإهداء في مناسبات معينة كالأعياد والأفراح ، أو للتصدق بها وأطلقوا عليها «دنانير الصلة» وذلك لكي يصلوا بها احباءهم وندماءهم والفقراء وقد وجد في دار جعفر البرمكي بعد مقتله بركة فيها أربعة آلاف من الدنانير الذهب يزن الواحد منها مائة مثقال ومثقال ، وكتب على الوجه الأول منها :

(١) المرجع السابق ، ص ١١ .

(٢) النقشبندی : الدينار الإسلامي ، ص ١١ ، ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

واصفى من ضرب دار الملوك يلو ح على وجهه جعفر
وكتب على الوجه الثانى

يزيد على مائة واحدا إذا ناله معسر ييسر (١)

وحين عهد الأمين إلى ابنه موسى المظفر - الناطق بالحق - بولاية العهد ،
بدلا من أخيه المأمون ضرب دنانير كبيرة الحجم والوزن ، زنة الواحد عشرة
مناقل للصلة وكتب عليها :

كل عز ومفخر
فلموسى المظفر
ملك خص ذكره
فى الكتاب المسطر (٢)

وضرب الأمير بحكم ، فى خلافة الراضى بالله ، دنانير يزن الواحد منها عدة
مناقل فى مناسبة أحد الأعياد ، وعلى الوجه الأول صورة بحكم وهو شاكى
السلاح وكتب تحتها :

انما العز فاعلم - للأمير المعظم - سيد الناس بحكم

وعلى الوجه الثانى الصورة عينها جلس مجلساً كالمفكر المطرق .

وضرب ابن أبى ذهل الضبي الهروى دنانير يزن الواحد منها مثقالا ونصف
المثقال ، ليتصدق بها . وكان يقول : إني أفرح لفرح الفقير ، فإذا تصدقت على فقير
أتركه يفرح ثلاث مرات ، وذلك عندما أنا وله القرطاس يظنه درهما فيفرح به ، وعندما
يفتح القرطاس ويرى صفرة الدينار ازداد فرحا ، وإذا أراد شراء حاجة ووزن
الدينار ، فوجده دينارا ونصف ، فرح للمرة الثالثة (٣)

ونحن نعرف من المصادر القديمة ، ومن مجموعات النقود المحفوظة فى المتاحف ،
والنقود المصورة فى الكتالوجات ، فضلا عن كتب النقود ، أن النقود الإسلامية
كانت مستديرة أو شبه مستديرة . ولكن ابن خلدون يذكر استثناء لهذا ،
فيقول أن المهدي مؤسس دولة الموحدين فى شمال إفريقيا فى القرن السادس
الهجرى اتخذ سكة الدرهم مربع الشكل ، كما كان يرسم فى الدينار شكل
مربع فى وسطه .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤ - ٣٥ ، وما به من مراجع .

(٢) الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى : ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، وما به من مراجع .

(٣) النقشبندى ، الدينار الإسلامى ، ص ٣٥ ، وما به من مراجع .

وكانت سكة الموحدين على هذا الشكل طوال عهدهم بل انه قيل ان المهدي
زعيم الموحدين كان ينعت قبل ظهوره «بصاحب الدرهم المربع» (١)

نقود مصر الاسلامية :

تدل قطع «الاستراكا» (٢) على أن المعاملات بين الأهالي في مصر قبل
الفتح العربي كان أساسها العملة الذهبية المعروفة بالدينار Denarius أو سوليدس
Solidus أو تريميزيون Tremision (٣) أي ان مصر كانت تتبع قاعدة
الذهب . ويذهب علماء الاقتصاد إلى القول بأن نظام المعدن الفردي الذهبي
لا يمنع استعمال نقود أخرى غير الذهب ، وبخاصة النقود الفضية . ولكن الذهب
يكون وحده هو العملة القانونية التي لها قوة إبراء غير محدودة ، أي تكون
أداة للوفاء بالالتزامات ، والقانون لا يعترف لغيرها بقوة الإبراء من الديون (٥)
وتعتبر النقود الأخرى عملة مساعدة (٦) . أما قاعدة الذهب . فهي تنظيم
نقدي تتكافأ في ظله قيمة وحدة النقد مع قيمة وزن معين من الذهب (٧)
ولا نجد في الاستراكا سوى إشارة أو اثنتين إلى النقود الفضية في مصر ،
وتعرف بالدرهم (٨) ، ويظهر أن النقود الصغيرة التي كانت تستعمل في مصر إذذاك

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل السادس والثلاثون ، ص ٢٦٢

(٢) الأوستراكا قطع من الفخار والأحجار ، استخدمتها بعض الشعوب القديمة ،
في الكتابة واستنبط منها علماء الآثار كثيرا من الحقائق التاريخية .

(٣) Crum ، . : Coptic Ostraca. London 1902 pp. 23
45, 78, 79, 80.

(٤) إذا كان أساس النظام النقدي في الدولة هو الذهب فإنه يقال انها تتبع قاعدة الذهب
عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ، ج ١ ، ص ٤٧٩

(٥) عبد الحكيم الرفاعي ، الاقتصاد السياسي ، ص ٤٤٨ ، ومحمد زكي شافعي
مقدمة في النقود والبنوك ، ص ٤٠ .

(٦) عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصادي السياسي ص ٤٨٠ .

(٧) محمد زكي شافعي ، مقدمة في النقود ، ص ١٠٧ — ١٠٩ .

(٨) Crum : op. cit. p. 23 ، سيدة كاشف ، مصر في فجر الإسلام ، ص ٦٨ .

ذاك - كالفروش و كسورها اليوم - كانت العملة البرونزية (١) ويقول المقرئى (٢): «أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المتسوب اليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ، ذهباً في سائر دولها، جاهلية وإسلاماً يشهد لذلك بالصحة ان خراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب»

وتؤيد أوراق البردى، وقطع الاوستراكا، ما ذكره المقرئى، إذ تشهد كلها بأن الجزية والضرائب، وإيجار الأرض، وأجور العمال، وسائر المعاملات كانت تدفع بالدنانير وأقسامها . وتعرف الدنانير في أوراق البردى اليونانية باسم Solidi (٣) .

وظلت الدنانير الذهبية هي النقود المتداولة في مصر بعد الفتح العربى كما كان الحال قبل الفتح . وقد تكون النقود الإسلامية قد دخلت فيها كما يتضح من كتاب الكاتب القبطى بشندى أسقف قفط الذى عاصر فتح العرب .

وزبما ظلت النقود الأجنبية في مصر يتعامل بها جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية حتى اصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتحريمه الدنانير الأجنبية، أى أن السكة في مصر خضعت للسكة الإسلامية . ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة في الخلافة إلا بعد أن استقلت مصر عن الخلافة كما حدث في عهد احمد بن طولون . ولدينا دنانير من سكة أحمد بن طولون نشرها ستانلى لين بول، (٤)

(١) Crum op. cit. pp. 23, 42, 45. سيدة كاشف : نفسه ص ٦٨ .

(٢) الكرملى : النقود ، : ص ٥٢ .

Crum : Coptic Ostraca, pp. 36 - 37,

(٣) Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum (Der Islam. Band II) pp. 271, 274 etc., Becker: Neue Arabische Papyri, pp. 254 - 267 etc., Grohmann : Arabic Papyri vol. II pp. 44, 45, 48, vol. III pp. 17, 31, 48, 141.

(٤) Lane - Poole : - Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Egyptian Library Cairo. pp. 135 - 136.

وفي ذلك يقول المقرئى : « ومع هذا فان مصر لم تنزل منذ فتحت دار اماره ، وسكتها إنما هي سكة بنى امية ثم بنى العباسى ، إلا أن الأمير أبا العباسى أحمد بن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية » (١)

والواقع أن دار لضرب النقود تأسست فى مصر زمن أحمد بن طولون (٢)، حيث ضربت الدنانير التى عرفت بالأحمدية نسبة إليه، وامتازت بعيارها الجيد . وقصة أحمد بن طولون وتجويد عيار ديناره مشهورة ، وكان عيار ديناره أجود عيار أمن عيار السندى بن هاشك والخليفة المعتصم (٣). ولا عجب فان السكة كانت تعتبر فى العالم الإسلامى من شارات الملك (٤)

أما النقود التى نعرفها من العصر الطولونى، فضربت فى مدن مختلفة، مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وأنطاكية. كذلك وصلت اليها نقود من العصر الاخشيدى ضربت فى مصر والرملة ودمشق، ويمكن ان نستنبط منها الحقائق التاريخية الآتية :

أولاً : أن الدنانير التى ضربت بمصر فى عهد الخليفة الراضى وولاية محمد بن طنج الإخشيد، من سنة ٣٢٣ هـ إلى سنة ٣٢٩ هـ، كان يذكر فيها اسم الخليفة وحده، مما يشهد بأن الإخشيد كان لا يزال يخضع كل الخضوع للخلافة العباسية .

ثانياً : أن الدنانير التى ضربت بمصر فى عهد الخليفة المتقى ، وولاية محمد بن طنج سنة ٣٢٩ هـ كان فيها اسم الخليفة وحده، مما يشهد أيضاً بأن الأخشيد

(١) الكرملى : النقود ، ص ٥٤ .

(٢) المقرئى . كتاب النقود القديمة الإسلامية (نشره الكرملى) ص ٥٤ ، وكذلك البلوى، سيرة احمد بن طولون، ص ١٩٦ تحقيق محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨ هـ . انظر كذلك

Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 210—211 Paris 1933

(٣) الكرملى : النقود ، ص ٥٤ — ٥٧ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به

كان في بداية حكم المتقي لا يزال يدين للخلافة بالطاعة التامة والتبعية الظاهرة .

ثالثاً : ان سنة ٣٢٩ هـ كانت فاصلاً بين عهدين ، فقد وصل إلينا دينار منها لم ينقش عليه اسم الخليفة، وإنما نقش اسم محمد بن طفيج وحده ومعه لقب الأمير الأخشيد . ولسنا ندرى هل حذف اسم الخليفة مقصوداً ، أو أن ثمة خطأ في كتابة هذا الدينار . وإذا كان الحذف مقصوداً فلسنا نستطيع تفسيره إلا بأن الأخشيد فكر في الاستقلال التام عن الخلافة بعد صلاحه مع ابن رائق ثم تبين صعوبة تحقيق ذلك فرجع إلى الوقوف عند الاستقلال الذاتي .

رابعاً : أن السكة التي ضربت للأخشيد بعد سنة ٣٢٩ هـ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المتقي .

خامساً : ان السكة التي ضربت في عهد أونوجور بن الأخشيد من سنة ٣٣٦ هـ إلى سنة ٣٤٧ هـ كان ينقش عليها اسم الخليفة المطيع واسم «ابو القاسم بن الأخشيد» .

سادساً : أن السكة التي ضربت باسم علي بن الأخشيد من سنة ٣٥٠ هـ إلى سنة ٣٥٥ هـ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المطيع .

سابعاً : أن كافورا لم ينقش اسمه على السكة . وهذا يؤيد رأينا في أن كافورا حين حكم مصر ، بعد وفاة علي بن الأخشيد ، كان يشعر بما تكاد نصل إليه من النصوص ، وهو أنه وسط بين الأمير والوصي على العرش .

ثامناً : أن السكة الإخشيدية بعد وفاة كافور كانت تضرب باسم الخليفة المطيع ، مع اسمي الأمير أحمد بن علي بن الإخشيد ، وعمه الوصي عليه وهو الحسين بن عبيد الله بن طفيج (١) .

وهكذا نرى أن دراسة السكة تكشف عن أشياء كثيرة توضح الأحداث التي نعرفها من المراجع التاريخية .

(١) راجع في موضوع السكة في عصر الأخشيديين دكتورة سيدة كاشف : مصر في عصر الإخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٩١ — ١٩٥ ، وما به من مراجع مع

ويذكر المؤرخون أن محمد بن طفيج الأخشيد أمر بضرب الدينار الأخشيدى على عيار كامل ، وصاححت النقود في عهده بعد فسادها (١) .

ولما دخل جوهر الصقلي مصر على رأس جند الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، ضرب الدينار المعزى في سنة ٣٥٨ هـ ، وكتب اسم المعز على الدينار ، وكذلك ظهر على الدينار بعض العبارات التى تدل على مذهب الخلافة الفاطمية الشيعى ، مثل « على أفضل الوصيين ، وزير خير المرسلين » (٢) .

ولما قدم المعز من إفريقية إلى القاهرة المعزية سنة ٣٦٢ هـ لم يقبل يعقوب ابن كلس أن يقبض من أموال الخراج إلا دنانير معزية . وساعد هذا على انحطاط قيمة غيره من الدنانير الموجودة مثل « الدينار الراضى » نسبة إلى الخليفة العباسى الراضى ، فنقص سعر صرفه أكثر من ربع دينار (٣) . وهذا يؤكد أن الناس تتعامل بالنقود على حسب الثقة فيها ، وهذه الثقة تأتى من ضمان الحكومة للنقود المتداولة .

وهناك ظاهرة أخرى بدت واضحة في مصر في العصر الفاطمى وهو تعامل الناس بالدرهم والدنانير بدلا من تعاملهم بالدنانير فقط ، وكان قيمة أو صرف الدينار المعزى خمسة عشر درهماً ونصف (٤) .

ولكن الدراهم أخذت تزداد في مصر زيادة كبيرة مما سبب في انهيار قيمتها . ففي أيام الحاكم بأمر الله إزدادت كميات الدراهم المتداولة بين الناس حتى أن قيمة الدينار في سنة ٣٩٩ هـ بلغت أربعة وثلاثين درهماً (٥) . واضطرت الحكومة الفاطمية أن تجرى إصلاحاً تقديماً ، وفي ذلك يقول المقرئى في كتابه النقود الإسلامية « وأنزل من القصر عشرون صندوقاً

(١) سيدة كاشف : مصر في عصر الأخشيديين ، ص ١٩٥ ، وما به من مراجع .

(٢) الكرملى : النقود ، ص ٥٨ .

(٣) المقرئى : النقود القديمة الإسلامية ، نشر الكرملى ، « ص ٥٨ .

(٤) الكرملى : النقود ، ص ٥٨ .

(٥) الكرملى : النقود ، ص ٥٩ .

فيها دراهم جدد ، فرقت للصيارف ، وقرىء سجل بمنع المعاملة بالدراهم الأولى ، وترك من في يده شيء منها ثلاثة أيام ، وأن يورد جميع ما تحصل منها إلى دار الضرب ، فاضطرب الناس ، وبلغت أربعة دراهم بدرهم جديد ، وتقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهماً بدينار « (١) .

أما في العصر الأيوبي في مصر فنرى السكة تضرب في سنة ٥٦٩ هـ باسم كل من الخليفة العباسي المرتضى بأمر الله والملك العادل نور الدين محمود بن زنكي صاحب بلاد الشام . وبعد وفاة نور الدين ، واستبداد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي بأمر مصر والشام ، نرى صلاح الدين يبطل في سنة ٥٨٣ هـ النقود المتداولة في مصر ، ويضرب الدينار من الذهب المصري ، كما يضرب الدراهم الناصرية . لكننا نلاحظ إرتباط العملة المصرية بالحالة السياسية والحربية آنذاك . إذ وقع على كاهل مصر والشام عبء مقاومة جموع الصليبيين الذين أتوا الشرق غازين معتدين منذ أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ونجحوا في تكوين إمارات صليبية في الشام كما هددوا مصر بالغزو عدة مرات . وطبيعي أن تتعرض مصر والشام للضغط الاقتصادي وذلك كي تقف في وجه المعتدين ولتظهر البلاد منهم ، وقد تسرب من البلاد كثير من الذهب والنفائس خلال العمليات الحربية التي اضطلعت بها البلاد .

وليس هناك وصف أدق من وصف المقریزی حين يبين حالة النقد المصري بعد زوال الدولة الفاطمية وتسرب الأموال والنفائس من القصر والقصر هنا معناه مقر الحكم أو الحكومة ، كما يبين اضطراب قيمة النقود في مصر التي يعبر عنها بكلمة « المصارف » أي سعر صرف الدينار وفي ذلك يقول المقریزی في كلامه عن سنة ٥٦٩ هـ « وفيها عمت بلوى المصارف بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا ، وعندما فلم يوجد ، ولهيج الناس بما غمهم من ذلك ، وصاروا ، إذا قيل دينار أحمر ، فكأنما ذكرت حرمة له ، وإن حصل في يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له . ومقدار ما حدث ، أنه خرج من القصر ما بين درهم ، ودينار ، ومصاغ ، وجوهر ، ونحاس ، وملبوس ، وأثاث ،

وقماش، وسلاح، مالا يفي به ملك الاكاسرة ولا تتصوره الخواطر، ولا تشتمل على مثله المالك، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة» (١).

وحين ضرب صلاح الدين الدراهم الناصرية في سنة ٥٨٣ هـ جعل نصفها من فضة ونصفها من نحاس، وظل الحال كذلك في مصر والشام إلى أن أبطل الملك الكامل الأيوبي الدرهم الناصري في ذي القعدة سنة ٦٢٢ هـ وضرب الدراهم الكاملية المستديرة التي كان ثلثاها من الفضة وثلث من نحاس. وكانت الدراهم الناصرية، أو الدراهم المصرية العتق تعرف في مصر والإسكندرية بالزئوف (٢).

ويذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى أن الدراهم التي يكون ثلثاها من الفضة وثلثها من نحاس اسمها «الدراهم النقرة» (٣).

والحق أن الدراهم الفضية أصبحت عمله متداولة في مصر منذ العصر الفاطمي وزاد التداول بها زمن الأيوبيين حتى أصبحت تقوم بها المبيعات الهامة وخراج الأرض وأجرة المساكن وقيم الأعمال.

أي أن مصر أصبحت في العصر الأيوبي تتبع نظام المعدنين، الذهب والفضة.

ثم تطور الأمر بعد ذلك فمئذ سنة ٦٣٠ هـ في عهد الملك الكامل نرى النقود النحاس تنتشر في مصر وعرفت باسم «الدراهم الفلوس». وانقسخ المجال لظهور العملات الأجنبية الفضية في الأسواق المصرية مثل نقود البندقية، ونقود فلورنسا وذلك لاتصال الشرق بأوروبا حرياً وتجارياً بل أن ظهور العملات الإيطالية في السوق المصري ساعد على اختفاء الفضة المصرية التي كانت تهرب إلى أوروبا حيث تسلك في دور الضرب الإيطالية.

(١) المرجع السابق، ص ٥٩ — ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٠.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣ (دار الكتب المصرية)

(٤) الكرملي: النقود، ص ٦٠ — ٦١.

أما النقود في عصر المماليك البحرية فقد كانت دنانير من الذهب ونقوداً من الفضة، ومن النحاس . ونرى الظاهر بيبرس بعد أن نقل مركز الخلافة العباسية إلى القاهرة نقش على النقود الذهبية والفضية اسم الخليفة العباسي في القاهرة ونقش اسمه معه مضافاً إليه عبارة « قسيم أمير المؤمنين » ونقش الظاهر بيبرس أيضاً رنكه على النقود، أي شارته، وهو صورة سبع .

ولكن بعد أن استقر المماليك في حكم مصر لم يهتموا بنقش اسم الخليفة العباسي في مصر فكانت العملة في عهد أسرة قلاوون في الغالب تحمل اسم السلطان وتاريخ ومكان الضرب ، وبعض العبارات الدينية .

ونلاحظ في العصر المملوكي أن النقود الذهبية لم تثبت على عيار واحد أو وزن واحد أو حجم واحد . ولذلك نجد أنه منذ سنة ٨٠٠ هـ كثر تداول العملات الأجنبية وخاصة الدوكات Ducat في مصر وغيرها من البلاد العربية وهذه الدوكات هي عملة البندقية الذهبية . ويذكر القلقشندي أن هذه النسبة إلى أميرهم دوك البندقية أما الألف والتاء في الآخر فقائمان مقام ياء النسب (١) وعرفت الدوكات في الشرق باسم البندقي ولا شك أن كثرة تداول هذه النقود يرجع إلى نشاط التجار الإيطاليين في ذلك الحين فضلاً عن وزن الدوكات الثابت وعياره المرتفع .

وثمة ظاهرة أخرى في العصر المملوكي، وخاصة في عصر دولة المماليك البرجية أو الجراكسة، هي اختفاء الدراهم أو النقود الفضية والاكثار من ضرب الفلوس أي النقود النحاسية ، وكذلك ورود كثير من دراهم البندقية . وفي الوقت نفسه كان الفرنج يأخذون ما بمصر من الدراهم إلى بلادهم . ويذكر المقرئ أنه في عهد الملك الظاهر برقوق أول المماليك البرجية « راجت الفلوس رواجاً عظيماً حتى نسب إليها سائر المبيعات ، وصار يقال : كل دينار بكذا من الفلوس » (٢) ويعلق المقرئ على ذلك بقوله « وكانت الفلوس لا يشتري

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤١ .

(٢) الكرملی : النقود ، ص ٦٩ .

بها شيء من الأمور الجليلة ، وإنما هي لنفقات الدور ، ومن أنعم النظر في أخبار الخليفة عرف ما كان الناس فيه بمصر والشام والعراق ، من رخاء الأسعار ، فيصرف الواحد العدد اليسير من الفلوس في كفاية يومه « (١) .

والواقع أن المقرئ يتعجب من رواج الفلوس كنقد أساسي ويقول أن المعروف أن الذهب والفضة هما أساس النقد « وأنه لما كانت في المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو بجزء منه ، احتاج الناس من أجل هذا في القديم والحديث من الزمان ، إلى شيء سوى الذهب والفضة ، يكون بازاء تلك المحقرات ، ولم يسم أبداً ذلك الشيء الذي جعل للمحقرات نقداً البتة فيما عرف من أخبار الخليفة ، ولا أقيم قط بمنزلة أحد النقدين ... » (٢) وزي المقرئ يتكلم في موضع آخر عن رواج الفلوس فيقول : « أنه حدث من رواجها خراب الإقليم ، وذهاب نعمة أهل مصر ، وأن هذا في الحقيقة كعكس للحقائق . فإن الفضة هي نقد شرعي ، لم تزل في العالم ، والفلوس ، إنما هي أشبه شيء بلا شيء ، فيصير المضاف مضافاً إليه » (٣) .

ويعود المقرئ فيبين علة رواج الفلوس في مصر المملوكية كعملة أساسية وليس كعملة مساعدة ، بقوله : « وتا الله ، أن هذا الشيء يستحيا من ذكرة ، لما فيه من عكس الحقائق إلا أن الناس ، لطول تمرنهم عليه ، ألفوه ، إذ هم أبناء العوائد ، وإلا فهو في غاية القبح والمرجو أن يزيل الله عن بلاد مصر ، هذا العار » (٤) .

دار الضرب :

ضربت النقود الإسلامية في كل حواضر ديار الاسلام شرقاً وغرباً فضربت النقود في مصر والشام والعراق وخراسان وفي شمال إفريقيا

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٩ — ٧٠ .

والأندلس وصقلية وغيرها. وكانت النقود تختلف شكلاً، ونصاً، وكتابة، ووزناً وحجماً باختلاف الدول والعصور. وعرف مكان ضرب النقود باسم دار الضرب. ولم يسمح بضرب الدينار إلا في المدن الرئيسية والعواصم الهامة. أما الدراهم والفلس فكان من ضرب الأمراء والولاة في عدة مدن (١).

ويبدو أن الختم على الدينار والدراهم وعيارها كان يقوم به نفر قليل من الموظفين يعرف بعضهم باسم المعدلين (٢) ويعرف الآخرون باسم السباكين (٣) ويعرف البعض باسم الطبايعين (٤) ويشرف عليهم متولى دار الضرب ووصلت إلينا عن دار الضرب بإيران في العصر الصفوي بيانات طيبة في كتاب «تذكرة الملوك» الذي نشره الأستاذ مينورسكى (٥) وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة في فجر الإسلام. ويقول المقرئ أنه لما قتل الخليفة العباسي الأمين واجتمع الأمر لعبد الله المأمون، لم يجد أحداً ينقش الدراهم فنقشت بالمخراط كما تنقش الخواتم (٦).

وكان لدار الضرب ضريبة على ما يضرب فيها من نقود كانت تسمى في بداية العصر الإسلامي «ثمن الخطب وأجرة الضراب» (٧). وكان مقدارها في أيام عبد الملك بن مروان ١/١٠، إذ أنه «قدر في كل مائة درهم درهماً» (٨).

(١) النقشبندي: الدينار الإسلامي، ص ١٦—١٧، وما به من مراجع.

(٢) الكرملي: النقود، ص ٣٧.

(٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص ٣١، ليدن ١٨٩٩.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٧٤.

(٥) Minorsky : Tadhkirat al - Muluk : A Manual of Safarid Administration.

واظر أيضاً، Rabino di Borgomale : Coins and Seals of the Shahs of Iran pp. 1—5.

(٦) الكرملي: النقود، ص ٥٠.

(٧) المرجع السابق: ص ٣٦.

(٨) المرجع السابق، ص ٣٦.

وكان الخلفاء أو من ينوب عنهم هم الذين يباشرون عيار النقود . ويذكر المقرئ أن هارون الرشيد هو أول خليفة ترفع عن مباشرة العيار بنفسه وكان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم» (١) وترك الخليفة هارون الرشيد مباشرة عيار النقود لجعفر بن يحيى البرمكي فلما قتل هارون الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي إلى السندى» (٢) .

وكان الخليفة أو أمراء الدول الإسلامية المستقلة يعهدون في بعض الأحيان بالأشراف على دار الضرب إلى القاضي (٣) « وكانت دار الضرب في الدولة الفاطمية لا يتولاها إلا قاضي القضاة تعظيماً لشأنها ، وتكتب في عهده في جملة ما يضاف إلى وظيفة القضاء ويقوم مباشرة ذلك من يختاره من نواب الحكم» (٤) وكان الدينار أو الدرهم يكسر ويضرب مرة أخرى كما فعل عبد الملك بالدنانير البيزنطية المتداولة . وكان الملوك والأمراء يكسرون الدنانير ويعيدون ضربها إما لاحتياجهم إلى التبر وإما لإخراج نقود بأسمائهم وإما لأغراض سياسية كما فعل الحجاج بدراهم مصعب بن الزبير .

ويذكر السيد ناصر النقشبندى في كتابه «الدينار الإسلامي» في المتحف العراقي أنه رأى عدة دراهم مضمومة مرة ثانية ، ولا تزال كتابات الضرب الأول ترى عليها بشكل معاكس . لأنه لم يتقن ضربها في المرة الثانية (٥) . وكان هناك نقود جيدة ونقود رديئة . أما النقود الجيدة فتلك التي كانت تضرب في دار الضرب . أي النقود التي تصدرها الدولة والتي يثق فيها الناس لأن الحكومة هي التي تتولى سكها ومراقبة عيارها وخلوص ذهبها وفضتها . وكانت النقود الجيدة توصف بأنها « الميالة الوازنة التامة » (٦) أي التي تميل

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥٦٢ — ٥٦٣ .

(٤) القلقشندى : صبيح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ .

(٥) النقشبندى : الدينار الإسلامي ، ص ١٥ .

(٦) المقرئى . النقود الإسلامية ، نشر السكرملى ، ص ٤٧ .

إلى الرجحان أى أنها تامة الوزن ليس فيها أدنى نقص . وكذلك يصف الجاحظ الدنانير الجيدة بأنها « مثاقيل وازنة جياذ » (١) وأما النقود الرديئة فهي أنواع متعددة حسب تفنن الناس فى الغش والتزييف . فكان بعض الناس يعمد إلى الضرب على سكة السلطان وتقليدها . وكان ضرب النقود من إمتياز الخليفة أو ممثليه ، أما ضرب النقود خارج دار الضرب فكان يعتبر جريمة . ويقال أن عبد الملك بن مروان أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده ثم ترك ذلك وعاقبه . ويروى أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أتى برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه وأخذ حديده، أى السكة التى كان يطبع عليها فطرحة فى النار (٢) ، وفى سنة ٣٢٨ هـ عوقب رجل على هذه التهمة بالجلد والتشهير على جمل وطيف به فى جانبى بغداد (٣) . ويقول أبو يعلى عن أحمد بن حنبل : « لا يصلح ضرب الدراهم إلا فى دار الضرب باذن السلطان ، لأن الناس أن رخص لهم ركبوا الفطائم » (٤) . ويرى الماوردى أن يتعامل الناس بالنقد المطبوع « بالسكة السلطانية الموثوق بسلامة طبعه ، المأمون من تبديله وتلييسه » (٥) .

ولكن دار الضرب كانت مفتوحة للجميع ، وكان من حق كل فرد أن يأتى بالذهب أو الفضة لتضرب له (٦) ويذكر البلاذرى أن الحجاج أذن للتجار وغيرهم فى أن تضرب لهم الأوراق (٧) أى النقود الفضية .

وكان التجار والصرافون فى القرن الرابع الهجرى يتوسطون بين الناس وبين دار الضرب فيأخذون من الناس المعادن الثمينة ويعطونهم ما يساويها

(١) الجاحظ : البخلاء ، ص ٦٥ ، طبع المجمع العلمى العربى بدمشق .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٧٥ .

(٣) الصولى : أخبار الراضى والمتقى بالله . (القاهرة ، ١٩٣٦) . ص ١٤٨ ، الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٣٤ .

(٤) أبو يعلى ، الفراء الحنبلى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ١٦٥ .

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٢٩٨ هـ ، ص ١٥٠ .

(٦) أبو يعلى : نفس المرجع ، ص ١٦٥ .

(٧) البلاذرى : نفس المرجع ، ص ٤٧٤ .

فى القيمة الاسمية للنقود ، ولعل الصيارف كانوا يجذون زيادة المعدن الرخيص فى الدنانير وذلك لأنهم كانوا يأخذون الذهب والفضة من الناس إلى دار الضرب ويعطون أصحابها نقوداً تساوى ما أخذوه فى القيمة الاسمية، أى أن النقود لا تصبح قيمتها السلعية كاملة فكانت زيادة الخليط تزيد فى أرباحهم (١) .

ومن النقود لرديئة، الزيوف، جمع زيف، وهى الدراهم التى تكون نسبة المعدن الرخيص فيها كبيرة . وقيل أن عمر وعثمان كانا إذا وجدا الزيوف فى بيت المال جعلها فضة (٢) .

ومن النقود الرديئة، البهرج، أو البهرجه، أو البهرجه، وهى نقود يكثر المعدن الرخيص، ويقصد بها الدنانير الرديئة، وأحياناً يقصد بها الدراهم الرديئة (٣) .

وكان فريق من الناس يحاول تزيف النقود وذلك بضرب دينار من الفضة وطلية بالذهب (٤) وكذلك كانت الفلوس وهى النقود النحاسية تغطى بطبقة من الفضة لينخدع الناس فيها ويظنونها دراهم وكان هذا النوع من الفلوس أو الدراهم يسمى، الستوقة، أو الدرهم الستوق (٥) .

كذلك لجأ بعض الناس الذين لا يرغبون فى صرف الدينار جميعه إلى قطع جزء منه أو قرض جزء يسمى « قراضة » ثم يبيعونه بحسب سعر الذهب التبر وبهذه الطريقة يضيع جزء من الدينار (٦) .

(١) الدورى : تاريخ العراق الاقصادى، ص ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، وما به من مراجع .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٧٥ .

(٣) الدورى : المرجع السابق، ص ٢٣١ وما به من مراجع .

(٤) النقشبندى : الدينار الإسلامى ، ص ١٤ .

(٥) الكرملى ، النقود، ص ١٤٧ ، الدورى : تاريخ العراق ، ص ٢٣٢ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٤٧٤ .

(٦) النقشبندى : الدينار الإسلامى ، ص ١٥ ، وما به من مراجع .

وكانت هذه الدنانير تسمى « القراضة والمثلومة » (١) .

وقيل أن مروان بن الحكم أخذ رجلاً يقطع الدراهم فقطع يده (٢) وعاقب إبان بن عثمان ، وهو والى على المدينة ، من يقطع الدراهم بضربه ثلاثين ، وأن يطاف به (٣) .

وكان البعض يدس في النقود « المفرغة » (٤) ومعنى ذلك أن يعمل ثقب في الدينار أو الدراهم ويستخرج منه الذهب أو الفضة ثم يحشى بمادة رخيصة ويطلّى بطلاء من الذهب أو الفضة (٥) .

وكانت النقود المسووحة تعتبر غير جيدة لأن قيمتها من ناحية المعدن تقل عن قيمة النقود الجديدة . ولم يجز الفقهاء دفع النقود الرديئة ولا مكسور الدراهم والدنانير في الخراج . أما الأفراد فكانوا أحراراً في أخذها أو ردها . وقد تقبل النقود الرديئة ولكن بقيمة تقل عن قيمة « المضروب الصحيح » وكان من اللازم وزن النقود المسووحة أو المكسرة أو المثلومة قبل استلامها (٦) .

نظام المعدنين الآثنين : (Bimetallism)

كانت الدولة الإسلامية تتبع نظام المعدنين فكانت تتعامل بالدينار، والدرهم ولم تكن الدراهم كما رأينا أجزاء من الدينار وإنما كان الدرهم يتبع قاعدة الفضة ، وكان الدينار يتبع قاعدة الذهب .

ويرى علماء الاقتصاد أن نظام المعدنين عبارة عن قاعدة نقدية مزدوجة ترتبط بمقتضاها قيم النقود بعلاقة ثابتة مع قيمة الذهب وقيمة الفضة في نفس الوقت . ويتحقق ذلك الارتباط بإجماع ثلاثة شروط :

(١) الدورى ، تاريخ العراق ، ص ٢٣٢ ، وما به من مراجع .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٧٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٧٥ .

(٥) الكرملى ، النقود ص ١٧ :

(٦) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ و ٢٢١ .

أولاً : تحديد الوزن المعدني الذي تساويه وحدة النقد من كل من المعدنين على التوالي بما يترتب على ذلك من إنشاء علاقة ثابتة بين قيمة الذهب والفضة .

ثانياً : الاعتراف للمسكوكات المصنوعة من كل من المعدنين بقوة إبراء غير محدودة في الوفاء .

ثالثاً : إطلاق حرية الأفراد في تحويل سبائك أي المعدنين إلى مسكوكات وبالعكس (١) .

وقد رأينا أن دار الضرب كانت مفتوحة للجميع وأنه يحق لكل فرد أن يأتي بالذهب أو الفضة لتضرب له النقود نظير رسم بسيط . كذلك كانت الدولة والأفراد يتعاملون بالدنانير والدراهم بحسب النسبة السائدة في السوق ، أو سعر الصرف الذي تحدده الأحوال التجارية (٢) ومع ذلك فإن الظروف التاريخية للبلاد الإسلامية لم تجعلها في يوم ما منطقة نقدية موحدة فبينما كان نظام النقد مزدوجاً إذريجان والجهال وجرجان وطبرستان والديلم والرى ، كان فردى القاعدة في مصر ، وفي كرمان وبخارى ومقاطعة فارس في الشرق فكانت المقاطعات الثلاثة الأخيرة ضمن منطقة الفضة تتعامل بالدراهم وتعتبر الذهب نوعاً من البضاعة .

أما مصر فكانت ضمن منطقة الذهب وتستعمل الفضة للحلى والأثاث أما العراق مركز الخلافة العباسية فكان يتعامل بالذهب والفضة (٣) .

ولم تكن قيمة الدينار في بلد تساوى دائماً قيمته في بلد آخر، فكان الدينار العراقي يساوى ٨٠٪ من قيمة الدينار المصري حول سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) . كذلك كانت نسبة الدرهم للدينار تختلف من وقت لآخر ومن بلد لآخر (٤) .

(١) محمد زكي شافعي ، مقدمة في النقود ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) ضياء الرئيس ، الخراج والنظم المالية ، ص ٣٧٣ .

(٣) الدوري ، تاريخ العراق ، ص ٢١٩ ، ٢٢٣ ، وما به من مراجع .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٢١ - ٢٢٥ ، وما به من مراجع .

(٧ - المجلة التاريخية)

كذلك نلاحظ — مع وجود نظام للمعدنين — شيوع استعمال إحدى العملتين في المعاملات في فترة ما أكثر من الأخرى . وكان للأسباب السياسية والحرية والظروف الاقتصادية فضلاً عن الظروف التاريخية لكل إقليم أكبر الأثر في ذلك .

فحينما قامت الدولة العباسية رأى البيزنطيون أنهم لا ينازعونهم سيادة البحر المتوسط كما فعل أسلافهم الأمويون فضلاً عن أنهم لم ينجحوا في بسط سلطانهم منذ البداية على جميع أراضي الدولة الإسلامية .

لكن العباسيين أخذوا يهاجمون بعنف يفوق عنف أسلافهم الأمويين أطراف الإمبراطورية الشرقية، واضطر حكام القسطنطينية أن يؤدوا للخلافة العباسية قدرأ كبيراً من الذهب جزية، فنرى قسطنطين الخامس يدفع عام (١٥٧هـ — ٧٧٢م) أى في خلافة أبى جعفر المنصور ، مبلغاً ضخماً تأميناً لأطرافه الشرقية . ثم تجددت هذه الجزيات زمن الإمبراطورة إيرين في خلافة المهدي سنة ١٦٥ هـ (٧٨١م) . وشهد عام ١٨٢ هـ (٧٩٨م) في خلافة هارون الرشيد تدفق الذهب من جديد إلى بغداد بعد أن بلغت جيوش المسلمين مدينة أفسس . Ephesus .

كذلك أجبر الإمبراطور ثقفور - خليفة إيرين - على دفع الجزية بعد عام ١٩١ هـ (٨٠٦م) ، حين بلغت جيوش هارون الرشيد مدينة هرقله الواقعة قبالة القسطنطينية (١) .

لكن تلك السنوات شهدت قصر استخدام الذهب في التجارة الدولية على مجال أضيق بكثير مما كانت عليه الحال زمن معاوية وجستيان فكانت عملة مصر والشام وشمال إفريقيا بالدينار الإسلامي واستخدمت الإمبراطورية البيزنطية عملتها الخاصة بها .

وامتدت منطقة الفضة إلى الشرق والغرب ، على جانبي منطقة الذهب ، ففي الغرب استخدم الأندلس الدرهم الإسلامي، واستخدم معظم غرب أوروبا ، فيما عدا إيطاليا وقليل من المناطق الشمالية ، البنى الفضى الكارولنجى . أما في

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية، ص ١٧١ - ١٧٢ .

الشرق فاستمرت كل من العراق وإيران وما وراء النهر تستخدم الدرهم الفضي الذي ضرب على نمط العملة الساسانية صاحبه السيادة في المحيط الهندي (١).

لكننا نلاحظ انتعاش إفريقية (تونس الحالية) زمن الأغابة، في أواخر القرن الثاني والقرن الثالث الهجري ١٨٤ — ٢٩٦ هـ (٨٠٠ م — ٩٠٨)، ومن بعدهم زمن الفاطميين، فأصبحت إفريقية بلداً زراعياً غنياً، وكذلك انتعشت صناعاته وتجارته، كما كان له أسطول بحري متفوق، وكذلك سارت القوافل مختربة الصحراء إلى بلاد السنغال والنيجر والسودان حيث يتوافر الذهب. وهكذا تدفق الذهب إلى إفريقية فضلاً عن ثروتها من تجارة البحر المتوسط، ولا غرو أن كانت الدنانير المغربية التي ضربها حكام إفريقية من الذهب الذي ملأ خزائنها، من أهم العملات الذهبية الشائعة في البحر المتوسط حتى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) (٢).

كذلك انتعشت مصر زمن الطولونيين والأخشيديين، في القرنين الثالث والرابع الهجري (التاسع والعاشر الميلادي)، وتدفع الذهب إلى مصر من النوبة. ولم يرق رضاء مصر على الزراعة والذهب من النوبة فقط، وإنما على انتعاش طريق التجارة الدولية الهامة المارة بها، وهما طريق البحر المتوسط والبحر الأحمر فضلاً عن ذلك كانت مصر بلداً صناعياً هاماً أنتجت الأقمشة الفاخرة ذات الخيوط الفضية والذهبية، كما أنتجت الأسلحة الحربية والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة.

كذلك شاركت الشام مصر في رخائها، كما تمتع الأندلس بازدهار زراعي وتجاري وصناعي كبير (٣).

وأصبح للعالم الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وأواخر التاسع الميلادي ثلاثة مراكز إسلامية بحرية في حوض البحر المتوسط: الأول في مصر والشام، والثاني في شمال إفريقية، والثالث في

(١) المرجع السابق، ص ١٩٧ — ١٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٥ — ٢٥٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٥ — ٢٥٨.

الأندلس . وأصبح الاسلام منذ ذلك الحين سيد البحر المتوسط ومالكاً زمام طرق التجارة الدولية فيه بعكس ما كان عليه الحال حين قامت الدولة العباسية فى القرن الثانى الهجرى . وحصر الاسلام البيزنطيين والشعوب المسيحية الغربية فى البحار الضيقة ، وكانت طرسوس ، وجزيرة قبرص المحايدة ، تحميان شواطئ سورية ، وكانت كريت تحمى مصر ، كما تحمى صقلية شمال إفريقيا ، وجزر البليار الأندلس (١) .

وكان من آثار سيادة الأسطول الإسلامى على البحر المتوسط إنعاش التجارة الدولية التى أفاضت خيراً كثيراً على تلك البلاد من تجارة البحر ، فضلاً عن ذهب بلاد النوبة والسودان وتبع ذلك تغيير آخر فى بلاد العالم الإسلامى وهو تغيير العملة إذ انتشر الدينار الذهبى شرقاً وغرباً . وصارت بلاد العالم الإسلامى من الأندلس حتى جزر الهند الشرقية مرتبطة تجارياً داخل وحدة إقتصادية واحدة فحوالى عام ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) حين قامت دولة الأغالبة فى أفريقية كان الدينار الذهبى لا يستخدم إلا فى مصر وسورية وشمال أفريقيا وبعض أجزاء إيطاليا ، ولكنه أصبح فى منتصف القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى نقداً دولياً دون منازع ، كما استخدم فى سائر بلاد العالم الإسلامى ، فى أوائل القرن الرابع الهجرى (أوائل العاشر الميلادى) سك عبدالرحمن الناصر (الثالث) ديناراً أندلسياً على قاعدة الذهب لا الفضة التى كانت قاعدة للقد منذ أواخر أيام القوط الغربيين وأوائل حكم المسلمين . كذلك انتشر الدينار الذهبى فى شرق العالم الإسلامى فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وأوائل الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) اختفى الدرهم الفضى من العراق وإيران ومن المحيط الهندى بين جزيرة مدغشقر وساحل ملبار ولوأن استخدام الفضة ظل باقياً فى التداول المحلى وفى التعامل التجارى مع روسيا وغرب أوروبا التى كانت تتبع قاعدة الفضة (٢) .

ويؤيد هذا القول أن أكثر حسابات الخلافة العباسية ومعاملاتها فى المدة الواقعة بين أواخر القرن الثالث الهجرى والقرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٠ - ٢٦٩ .

(٢٩٥ — ٣٣٤ هـ / ٩٠٨ — ٩٤٥ م) كانت تجرى بالدنانير وليس بالدرهم (١).

النقود الائتمانية :

عرف الإسلام النقود التي تعرف في الاقتصاد الحديث باسم النقود الائتمانية والنقود الائتمانية هي كل ما تعرفه النظم النقدية الحديثة اليوم من أنواع النقود إذ أن النقود السلعية اختفت عقب قيام الحرب العالمية الأولى واصبحت النقود الائتمانية تضطلع وحدها الآن بعبء التداول النقدي . وتتميز النقود الائتمانية عن النقود السلعية المصنوعة من الذهب والفضة بأن قيمتها النقدية تتجاوز بكثير ما قد يكون للمادة التي صنعت منها من قيمة كسلعة ، أي أن شرط النقود الائتمانية هو انقطاع الصلة بين قيمتها الاسمية كنقد وقيمتها التجارية كسلعة . وليس هناك اعتبار لطبيعة المادة التي تصنع منها هذه النقود ، فقد تكون النقود الائتمانية نقوداً معدنية ، وقد تكون نقوداً ورقية ، وقد تكون مجرد قيد كتابي على دفاتر مصرف تجاري (٢) .

وقد جاء التعامل بالنقود الائتمانية مصحوباً بوعد من جانب مصدرها سواء كانت الدولة أو المصارف ، بدفع قيمتها بوحدة نقد سلعية لدى الطلب . ومن هنا جاء اسمها ، فالائتمان عبارة عن الوعد بدفع مبلغ من النقود ، فليست هذه النقود الائتمانية سوى ديون لصالح حاملها في ذمة الدولة أو البنوك ، وتعتمد على ثقة حاملها في قابليتها للصرف بوحدة نقد سلعية حينما كانت قابلة للصرف ، أو في مجرد قبول الأفراد لها في التعامل عندما توقف ما كان لها من تلك القابلية للصرف . ولا شك أن أصل التعامل بالنقود الائتمانية يرجع إلى رغبة المتعاملين في التحرر من مخاطر التعامل بالمسكوكات والتخلص من مضايقات استعمال النقود المعدنية في تسوية المدفوعات (٣) .

(١) الدوري : تاريخ العراق ، ص ٢١٨ — ٢١٩ ، وما ذكره من مراجع .

(٢) زكي شافعي : مقدمة في النقود ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦ — ٣٧ .

وقد تطورت النقود والأساليب المصرفية الدولية في العصر الإسلامي .
وكان هذا دليلاً على الوحدة الاقتصادية للدولة الإسلامية . أما كبار رجال
هذه الحركة المصرفية فكانوا من أهل فارس أو من أهل البصرة .

وكانت أهم أداة للمعاملات المستندة إلى الائتمان هي السفتجة . وكانت
السفتجة في استعمالها وبنائها مثل الكمبيالة الآن (١) .

وشاع استعمال السفاتج في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي لأهميتها
في التحويل حتى صارت عاملاً مهماً في الحياة الاقتصادية (٢) .

ونعرف أن محمد بن طنج الأخشيذ أرسل إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين
ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة (٣) . ولم يقتصر استعمال السفاتج على الولاة
بل شاع استعمالها بين أفراد الشعب (٤) .

وكان أهم فائدة للسفتجة هي استعمالها من قبل التجار لتصفية حساباتهم بين
الأقطار المختلفة بكتابة السفاتج على وكلائهم ، ولتسوية الديون في المعاملات
التجارية في نفس القطر .

وكانت السفاتج تسحب عادة على التجار والباءة . وكان لكل سفتجة
موعد لاستحقاقها وكان يمكن لصاحب السفتجة أخذ النقود دفعة واحدة
أو على أقساط (٥) .

واستعملت السفتجة أيضاً كاستعمال الشيك السياحي الآن
Travellers Cheques (٦) وعلى أية حال فإن السفاتج كانت وسيلة لتجنب

(١) عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ، ج ١ ، ص ٥٦١ .

(٢) أنظر . أرشيدالد لويس : القوى البحرية ، ص ٢٦٣ ، الدوري : تاريخ العراق
الاقتصادي ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٢ ، الدوري : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(٤) الدوري : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٧٤ - ١٧٦ ، وما ذكره من مراجع .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٧٦ وما ذكره من مراجع .

أخطار المواصلات كما أنها كانت تجري باتفاق فردى . وتوجد إشارة للسفاحج منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١) .

ولكى نتصور مدى دولية هذا التصرف المالى نذكر أن رجال المال من سكان البصرة وأهل فارس ، ظهروا فى كل مركز من مراكز التجارة ، فهم فى جدة فى الحجاز ، وهم فى سجلماسة ببلاد المغرب ، وهم فى طرابلس الغرب وبيروت ومصر (٢) .

أما الوسيلة الثانية من وسائل الائتمان فهو الصك ، وهو أمر خطى بدفع مقدار من النقود إلى الشخص المسمى فيه . والصك كلمة فارسية معربة والأصل (جك) ولا يزال يعرف للآن فى عصرنا باسم Cheque (٣) .

وتوجد أشارات قليلة إلى استعمال الصك فى فجر الإسلام ، فكانت الأرزاق والرواتب تدفع أحياناً بصكوك . ويقول اليعقوبى أن عمر بن الخطاب كان أول من « صك وختم أسفل الصك » (٤) . وكثرت الإشارة إلى استعمال الصك فى القرن الرابع الهجرى فكان يستعمل فى الدوائر الحكومية لدفع رواتب الجيش بصورة خاصة ثم اتسع استعمال الصك وتعدى دوائر الحكومة إلى الشعب . وكان الصك يطلق أحياناً على « سند الدين » وفى هذه الحالة كان يلزم تصديقه من قبل شهود (٥) .

ومن طريف ما ذكره الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، عن البيع والشراء فى أسواق البصرة فى رحلته فى منتصف القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فقال أن هذه المدينة كانت تقوم فى أنحائها ثلاثة أسواق فى اليوم الواحد ، وأن رواد تلك الأسواق كانوا يودعون أموالهم عند أصحاب المصارف المالية

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٤

(٢) أرشيبالد لويس : نفس المرجع ، ص ٢٦٣ .

(٣) الدورى : نفس المرجع ص ١٧٦ - ١٧٧ وما ذكره من مراجع

(٤) تاريخ اليعقوبى ، ج ١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ (طبعة النجف بالعراق) وكذلك الدورى

المرجع السابق ، ص ١٧٦ - ١٧٧

(٥) الدورى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ - ١٧٩ ، وما ذكره من مراجع

وبأخذون منهم إقراراً باستلامها ، ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه « صكا » أو « إذناً » أو « شيكا » يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف . وهكذا لا يستعمل التجار النقود في معاملاتهم ، وإنما يستخدمون الشيكات أو «إذونات الصرف » يدفع قيمتها أصحاب المصارف (١) .

وكانت الدولة الإسلامية الوحيدة التي ظهرت فيها النقود الورقية هي دولة ايلخانات المغول في فارس التي قامت في إيران بعد أن قضى المغول على الخلافة العباسية في بغداد .

وكان سبب إصدار العملة الورقية أن ايلخان المغول ليخاتو كان مسرفاً كريماً إلى حد بعيد ، وأصبح بيت المال بسبب إسرافه خالياً من الصنفاء والنيضاء ، أى من الذهب والفضة وظهرت الحاجة الملحة إلى المال ورأى وزيره صدر جهان (أى صدر العالم) أن يصدر عملة مالية ورقية اسمها « الجاو » وهي العملة التي كان يتعامل بها في بلاد الحظا (الصين) بدلا من الدراهم (٢) .

ونحن نعرف أن بلاد الصين عرفت أوراق النقد الحكومية نحو أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) قبل أن تعرف في أى بلد آخر في العالم (٣) .

ووصف المؤرخ الفارسى عبد الله بن فضل الله ، المعروف بوصاف الحضرة في كتابه « تاريخ وصاف » هذه العملة الورقية ونقلها عنه براون Browne في كتابه تاريخ الأدب الفارسى (الجزء الثالث) A Literary History of Persia فقال : أن هذه العملة مستطيلة الشكل قائمة الزوايا كتب عليها كلمات صينية يعلوها باللغة العربية عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكتبت

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٦٢ - ٦٣ القاهرة ١٩٤٥ م .

(٢) رشيد الدين فضل الله الهمذانى . جامع التواريخ . تاريخ المغول - المجلد الثانى - الجزء الثانى ١٨١ - ١٨٢ ، ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد .

(٣) زكى شافعى : المرجع السابق ص ٤١ .

قيمة الورقة في وسط دائرة ، وكانت هذه القيمة تختلف بين نصف درهم وعشرة دنانير ، وإذا تمزقت هذه الورقة المالية أو تأكلت فإن صاحبها يستطيع أن يردها إلى دار الضرب وأن يأخذ بدلا منها ورقة مالية جديدة تقل قيمتها عن قيمة الورقة المستبدلة بعشرة في المائة . وعلى كل ورقة كتبت هذه العبارة « أصدر ملك العالم هذه الورقة المالية المباركة في سنة ثلاث وتسعين وستائة » ، وإذا حاول أحد أن يغير أو يمحو قيمتها قتل هو وزوجاته وأولاده وصودرت أملاكه وتحولت إلى بيت المال .

ويذكر المؤرخ الفارسي رشيد الدين فضل الله الهمذاني في كتابه جامع التواريخ أن عمله الجاو (تشاو) صدرت في مدينة تبريز في يوم السبت ١٩ من شوال سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م . وصدرت الأوامر بقتل كل من لا يتعامل بها في الحال . ويذكر أن الناس تداولوا هذه العملة أسبوعاً واحداً خشية السيف لكنهم لم يعطوا أحداً شيئاً في مقابل هذا الجاو واضطر معظم سكان تبريز إلى الرحيل عن بلدهم ، وأخفوا الأقمشة والأغذية من الأسواق بحيث لم يعد يوجد شيء قط وهكذا خلت مدينة تبريز من الناس بعد أن كانت تموج بالسكان (١) .

ونلاحظ أن المؤرخ رشيد الدين يعنون فصلاً في كتابه بهذا العنوان :

« حكاية وضع الجاو المشعوم ، والاضطرابات التي ظهرت في البلاد بسببه » (٢) ، والواقع أن ظهور « الجاو » كان كظهور الأوراق النقدية في العصر الحديث ، أي في أوقات الأزمات والحروب وحين يتعذر الأذعان للقواعد الذهبية أو الفضية فينتقل النظام النقدي إلى قاعدة الأوراق (٣) .

وما أشبه كلام رشيد الدين عن الجاو بكلام المقرئ عن انتشار الفلوس أو العملة النحاسية زمن الماليك البرجية ، والحق أن إصدار « الجاو » كان

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ١٨٢ - ١٨٣

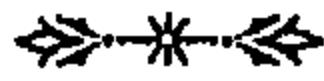
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨١

(٣) زكي شافعي : المرجع السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦

جديداً في دولة الایلخان وفي الدولة الإسلامية عموماً وظهر الجاؤ فاقداً ثقة حاملة ، والثقة شرط أساس في النقود الائتمانية . ولذا نرى كيف خاتو يضطر إلى إلغاء التعامل بهذه العملة الورقية بعد أن إنتشر التذمر والاضطراب في العاصمة تبريز وفي كثير من المدن الإيرانية وبعد أن ثار الناس في يوم الجمعة في مسجد تبريز ثورة عنيفة ، وبعد أن قتل جمع من الناس بسبب تلك العملة ، وبعد أن سببت تلك العملة إرتباك الحالة المالية في البلاد بدلا من معالجتها (١) .

وبعد فهذه لمحات سريعة عن النقود في العصر الإسلامي ولاشك أن لدراسة النقود الإسلامية جوانب كثيرة متنوعة كما سر بنا يمكن أن تكون مجالا لأبحاث كثيرة علمية ومفيدة .

سيرة إسماعيل طائف



المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين

هذا المقال يتناول قطاعاً صغيراً من تاريخ طويل لإقليم فسيح ، وهو غرب إفريقيا .

كان هذا الإقليم في العصور الوسطى جزءاً من عالم إسلامي واسع ، تربطه أوثق الصلات بدولة الممالك في مصر ودولة الشرفاء في مراکش . وتبادل هذا الإقليم مع هاتين الدولتين عدداً كبيراً من الطلاب والأساتذة والمؤلفات ، وشهد قيام مدن كانت حواضر للثقافة الإسلامية العالية ، كما شهد دولاً إسلامية تنفعل بالحضارة الإسلامية وبالجهاد . ولم تنفصم عرى هذه الصلات الوثيقة إلا بسبب الغزو الاستعماري ، وتقسيم القارة الإفريقية في القرن التاسع عشر .

وأدت الجماعات الإسلامية في غرب إفريقيا دوراً رائعاً في التاريخ المعاصر ، فكانت مثلاً طيباً للصمود الإفريقي أمام جماعات المستعمرين ، وكانت نظم الإسلام وحضارته مما ألهم هذه الجماعات الصمود والمقاومة بفضل دينهم . وقنعت الجماعات الإسلامية أولاً بالانطواء والعزلة ، مع الاستعداد للنهوض ، ولذا اعترف كل من المؤرخان ترمنجيهام وميك بأن الحضارة الإسلامية كانت الخطر الخفي الذي واجهه الاستعمار .

ثم لاحت نذر التحرر في القارة ، وبدأت قبضة الاستعمار تتهاوى ، فكانت الجماعات الإسلامية هي التي غدت حركات التحرير ، بزعامات وقيادات لم يمسسها الاستعمار بمغرياته ، فقامت هذه الجماعات من وراء الأحزاب الوطنية تمدّها بالتأييد والمساندة ، وقدمت للحركة الإفريقية قيادات لا تزال ماثلة لنا حتى اليوم ومنها سيكوتوري والمرحومان وأبو بكر تيفاوا باليو أحمد وبللو .

وهذه الجماعات الإسلامية التي يقدر عددها اليوم بأكثر من ثلاثين مليون نسمة سوف تقوم بدور عظيم في مستقبل هذه القارة ، وفي تحقيق الوحدة الإفريقية ،

وتأكيذا واصر الصداقة التقليدية ، وهو واضح من الصلات النامية بين نيجيريا ومالى والسنگال وغينيا ، وغيرها من البلاد .

ولعل هذا كله يدعونا إلى أن نتدبر الماضى ، ونتعمق وراء هذا الميراث ، باحثين عن جذوره الأولى ، وكيف ضربت فى الأرض ، وأنبتت هذه الثمرات المباركات . والجنود المجهولون فى هذا الميدان هم جماعات الطوارق أو الملثمين ، أو صنهاجة الرمال أو صنهاجة الجبل الثانى ، كما يقول ابن خلدون ، . وكان دور هذا الجماعات دوراً شبيهاً بدور العرب فى النوبة والسودان ، أو دور الأغفار والدناقل والجالا فى شرق إفريقيا ، إذ قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى وغرب إفريقيا ، وهم الذين حملوا الإسلام إلى هذه الجهات ، وكانوا العامل التوجيهى لتاريخه وثقافته .

كانت هذه القبائل تنتشر فى وطن فسيح يمتد من غدامس فى طرابلس إلى المحيط الأطلسى ، كما يمتد فى المناطق الصحراوية التى تلى جبال درن وامتد هذا الوطن كذلك من جبال أطلس الكبرى حتى مصب نهر السنغال ، بل امتد أحياناً إلى مقربة من منحى نهر النيجر ، ومن هذا النهر صوب الشرق ، إلى مدينة تادمكة فى قلب الصحراء الكبرى . وأحصى ابن خلدون من هذه القبائل نحو السبعين ، لكن يكفى أن نشير إلى الأحلاف والمجموعات القبلية الكبرى ، وإلى الوطن الذى تنزله ، لأن وجودها فى هذا الموقع أو ذاك حدد لها دوراً واضحاً فى تاريخ هذه المنطقة الشاسعة .

وأول هذه الجماعات قبائل لمطة وجزولة التى نزلت قرب المغرب الأقصى ، من جبال درن حتى وادى نول على المحيط ، ثم قبائل لتونة المنتشرة جنوباً حتى رأس بوجادور ، أما قبيلة جدالة فتمتد ديارها جنوب قبيلة لتونة حتى مصب السنغال ، على حين تنتشر بطون قبيلة مسوفة فى المناطق القاحلة الممتدة صوب الغرب .

وكان يقابل هؤلاء وأولئك جماعات من الزنوج اتصلت بهم ، وتعاملت معهم ، وتعرضت لإغاراتهم أحياناً ، أولدعوتهم المسالمة أحياناً أخرى ، ودخلت معهم فى مبادلات جماعات التيو كولور ، والولوف ، والسيرير ، وكلها فى جنوب السنغال مباشرة . وعلى الضفة اليسرى من النيجر نزلت جماعات الفلاحين

من السنغاي ، وبين وأولئك وهؤلاء نزلت الشعوب المتكلمة بلغه الماندى ، وتسمى أحياناً بجماعات الماندينجو .

وكانت اتصالات الطوارق بهذه الأوطان وهذه الشعوب ظاهرة واضحة منذ القرن الأول الميلادى تقريباً ، ولكن هذه الاتصالات لم تكن تتجاوز أبداً أنواع الانتقالات الموسمية ، ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التى أنشأتها الشعوب الزنجية ، وإشارات خاطفة على أوطان هؤلاء الزنوج ، لاقتناص العبيد وحملهم إلى أسواق المغرب أو البحر الأبيض المتوسط .

وظل الحال على ذلك حتى كان القرن الثالث الهجرى ، ثم شهد المغرب تطوراً جديداً ، حين رسخت به قواعد الإسلام ، ووضعت معالم المدرسة المالكية فى القيروان ، فى ظل الأغالبة فى تونس . وكان الأغالبة فى تونس يجاهدون فى صقلية والبحر الأبيض المتوسط ، وكانت مدينة فاس قد أضحت فى ظل إدارسة قاعدة هامة فى نشر الثقافة العربية الإسلامية .. وغداً الجهاد فرضاً على هذه الإمارات الناشئة ، تكتسب منه تراثها ووجودها ، فإذا كان جهاد الأغالبة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان جهاد الإدارسة صوب جنوب المغرب الأقصى إلى ديار الملثمين . وعكف الإدارسة على الدعوة الإسلامية بين ديار الملثمين ، واستطاعوا فى القرن الثالث الهجرى أن يمدوا نفوذهم إلى مدينة أغمات والسوس الأقصى وبلاد نفيس وصنهاجة الرمال ، وتأكد إسلام الطوارق فى القرن الثالث الهجرى ، ودخلوا فى الاتحاد الذى أقامه الإدارسة بزعامتهم .

وأحدث تمكن الإسلام منهم على هذا النحو تغييراً جذرياً فى حياتهم ، بل فى تاريخ المنطقة كلها ، فلم تعد القبائل تنصرف إلى الجنوب ، كما كانت تفعل دائماً بل تحركت بدافع للجهاد وتأكيده لإسلامهم الجديد . وكان هذا أشبه بتحول الاعفار والديناقل إلى الإسلام ، وانصرفهم إلى الإغارات المتلاحقة على حافة الهضبة الحبشية . وقد أدى إسلام هذه القبائل إلى قيام حلف قوى جمع قبائل الطوارق كلها بزعامة لتونة ، وكان هذا التوحيد نذيراً بموجة من التوسع صوب الجنوب ، والاصطدام بمملكة غانة ، كما اصطدمت القبائل العربية المندفعة من مصر بممالك النوبة المسيحية .

ومملكة غانة هذه أسستها قبائل الماندى أو الماندينجو، وتبادل الزعامة وإياها أحياناً قبائل السوننكة . واسم غانة هو الذى اتخذته الجمهورية الإفريقية الحديثة اسماً لها ، إحياء لهذه الذكرى القديمة وهو، اسم كان يطلق على الطبقة الحاكمة ، ثم أصبح علماً على العاصمة التى الماندينجو، أسسوها، وحدد المؤرخون ظهور هذه المملكة الإفريقية الخالصة بعام ٣٠٠ ميلادية ، بسبب تأثيرات وصلت من الخارج لم يحدد كنهها . توسعت هذه الدولة فى السنوات الممتدة من القرن الرابع الميلادى إلى القرن الثامن الميلادى ، من منحنى النيجر حتى أطراف المغرب الأقصى . ثم استولى السوننكة على الزعامة فيها سنة ٧٧٠ م ، وتم لهذه الدولة إخضاع منطقة فوتا حيث قبائل الولوف والسير والتكرور، وبلغت هذه الدولة أوج اتساعها فى القرن الحادى عشر .

ثم بدأ الطوارق منذ إسلامهم يشنون حرباً لا تنقطع على مملكة غانة ، ووصل لاشتباك إلى ذروته مرتين ، عام ٣٠٧ هـ ، مرة أخرى وعام ٤٠٧ هـ ، وخل الطوارق واحة أودغشت الغانية أكثر من مرة ، وفرضوا الجزية على المغلوب ، وإذا كانوا لم يستطيعوا أن يستأصلوا غانة نهائياً من الوجود الإفريقى فإن حركاتهم أدت إلى وصول الإسلام إلى ديارهم خلال القرن الحادى عشر .

وزار البكرى الرحاله هذه البلاد عام ١٠٦٧ ميلادية ، وذكر أن بالعاصمة اثنى عشر مسجداً وعدداً من الفقهاء وأهل العلم ثم ستألف الطوارق النضال ضد غانة مرة أخرى عام ٤٢٩ هـ ، وفتحوا ثغرات فى المجتمع الغانى ، ونفذ من خلالها التيار الإسلامى منطلقاً نحو الجنوب حتى حوض السنغال الذى قدر له أن يفعل انفعالا إسلامياً ينبع من ترابه وأرضه، شأنه فى ذلك شأن كل قطر تستظله الراية الإسلامية ، وتستهويه الحضارة الإسلامية .

وهنا تنتقل هذا إلى القرن الخامس الهجرى الذى شهد خروج قبائل الطوارق والسنغال على مسرح الأحداث فى الغرب الإسلامى كله . وهكذا هو القرن الذى شهد تطوراً على الجناح الشرقى لدار الإسلام ، إذ اندفع السلاجقة من وراء النهر إلى بغداد لتخليص الخلافة السنية من البويهيين المتشيعه ، ثم اندفعوا إلى قلب آسيا الصغرى وأحرزوا للإسلام نصره الكبير .

وجرت أحداث مشابهة على الجناح الغربي لدار الإسلام حيث وجد زعماء قبيلة جدالة من الطوارق أنفسهم ، أمام تجربتين عظيمتين ، أو محاولتين كبيرتين ، للقضاء على غانة غير أنهم لم يستطيعوا ذلك تماماً ، بسبب سرعة تفرق الأحلاف التي تلم شعثهم ، وتوحد صفوفهم ، ورأوا أن الوحدة لن يتم إلا بدعوة دينية تنبثق من صفوفهم .

ولذا استقدم زعيمهم جدالة فقيهاً مالكيًا من صنّاع التاريخ ، يدعى عبد الله ابن ياسين وأخذ هذا الرجل أخذ يبلّث الدعوة الإسلامية على مذهب المالكية ، ولكنه لم يلبث أن وجد سياسة الوعظ لا تجدى ، فأوى إلى رباط في جزيرة نائية في مصب السنغال ، وعاش عيشة الزهد والتقشف . وتسارعت إليه الصفوة ، ثم زاد أتباعه من المرابطين ، وعكفوا على الرياضة الروحية والبدنية ، وتعلم الإسلام الصحيح والقول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بلسانهم أضعف الإيمان بل بأيديهم وأسلحتهم علما منهم يأت هذا هو النهج السوي لإصلاح حال الطوارق وجمع شملهم .

وشن عبد الله بن ياسين حرباً على غانة في الجنوب واشتبك مع بقيتها في قتال عنيف انتهى بدخوله مدينة أودغشت حالفه التكرور في هذا الجهاد بعد أن حسن إسلامهم .

ثم اندفعت موجة من جماعات المرابطين إلى المغرب الأقصى أشبه باندفاع سلاجقة إلى بغداد ، وذلك لتخليص البلاد من عبث الزناتية وبغيهم وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بينهم .

ثم عبر المرابطون جميعاً البحر إلى الأندلس ، مثلما اندفع السلاجقة إلى آسيا الصغرى ، وأحرز زعيمهم يوسف بن تاشفين النصر المعروف في معركة الزلاقة ، عام ٥٤٧٩ هـ .

ولم يغفل المرابطون عن الجنوب كما لم يغفل السلاجقة عن ما وراء النهر فكان الأمير الشرعي أبو بكر بن عمر يقود المجاهدين في الجنوب ، وقد استطاع بعد جهاد مستمر أكثر من خمس عشر سنة أن يستولى على البقية الباقية من غانة وأن يضمها إلى دولة المرابطين الشاسعة ومات في ميدان المعركة ودفن هناك وانتهت غانة من الوجود التاريخي في غرب إفريقيا .

وقطع المرابطون بهذا كله شوطاً بعيداً في إكساب غرب إفريقيا صبغته الإسلامية . إذ انقسخ المجال أمام الطوارق لمزيد من الهجرات والاندفاعات ، تحت علم المرابطين ، فانتشروا صوب الشرق على حافة المنطقة شبه الاستوائية ، مارين بمنحني النيجر شمال نيجيريا الحالية ، عبر مدن تشاده ثم بلاد الكانم والبرنو ودارفور .

وتركت هذه الحركات أنراً عظيماً في انتشار الإسلام بين أهل البلاد الأصليين ، فضلاً عن جميع الشعوب المكونة لغرب إفريقيا . وهكذا أسلم في عصر سيادة المرابطين السنغى والماندى والتكرور والسير والحوصا وغيرهم .

وأسلم ملوك غانة وأخلصوا في إسلامهم ، وعملوا بدورهم على متابعة الجهاد ونشر الإسلام بوسائلهم ، وتحولت غالبية الغانيين إلى الإسلام . وقام دعاة المرابطين بنشر الإسلام في المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر ، بل نشروا الإسلام على ضفاف السنغال ، وأسلم شعب التكرور والماندنجو ، أما الشعوب التي لم تذن فأنهارت ما إلى الجنوب أو إلى الغرب .

وأصبح شطر كبير من غرب إفريقيا جزءاً من إمبراطورية المرابطين الذين جمعوا بين الأندلس والمغرب وغرب إفريقيا في وحدة سياسية واحدة ، وكان لأمرهم ، واسمه أمير المسلمين نائب في الأندلس ، وأكثر من نائب في المغرب ، ويخيل إلى أنه كان لهم نائب في مدينة أودغشت ، وكان أولئك النواب يعيشون في مقاطعاتهم كأنهم الملوك .

وفي ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة إلى غرب إفريقيا من مدارس المغرب والأندلس . وفي عهدهم تم أعظم مجهود في الميدان الثقافي في تاريخ غرب إفريقيا ، حينما أسست مدينة تنبكت التي أضحت حاضرة الثقافة العربية هناك ، وأدت نفس الدور الذي أدته القيروان في تونس وفاس في المغرب الأقصى .

وتأسست مدينة تنبكت في آخر القرن الخامس الهجري ، فيذكر السعدى

مؤلف تاريخ السودان أن الطوارق هم الذين اختطوا هذه المدينة. إذ كانوا يصيفون على ضفاف النيجير عند موقع المدينة ثم يرحلون في الخريف إلى أوطانهم، ثم استقر بهم المقام على مقربة في عهد دولة المرابطين، بحيث نشأت المدينة نهائياً، وأضحت سوقاً هامة يؤمها التجار بطريق النهر وتصل إليها، القوافل عن طريق مراكش. وسرعان ما أقتنى العلماء أثر التجار، فشحصوا إليها من المغرب الأقصى والأندلس، ومن مصر وغدامس وتوات. وبنى بها المسجد الجامع والمساكن والأسواق يقول السعدي في وصفهما (ص ٢١) «مادنتها عبادة الأوثان، ولا مسجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والصالحين».

وامتد الإسلام إلى مدينة أخرى، كان لها في تاريخ الإسلام والثقافة العربية مثل ما لتنبكت، وهي مدينة جنى التي أسلم أهلها في القرن السادس، وأما العلماء والفقهاء. ويذكر السعدي أنه كان بهذه المدينة أكثر من أربعة آلاف من المشتغلين بالعلم.

وقبل منتصف القرن الثاني عشر، وفي ١١٤٥ م على وجه التحديد، شهد المغرب تطوراً آخر قدر له أن يزيد حركة المرابطين تأصلاً ورسوخاً، قامت دولة الموحدين على أنقاض نفوذ المرابطين في المغرب والأندلس، فكان هذا أشبه بقيام دولة المماليك المندفعة صوب النوبة والسودان، ذلك أن ازداد ضغط الموحدين على قبائل الطوارق، وتدفعت الهجرات إلى المنطقة على نطاق أوسع فهاجرت القبائل التي تكونت منها شعوب الحوصا إلى واحة أير، ثم اندفعت إلى الجنوب مكونة إمارات الحوصا في شمال نيجيريا، كما اندفعت قبائل أخرى صوب بلاد الكانم والبرنوب، أو صوب دارفور.

وأدى هذا إلى مزيد من الاختلاط إذ كانت القبائل المهاجرة حتى ذلك الوقت تحيا حياة مستقلة، وتتخذ الطابع الحربي محافظة على كيائها وكان اعتمادها على الخيل يجعل نطاق أعمالها العسكرية واسعاً شاسعاً، حتى إذا كان عصر الموحدين بدأ الاختلاط التدريجي عن طريق الزواج، ونشأت طبقة جديدة من المولدين، وأحبت أن تستقل بشأنها بعد إسلامها، فأستت الإمبراطوريات، بعد أن تعلمت من سادة الأمم فتونهم العسكرية ونظمهم وتقاليدهم لاجتماعية والدينية.

كانت الظاهرة الجديدة نشأة دويلات إسلامية جديدة على أكتاف جماعات المولدين ، ولم يكن معنى هذا استبعاد نفوذ الطوارق نهائياً ، لأنهم ظلوا العامل المؤثر الفعال في تاريخ البلاد ، فكانوا مستشاري الملوك ووزراءهم وقوادهم ، وأدت الدويلات التي ظهرت في هذه المنطقة دوراً واضحاً في تاريخ البلاد ، فكان ملوكها يعنون أكثر ما يعنون بالخروج إلى مكة للحج ، في مواكب وفق رسوم معينة ، كما حرصت كل دويلة منها على تأكيد روح الأخوة الإسلامية ، عن طريق الاتصال بمصر المملوكية ، أو بمراكش في عهد الشرفاء . وعملت كل هذه الدويلات على تشجيع اللغة العربية ، وحماية الثقافة ، وإيفاد الطلاب واستقدام الأساتذة ، كما التزمت سياسة الجهاد بأكبر روح الإسلامية التي غلبت عليهم ، ولذا نشأت في كنفهم أنماط من الحضارة الإسلامية متأثرة بعاداتهم ورسومهم وتقاليدهم القديمة .

ومن هذه الإمبراطوريات التي نهضت وقتذاك إمبراطورية مالي وهي التي أسسها شعب الماندينجو الذي أسلم على يد المرابطين وبلغت هذه الإمبراطورية إلى ذروة التوسع في عهد منسى موسى (١٣٠٧ — ١٣٢٢) ، إذ نشر نفوذه شرقاً حتى بحيرة شاد ، ودخلت منطقة السافانا كلها في ملكه ، وكانت له مراسلات وصلات مع مصر المملوكية . وزار ابن بطوطة هذه البلاد في القرن الرابع عشر ، ورأى فيها حياة إسلامية أصيلة ، وعلماء من كل بلد إسلامي ، كما زارها ليو الإفريقي في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فوجد حياة إسلامية في غاية الازدهار ، ومن هذه الإمبراطوريات كذلك إمبراطورية سنغاي وصلت إلى قمة التوسع في عهد ملكها إسكى محمد عام ١٥١٣ ، ونهضت بنفس الدور الذي لعبه المالايون من قبل .

وكان من أنرجهود الطوارق عبر هذا التاريخ الطويل انطبعت أن الثقافة العربية في المنطقة بطابع مغربي واضح ، إذ كانت المالكية مذهب الناس ، والمدارس مغربية بحتة ، والكتب المتداولة هي كتب عياض وسحنون وموطأ مالك ، والقلم هو القلم المغربي . أي أن الثقافة كانت في ثقافة مغربية على أرض إفريقية .

دولة سلاطين الممالك الأتراك في الهند

واوجه الشبه بينها وبين دولة الممالك الأولى في مصر

على الرغم من أن الولاة المسلمين بالسند الهندية زمن الأيوبيين والعباسيين لم يحاولوا توسيع أراضي ولايتهم ، حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، فإنهم عملوا على التوسع فيما بعد في إقليم أفغانستان الممتد على طول التخوم الهندية الشمالية الغربية ، حيث قامت في إقليم غزنة في قلب جبال سليمان دولة تركية فتية ، وهي الدولة الغزنوية (٩٦٢ — ١١٨٦ م = ٣٥١ — ٥٨٢ هـ) . وأول توسع قامت به الدولة الغزنوية في الهند كان في عهد ملكها ناصر الدين سبكتكين ، وهو الذي فتح مدينتي بست وقصدار سنة ٩٧٨ م ، وهزم جيوش جييال صاحب إقليم لاهور ، وشتت شملهم على حدود البنجاب ، ثم مالبت أن أسر جييال ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد له بالجزية .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الغزنوي (٩٩٨ — ١٠٣٠ م) الذي غزا بلاد الهند اثنتي عشرة مرة (١٠٠١ — ١٠٢٤ م) ، مدفوعاً في ذلك بعامل الجهاد الديني ، والرغبة في نشر الإسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع السلطان محمود الغزنوي أن يبسط نفوذه إلى ما وراء كشمير والبنجاب ، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية يحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية .

ويقول وولزلي هييج في هذا الصدد : « نستطيع إلى حد ما أن نعد محمود الغزنوي سلطاناً هندياً خالصاً ، إذ فتح في خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام في ربوع الهند ، وافتتح طريقاً سلكه كثيرون بعده . أما خلفاؤه ، ففنعوا بحكم إقام البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » (١) . بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر .

و كيفما كان الأمر فإن حملات الغزنويين في بلاد الهند ، و اتخاذهم لاهور مقراً لهم ، هي التي مهدت السبيل للسلاطين الغوريين بعدهم ، ثم لخلفاء الغوريين بعد ذلك و خلفائهم من المماليك الأتراك . و أولئك المماليك الأتراك هم الذين أسسوا سلطنة دلهي نشروا نفوذ المسلمين في كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية (١) .

قامت الدولة الغورية (١١٤٨ — ١٢١٥ م = ٥٤٣ — ٦١٣ هـ) على أنقاض الدولة الغزنوية أو السبكتكينية ، وتنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها ، وهو الغور أي جبال بين هراة و غزنة .

واستطاع الغوريون منذ سنة ١١٤٨ م أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا بلاد الغور و الأفغان و الهند . فالدولة الغورية هي ثاني دولة إسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية ، غير أن السلطان محمد بن سام الغوري ، وهو من عظماء ملوك الهند ، لم يقيم في الهند دائماً ، بل كان يقيم في مدينة غزنة عاصمة ملكه ، و صار يحكم الهند عن طريق مملوكه قطب الدين أيبك ، بعد أن قطعه مدينة دلهي . و جلب السلطان محمد الغوري عدداً كبيراً من المماليك الأتراك ، و اعتنى بتربيتهم و إعدادهم لمهمة الغزو و الجهاد . و يؤثر عنه أنه صار كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة إلى ابن يحافظ على ملك دلتة ، من بعده ، أجابه بأن لديه ألوفاً من الأبناء ، و هم مماليكه الأتراك (٢) . و تذكرنا هذه العبارة بعبارة الملك المنصور قلاوون أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر . أكثر هذا السلطان من جلب المماليك الصغار السن و اعتنى بتربيتهم و كان يقول في هذا الصدد « كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به بعد أن ما بين مال و عقار ، و أنا عمرت أسواراً ، و عملت حصوناً مانعة لي و لأولادي و للمسلمين ، و هم المماليك » (٣) .

واستطاع السلطان محمد الغوري بفضل مجهودات مماليكه و على رأسهم

(١) راجع Lane—Poole : Mohammadan Dynasties. p. 284

(٢) أنظر Ibid : Medieval India under Moham. Rule, p 65.

(٣) راجع المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

أبيك (١)، أن يملك جميع البلاد الواقعة شمال جبال فندهيا حتى مصبات نهر الكنج . وارتفع بعض هؤلاء الممالك إلى مناصب الحكم والقيادة ومنهم ، تاج الدين يلدز في غزنة ، وناصر الدين كوباشا في السند، وبختبار في البنغال، ثم قطب الدين أبيك نفسه في دلهي وهو أقوى الجميع نفوذاً. وكان أبيك رجلاً مسلماً متمسكاً بقواعد الإسلام ، ويظهر ذلك بوضوح في معاداته لنظام الطبقات في الهند، ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التي ينص عليها الإسلام . ويروي الأستاذ لين بول أن لأبيك في دلهي مسجداً عظيماً ذا منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدماً ، وهي أطول منارة في العالم ، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وتعرف بمنارة قطب نسبة لاسمه ، وهي محلاة بزخارف ونقوش تمتاز بالطابع العربي والهندي (١) . غير أن وولزلي هايج يرجح بناء هذه المنارة في عهد مملوك أبيك وخليفته على عرش دلهي، وهو السلطان التتمش، الذي بناها فعلاً في سنة ١٢٣١ — ١٢٣٢ م، تكريماً لولي الله الخواجه قطب الدين بختيار كأكبر وهو الذي أقام في غزنة والملتان بعضاً من الوقت ثم استقر أخيراً في دلهي حتى وفاته في ديسمبر سنة ١٢٣٥ م (٢) .

وفي ١٥ مارس سنة ١٢٠٦ م اغتيل السلطان محمد الغوري على ضفاف نهر السند ، بيد أحد غلاة الاسماعيلية ، وبموته اختفت غزنة والغور من التاريخ وظهرت العاصمة الإسلامية دلهي في الهند .

وتوفي أبيك بعد وفاة سيده ببضع سنوات ، إذ انتهى حكمه على هندستان في نوفمبر سنة ١٢١٠ م ، وذلك على أثر سقوطه عن ظهر جواده أثناء

(١) نقل أبيك في حدائقه من تركستان إلى نيسابور حيث بيع إلى والي تلك المدينة . وبعد وفاة سيده بيع ثانية ، واستقر أخيراً في يد محمد الغوري . واستطاع أبيك أن يصل إلى أعلا المناصب، وأن يكسب ثقة سيده بفضل كرمه وسخائه حتى إنه لقب باسم لأقباس أي المانح بالآلاف . وأبيك لفظ تركي معناه أمير قر. راجع Wolseley Haig : Op Vol. III., p. 41.

(٢) أنظر Lane-Poole : Medieval India under Mohammadan Rule. p. 67—69.

لعبه الكرة أو البولو الفارسية. وسادت القوضى بعد موت أيبك مدة من تولى الملك فيها ابن غير كفؤ يدعى أرام شاه ، وانتهى الأمر بأن خلعه أحد مماليك أبيه البارزين وهو شمس الدين التتمش ، واستأثر بعرش دلهي لنفسه (١). ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك بالهند ، وفي عصر ذلك السلطان ظهور الخطر المغولي تحت زعامة جنكيزخان الذي هدد العالم الآسيوي بأجمعه . وكان أول نذير لاقترب هذا الخطر فرار بلذرحا كم غزنة إلى داخل الهند من ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة أمام الجيوش المغولية .

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، إذ أحدثت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه في الشمال ، أمثال يلدز و كوباشا ، وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات سلفه أيبك شمال جبال فندهيا (٢) .

وبلغ فوز التتمش أقصاه عندما اعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله ، وبعث له بالعقد والخلع التقليدي في ٨ فبراير سنة ١٢٢٩ م. فأصبح التتمش بذلك أول ملوك المسلمين الذين تسلموا مثل هذا التقليد في الهند ، ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان التتمش نقوداً فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي

(١) نجد هذه الظاهرة في طول تاريخ المماليك في مصر ، حيث كان السلطان المملوكي يهتم بتولية ابنه من بعده ، ويحصل على موافقة أمراء المماليك بذلك ، فإذا توفي السلطان أقيم ابنه في السلطنة فعلاً ، حسبما سبق الاتفاق عليه ، ويظل الابن سلطاناً مدة تطول أو تقصر ، وهي على كل حال لا تزيد يوماً واحداً عن المدة التي يكون أمراء المماليك ، استغرقوها في مؤامراتهم عن تكون له السلطنة . فإذا تم ذلك خلعوا الابن ، وتولى السلطنة المملوك الأصالح للبقاء ، لأنه لم يكن من المنتظر أن يقبل المماليك أن يكون ابن أحد ملوكهم سلطان عليهم ، وهو لم ينشأ نشأتهم ، انظر المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، حاشية الدكتور محمد مصطفى زيادة .

(٢) استطاع التتمش أن يأسر يلدز ، ويقتله سنة ١٢١٨ م بعد أن طاف به شوارع دلهي . أما كوباشا فقضى على مقاومة السلطان جلال الدين خوارزمشاه وجنوده الخوارزمية سنة ١٢٢١ ، واستقر الخوارزمية في إقليم السند ، ثم رحلوا إلى فارس سنة ١٢٢٤ ، ولم يجد السلطان التتمش صعوبة بعد ذلك في طرد كوباشا من السند ، بعد أن أنهك الخوارزميون قواه ؛ ويقال إن كوباشا غرق في نهر السند انتحاراً أثناء فراره سنة ١٢٢٨ . انظر Camb. Hist. of India, vol. III., p. 52—55

بحوار اسمه . وكان ذلك شيئاً جديداً على نظام العملة الهندية ، إذ كان الغزاة قبل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهندوس ، كما كانت أسماء الغزاة تكتب بحروف هندية في غالب الأحيان . فالتمش يعتبر أول من ضرب نقوداً فضية عربية خالصة في الهند (١) .

وتوفي السلطان ألتتمش سنة ١٢٣٦ ، ولم تكن هناك شخصية أكثر صلاحية للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين التي جلست على عرش دلهي أربع سنوات تقريباً (١٢٣٦ — ١٢٤٠ م) . وكانت هذه السلطانة على قدر كبير من الذكاء ، وحفظت القرآن الكريم وتعلمت الكثير من التعاليم الإسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على إخوتها الذكور ، لانغماسهم في اللهو ، ونادى بها ولىة لعهد . ولما آلت السلطنة إلى وضنة الرتب لم تلبث أن دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر ، وسماها مؤرخو الهند « ملكة دوران بلقيس جهان » (٢) . وبذلت رضية الدين جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم ، وقادت جيشها إلى الحرب على ظهر فيلها . وكان النظام المملوكي في الهند قد تدعمت أركانه على يد أيك ومملوكه التتمش ، الذي ينسب إليه تأسيس فرقة خاصة من الممالك الأتراك عرفت بالأربعين ، فاستأثر أولئك بالنفوذ والثروة بعد موت التتمش ، وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم ، بعد أن قضوا على جميع الأحرار في مختلف الوظائف . وأنف أولئك الممالك من رؤية امرأة على العرش ، ولا سيما بعد أن قربت إليها رجلاً عباسياً — و قيل أفريقياً — كان يشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة ، حاولت السلطانة رضية

(١) انظر Wolseley Haig : Op. cit., p. 54. & Arnold : The Caliphate. p. 86—87. & Lane—Poole : Med. India under Mohammadan Ru'e., p. 73. & Ency. Isl, Art. Illtutmish.

(٢) راجع مقدمة كتاب Blochet : Hist. des Sultans Memlouks. vol. 1., p. 873 (مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) .

الدين قمعها بكل شجاعة ، ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها في ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠ م (١).

في هذا الوقت ظهر المغول في إقليم السند من جديد ، واستولوا على مدينة لاهور في ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٤١ م ، وذبحوا سكانها ، وفرحوا كرها قراقوش إلى دلهي . أصبح الموقف يستدعي ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من جديد ، وهذا مما ساعد على ظهور بهاء الدين بلبان أحد مماليك التتمش .

وحكم بلبان هذا في بادئ الأمر وهو وزير للمدعو ناصر الدين محمود شاه ابن التتمش الذي كان ملكاً متقشفاً متديناً منصرفاً لقراءة القرآن ومجالسة العلماء . وتزوج محمود شاه من ابنة وزيره بلبان سنة ١٢٤٩ م ، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى إزدياد نفوذ بلبان واستثنائه بكل نفوذ في الدولة (٢) . وبعد موت هذا الملك في ٨ فبراير سنة ١٢٦٦ م ، اعتلى بلبان عرش السلطنة وتلقب بغياث الدين (٣) .

وتروى الروايات المعاصرة أن بلبان كان ذا أصل عريق ، وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذي جعله يرحل في حدائته عن تركستان تاركا قبيلته وأصحابه . ثم حدث أن سرق بلبان ويبيع في الهند ، فاشتراه السلطان التتمش . وتضيف الرواية أيضاً أن السلطان التتمش رفض شراء بلبان في بادئ الأمر ، لقصر قامته ودمامته ، فصاح به بلبان « يا سيد العالم ! ولماذا تشتري المماليك الآخرين ؟ » فأجابه ضاحكاً « أشتريهم لأنفسى » فقال بلبان « إذن فاشتريني لله » ، فأجابه التتمش إلى طلبه ، ثم سرعان ما ظهرت مواهبه ، فصار يتدرج حتى اندمج في جماعة الأربعين مملوكاً (٤) .

(١) انظر (Camb Hist. of India, III. p. 606 & Ency-Isl. Art. Ridiya.

(٢) انظر (Camb. Hist. of India., III., p. 67.

(٣) نفس المرجع Ibid. III p. 73.

(٤) راجع (Lane—Poole : Op. cit. p. 81.

اشتهر السلطان بلبان بصفات عسكرية صارمة، وعدالة لا تفرق بين شخص وآخر، وأول عمل اهتم به هو القضاء على طغيان جماعة الأربعين مملوكاً . ومن أمثلة ذلك ما فعله بالأمير بقبق حاكم إحدى المدن ، عندما علم أنه ضرب خادماً له ضرباً مبرحاً أفضى إلى موته ، إذ أمر بلبان بقتل هذا الأمير جلداً ، كما أمر بشنق صاحب أخبار تلك المدينة، لتستره على هذا الحادث . ثم هناك الأمير هايث خان الذي قتل رجلاً بتهمة السكر والعريضة ، فلما بلغ بلبان هذا الخبر ، أمر بجلد هذا الأمير خمسيناً جلدة وإرساله إلى أرملة القتيل في هيئة عبد رقيق ، بحيث يحل لها قتله كما قتل زوجها ، ولم يتخذ هذا الأمير من الموت سوى وساطة بعض إخوانه الذين افتدوه بمبلغ كبير من المال . ولم يتردد بلبان في شنق أحد قاداته ، لفشله في قمع ثورة من الثورات ، ولم تكن هذه العقوبة صلبة تصير هذا القائد في مهمته ، بل لأنه كان على شاكلة بقبق وهايث خان من جماعة المالك الأربعين .

وكان تعيين أصحاب الأخبار في المدن المختلفة ، موضع عناية بلبان واهتمامه الشخصي ، وذلك لأهمية الأعمال التي يقومون بها في كافة أرجاء الدولة ، إذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة ، ولهذا السبب حرص بلبان على أن يجعلهم مستقلين عن سيطرة الولاة المحليين ، خاضعين لسلطانه المباشر ، كما حرص على أن يتوخى الدقة والحذر عند اختيارهم أو ترقيتهم (١)

وتظهر لنا صرامة بلبان وقسوته في السياسة التي اتبعها للضرب على أيدي عصبات المجرمين وقطاع الطرق الذين انبثوا في المسالك والطرق الموصلة بين دلهي والبنغال يعيشون فساداً وتخريباً . وقسم بلبان تلك الجهات إلى مناطق ، وخصص لكل منطقة قائداً من قاداته ثم حمل عليها فأزال منها الغابات التي كانت وكراً لتلك العصبات ، وشيد فيها القلاع الحصينة المزودة بالأسلحة والذخائر والجنود الأفغانيين . وبهذه الإجراءات الحاسمة استتب الأمن في تلك الجهات وعاد الإتصال بين دلهي والبنغال .

وتتجلى صرامة بلبان أيضاً في سياسة العنف التي اتبعها في قمع الثورات التي

قامت في عهده، ونخص بالذكور منها ثورة لأمر طغرل حاكم البنغال سنة ١٢٧٩م، وهي الثورة التي قضى عليها بلبان قضاء تاماً، وعلق رؤوس الثوار على جانبي طريق طويل، وصرح قائلاً بأن بلاد البنغال لا تستطيع بعد ذلك أن تثور على دلهي بأي حال من الأحوال.

وتجلبت مواهب بلبان في انتصاره على قوات المغول التي اقتحمت إقليم السند سنة ١٢٧٩م، فاستحق بذلك لقب «القي خان» أي الأمير القوي. وترجع انتصارات بلبان على المغول إلى الاستعدادات العظيمة التي قام بها لدفع ذلك الخطر الداهم، إذ اهتم بتحصين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر، كما أعد جيشاً قوياً مستعداً لصده أي هجوم مغولي خاطف في أية لحظة حتى لا يعرض دلهي لما كان من مصير بغداد.

وفي ٩ مارس سنة ١٢٨٥م فقد بلبان ابنه الأكبر محمد خان في واقعة ضد المغول في إقليم الملتان، فحزن عليه حزناً شديداً، ومات بعده بسنتين (١). كان بلبان من أولئك الأشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء، لأن قسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية في الميدان، إذ قضى على جماعة المماليك الأربعة، ونفى كثيراً من ذوي النفوذ في الدولة، سواء من الحكام والأدباء، ومنهم الشاعر أمير خسرو. وكانت كل آماله مركزة في ابنه الأكبر الذي مات في عهده، ولهذا اضطربت شؤون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هي الأسرة الخالجية (٢)، وهي التي استولت على عرش دلهي سنة ١٢٩٠م تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه.

(١) هناك وجه شبه عجيب بين السلطان بلبان والسلطان قطز، ثالث سلاطين الدولة المملوكية الأولى في مصر، فـ كلاهما ينحدر من أصل عريق، وكلاهما بيع ببيع الرقيق، فاشترى الأول السلطان الشمس، واشترى الثاني السلطان أيبك التبركمانى. ثم أخذ كل منهما يتدرج في مراتب الرقي حتى استأثر بالملك بعد موت أستاذه. وكلاهما كان متحمساً للجهاد ضد المغول، وقد استطاع كل منهما أن ينقذ بلاده من ذلك الخطر المغولي الداهم الذي اجتاحت بقية العالم الإسلامي فانتصر عاينهم بلبان في السند فانتصر عليهم قطز في فلسطين عند عين جالوت سنة ١٢٦٠.

(٢) ننسب هذه الأسرة الأفغانية إلى بلدة خاليج، وقيل، لأنها تركية الأصل نزلت إلى أفغانستان، وأخذت عن أهلها عاداتهم وطرائقهم. راجع W. Haig : Camb. Hist of India, III. p. 91.

نرى كل ما تقدم أن هناك أوجه شبه عديدة بين دولة المماليك الأتراك في دلهي ودولة المماليك الأولى في القاهرة ، إذ عاصرت كل منهما الأخرى تقريباً عند أن دولة المماليك في الهند قامت سنة ١٢٠٦ م (٦٠٢ هـ) ، أي أربعاً وأربعين سنة قبيل قيام الدولة المملوكية الأولى في مصر ، وظلت تلك الدولة المملوكية الهندية حتى سنة ١٢٩٠ م (٦٨٦ هـ) .

وكان سلاطين هاتين الدولتين من في مصر والهند المماليك الذين جلبوا من أسواق النخاسة ، ربوا تربية عسكرية إسلامية للحرب والجهاد ، ثم تمكنوا بقوة تفوذهم من التدخل في تولية السلاطين وعزلهم ، ثم الاستئثار بالملك لأنفسهم . هذا وكان العنصر التركي هو الغالب على ممالك الدولتين ، ونتج عن ذلك وجود تشابه في الأسماء أمثال أيبك وبلبان وسنقر وقراقوش وبختيار وبقبق وغيرهم . وهدد الخطر المغولي كلا من الدولتين ، ولولا قوة المماليك فيهما ، لاجتاح مصر والهند كما اجتاحت بقية العالم الإسلامي . وشاهدت كلتا الدولتين ظاهرة فريدة من نوعها في العالم الإسلامي ، وهي جلوس ملكتين على عرشيهما ، فعلى عرش دلهي جلست الملكة رضية الدين (١٢٣٦ — ١٢٤٠) ، وجلست شجرة الدر على عرش مصر سنة ١٢٥٠ . وهناك وجه شبه آخر نلمسه في تقرب سلاطين الدولتين للخلافة العباسية (١) ، لأن اعترافاً بهم ورضائاً عنهم سوف يقوى من تفوذهم الأدبي ، ويكسبهم صفة شرعية للحكم ، ويحيطهم بسياج مكين ضد محاولات منافسيهم .

مختار العباري

(١) ظلت دولة المماليك الأتراك في الهند على ولائها للخلافة العباسية في بغداد حتى بعد أن قضى المغول عليها سنة ١٢٥٨ م ، إذ ظل السلطان بلبان ينقش اسم الخليفة المستعصم المقتول على النقود ، ويذكر اسمه في الخطبة من المنابر طوال حتى سنة ١٢٨٧ م وهي سنة وفاة بلبا راجع (Arnold : The Caliphate. p. 87)

obeykanda.com

الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال

في المحيط الهندي وشرق أفريقيا والبحر الأحمر

افتتح الأمير هنري الملاح البرتغالي سنة ١٤٢٠ سلسلة المحاولات الأوربية للكشف الجغرافية ، وكان استيلاء العثمانيين على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ سبباً من الأسباب الإضافية التي أدت إلى ازدياد هذه المحاولات ، لناهضة السيطرة البحرية الإسلامية عموماً . وكان أول عمل لهذا الأمير هو الاستيلاء على ميناء سبته ، واكتشاف المنطقة الواقعة جنوبي إقليم موريتانيا . وتمكن البرتغاليون بذلك من جمع المعلومات عن تجارة العرب وقوافلهم التي تسير بين المغرب وتمبكتو والسنغال ، وحاولوا تحويل هذه التجارة إلى أيديهم . وكانت الأحوال المالية لا تسمح بإرسال أكثر من سفينتين أو ثلاث ، لكشف ساحل أفريقيا الغربي ، ولهذا لم يتقدم البرتغاليون في خطواتهم ، بالرغم من كثرة عدد مشروعاتهم ، إذ لم تصادف حملاتهم في طريقها سوى شواطئ تغطيها الرمال ، وتنعدم فيها الحياة ، كما أنهم لم يجدوا ميناء لدخول سفنهم ، واعتقدوا بذلك أنه لا توجد حياة في الجنوب ، كما تقول الخرافات القديمة . وبعد محاولات ظلت حوالى الثلاثين عاماً وصلت السفن البرتغالية إلى أرض غنية بخضرتها ومزروعاتها وحيواناتها ، وتسيطر عليها مجموعات قوية من الإفريقيين ، فكان هذا الكشف مدعاة لدحض الزاعم القديمة التي توارثها الأوروبيون .

وازداد أمل البرتغاليين في الوصول إلى الهند بعد سنة ١٤٩٧ م ، وهي السنة التي مرت فيها أول سفينة برتغالية على ساحل أفريقيا متجهة نحو الشرق . ووصلت الأخبار إلى الملك عمانويل الأول بوجود موانئ على ساحل أفريقيا ، فجعل النشاط البرتغالي على ساحل أفريقيا الشرقي ضمن مسئوليات موظفي الدولة ، ولذلك لم يسمح لأى فرد بالقيام برحلة نحو الشرق (آسيا) . . . وكان

الملك عمانويل الأول هو الذى يمول هذه الرحلات من الموارد الملكية، أو من أموال القروض، وحاول أن يكون له نصيب الأسد فى التجارة بين أوروبا وآسيا، ما عدا بعض استثناءات قليلة.

ويبدو من الضرورى هنا أن تنتقل إلى موضوع العلاقات بين الدولة العثمانية ودول البحر المتوسط، قبل أن تنتقل إلى موضوع الصراع البرتغالى فى المحيط الهندى والمناطق المجاورة له.

فن المعروف أن جماعات من القراصنة الأوربيين كانوا ينقضون على السفن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط، وتعودوا بيع غنائمهم والحصول على ما يحتاجون إليه من موانئ البندقية على البحر الإدرى وببحر إيجه. وكانت هنالك أيضاً اشتباكات بين جماعات من الجنود المرتزقة، من اليونان والألبان، وبين العثمانيين. وكانت البندقية تخشى وقوع اصطدام بين القوات العثمانية وقواتها، ولذا أصدرت التعليمات إلى ضباط بحريتها بأن يتحملوا المشاق، وألا يفقدوا سيطرتهم على أنفسهم، تحت أى ضغط عثمانى، لأن أية حادثة خطيرة سوف تجلب المآسى للبندقية التى فقدت حينذاك الكثير من نفوذها لدى الباب العالى، وخاصة بعد أن فقدت صديقها إبراهيم باشا الذى أعدم فى عام ١٥٣٦. ورأت البندقية أنه فى حالة وقوع حادث، فإنه سوف يكون من الصعب لديها أن تسترضى السلطان، ووضحت هذه الصعوبة عندما هاجمت سفن بندقية عدداً صغيراً من السفن العثمانية كانت تحمل مبعوثاً من السلطان سليمان إلى البندقية. وقامت القوات العثمانية بتخريب كورفو أخذاً بالثأر، ووجدت البندقية أنه لا أمل فى الوصول إلى اتفاق سلام مع العثمانيين، لذلك رحبت بالدخول فى حلف مع البابا والإمبراطور شارل الخامس، ووقعت الاتفاقية فى ربيع عام ١٥٣٨ م.

وفى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تدافع عن نفوذها فى البحر المتوسط، كان البرتغاليون يثبتون سيطرتهم فى المحيط الهندى، وهو الأمر الذى شكل أخطاراً هددت كيان مصر، لأن البرتغاليين كان همهم الأول

منع التجارة بين الهند والبحر الأحمر والخليج الفارسي العربي ، وتحويل تجارة التوابل والمنتجات الأخرى إلى لشبونه . لذا أرسل السلطان قنصوه الغوري ، مدفوعاً بضرورة المحافظة على تجارة الشرق التي ترد إلى ساحل البحر الأحمر ، أو عن طريق القوافل إلى الموانئ المصرية ، أسطولاً بقيادة الأمير حسين الكردي وأبحر هذا الأسطول في أكتوبر عام ١٥٠٥ م ، وكان قوامه حوالي خمسين سفينة . وبعث السلطان الغوري مع هذا الأسطول عدداً من الصناع والبنائين ، لبناء سور حول ميناء جدة .

وجاء في ذلك الوقت أسطول برتغالي إلى البحر الأحمر ، في محاولة للاتصال بالنجاشي الذي كان معروفاً لدى الأوربيين باسم برسترجون ، وذلك للوصول إلى اتفاق لإعداد حملة مشتركة يشترك فيها ملك فرنسا الذي عليه أن يحتفظ بقوة عسكرية في سواكن ، ثم ملك أسبانيا الذي عليه أن تحتل قواته زيلع ، أما ملك البرتغال فعليه أن يتخذ من مصوع قاعدة لقواته .

وخرج الأسطول البرتغالي من سواكن إلى جدة ، أملاً في الزحف إلى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة . غير أنه لما علم البرتغاليون بوجود الأسطول المصري في جده هربت السفن البرتغالية نحو الجنوب ، ثم إلى ساحل الهند ، وخرج قائد الأسطول المصري إلى سواكن ، ثم سار جنوباً متعقباً السفن البرتغالية إلى أن وصل إلى ساحل الهند ، حيث التقى بالأسطول البرتغالي في ميناء شول على ساحل الهند الغربي . واشتبك الأسطولان في موقعة انتهت بهزيمة البرتغاليين وذلك في صيف عام ١٥٠٨ م . ثم استطاع الأسطول البرتغالي أن يستجمع قواته ، وأن تصل إليه الإمدادات ، فأنزل في العام التالي ١٥٠٩ هزيمة ساحقة بالأسطول المملوكي ، حيث أغرقت جميع سفنه في مياه ديو . ثم فرض البرتغاليون حصاراً قوياً لمنع السفن القادمة من الهند من دخول البحر الأحمر والموانئ العربية ، واستطاعت السفن البرتغالية بهذه العملية أن تعزل موانئ البحر الأحمر وبخاصة جدة وسواكن والسويس ، وأن تمنع وصول التوابل والسلع الأخرى إليها . ولذا ضعف النشاط التجاري في البحر الأحمر ، وهو الأمر الذي دفع تجار الفرنجة إلى أسواق لشبونه بدلاً من

أسواق مصر والشام . واشتدت الأزمة الاقتصادية بسبب ذلك في مصر عام ١٥١٤ م (٩٢٠ هـ) ، وأدت إلى خراب الإسكندرية وجدة ودمياط ، بسبب عدم وصول سفن من الموانئ الشرقية . واستمر الحال على هذا النحو حوالي ستة أعوام ، وباتت الإسكندرية في حالة خراب ، ومرجع ذلك أن عمال الناب في الإسكندرية كانوا يمارسون أعمالهم دون الأخذ بالأمر الواقع ، فصاروا يطالبون التجار بدفع العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنجة والمغاربة من دخول الثغر . وامتنع التجار أيضاً من دخول ميناء جدة ، وآلت إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر ، واشتد الظلم ، وانقطع ورود السلع التي كانت تأتي من أوروبا .

* * *

وعندما وصلت إلى الحبشة أخبار الانتصار البرتغالي على الأسطول المملوكي ، قامت الملكة هيلانة الوصية على ابنها الملك ابنادنقل (١٥٠٨ — ١٥٤٠ م) بمحاولة توطيد العلاقات مع الإمارات الإسلامية في الحبشة ، لفتح طرق التجارة وهو الأمر الذي كان السبب الرئيسي في المشاحنات بين هذه الإمارات والحبشة . وأرسلت الملكة هيلانة البعوث إلى البلدان التي يهملها الأمر ، ومنها مصر ، غير أن هذه المساعي لم تكلل بالنجاح ، فاتجهت الملكة هيلانة نحو الغرب ، وأرسلت مبعوثها متى الارمني (مانيو) إلى نائب الملك البرتغالي الفونسو البوكرك الذي تقابل معه في ميناء ديل الهندية . وطلبت الملكة من ملك البرتغال أن يزوج بناته لأبنائها .

وسافر مبعوث الملكة من الهند إلى لشبونة ، رفقة نائب الملك المشار إليه ، وقابل رجال حكومة البرتغال ، وعاد في عام ١٥٢٠ م ، ومعه سفير برتغالي اسمه دون رود ريجودي ليا . ومات المبعوث الحبشي بعد عودته من البرتغال ، دون يقابل الملكة هيلانة وبقى السفير البرتغالي في الحبشة حوالي خمسة أعوام ، لدراسة خطة تهدف نحو تحويل مجرى النيل ، والقيام بهجوم

على مصر والجزيرة العربية . غير أن هذه الخطة التي فكر البرتغاليون في تنفيذها على أن يشترك معهم ملوك فرنسا وإسبانيا والبرتغال ، كما أشرنا من قبل ، لم يكتب لها النجاح ، لأن البرتغال بعد أن تغلبت مع الحبشة على قوات المسلمين في منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، طالبت الحبشة بالدخول في الكاثوليكية ، أي أن تتبع البابا في روما ، بدلا من تبعيتها للكنيسة المرقسية في مصر . غير أن الشعب الحبشي قاوم هذه الفكرة ، وذهب البرتغاليون من الحبشة .

* * *

واستطاع السلطان قنصوه الغوري بعد غرق الأسطول المملوكي أن ينزل وحدات بحرية جديدة بميناء السويس ، وأرسل الأسطول الجديد تحت إمرة حسين الكردي النائب في جدة ، لمطاردة الأسطول البرتغالي الذي أسرع في الانسحاب من البحر الأحمر إلى الساحل في الهند وأبحر الأسطول المصري إلى المياه الهندية ، غير أنه لم يستطع إنزال هزيمة بالأسطول البرتغالي وطلب قوة من مصر فجاءت إليه قوة بحرية بقيادة الرئيس سليمان العثماني . ولم تتمكن القوات من إنزال هزيمة بالأسطول البرتغالي ، بسبب ما كان للبرتغاليين من قواعد قوية على الشاطئ الهندي . لذا انسحب الأسطول المصري إلى جده ، ونجح فقط في إبعاد خطر دخول البرتغاليين إلى البحر الأحمر . وفي هذه الأثناء دخلت الدولة المملوكية في مرحلتها النهائية ، حيث كانت الأقدار أقوى من عزيمة السلطان الغوري الذي كان كبير الأمل في الانتصار على البرتغاليين ، لو لم يتحرك العثمانيون ضده . وكان الغزو العثماني لمصر مفاجأة أيضاً للفرنجة ، ونخبيا لآمالهم بعد أن نجحوا في حرمان الدولة المملوكية من مصدر ثرائها وقوتها ومناعتها .

والحق أن هذه نقطة جديرة بالوقوف عندها ، فالسلطان العثماني كان يعلم بنشاط مصر في محاربة النفوذ البرتغالي ، وبما يبته الأوربيون لمصر ، فبدلا من

مساندة السلطان العثماني لمصر حتى تتغلب على أزمته، أنزل بها ضرباً قاسماً أضاعت معها جهودها في المحيط الهندي والبحر الأحمر، ولم تستطع الدولة العثمانية من مواصلة نشاط مصر في تلك المناطق إلا بعد حوالي عشرين عاماً، استطاع البرتغاليون خلالها من تقوية مراكزهم. وجاء الأسطول العثماني، ولم يكن في تصميمه ما يجعله قادراً على الملاحة في المحيط الهندي لأنه بنى على تصميمات السفن للملاحة في البحر المتوسط.

* * *

وحاول السلطان سليم العثماني بعد دخوله مصر إرسال قوة بحرية إلى المحيط الهندي، لحماية البحر الأحمر والخليج العربي من نشاط البرتغاليين، وأنشأ لهذا الغرض ترسانة في السويس وعهد إلى كبير وزرائه، إبراهيم باشا بتنظيمها وأرسل السلطات، في عام ١٥٢٥م قطعاً بحرية إلى اليمن لبسط النفوذ العثماني عليها، وبعد دخول العراق تحت سيطرة الحكم العثماني نقلت الأخشاب لبناء أسطول كبير للقيام بإغارة بحرية على والمراكز البرتغالية في المحيط الهندي. وتم بناء الأسطول العثماني عام ١٥٤١م، وكان بحارته من رعايا البندقية. واحتل العثمانيون ميناء عدن وبعد ذلك بسنوات قليلة قام قائد برتغالي اسمه استيفانو — دي — جاما بغزوة جريئة على ميناء السويس، وذلك في عام ١٥٤١م واتصل البرتغاليون بالحبشة، وقدموا لهم مساعدات عسكرية في حربهم ضد الإمام أحمد قرين الذي قدمت له الدولة العثمانية قوة من رجالها، غير أن هذه القوة انسحبت بعد الانتصار الذي أحرزته قوات الإمام، وظهر البرتغاليون مع الحبش، فكانت لهم الغلبة على جيش الإمام في عام ١٥٤٨م.

* * *

والمعروف أن البرتغاليين جاءوا إلى المحيط الهندي وقلوبهم مليئة حقداً على المسلمين، وفي عزمهم اقتلاع النفوذ الإسلامي من المنطقة باجمعها، واليخالف مع الحكام المحليين على ذلك السعي. ومن ذلك أن الحملة البرتغالية الأولى عادت إلى البرتغال، وحملت معها نماذج من السلع الآسيوية، كما نقلت إلى الملك عمانوئيل

أن سكان المبار من المسيحيين على مذهب هرطقي . وعلى ضوء هذه المعلومات الخاصة بالعقائد أراد الملك أن يجتذب إليه ملك الهند الذي كان يعرف بالساموري، للعمل ضد المسلمين. وقامت الحملة البرتغالية الثانية — وكانت أكبر من الحملة الأولى — مكونة من ثلاثة عشر مركباً، وعليها ١٥٠٠ رجل. وأعطيت قيادتها إلى بدر والفارس كابرال وكانت الأوامر التي صدرت إليه إقامة محطات تجارية، ووكالة أعمال في قليقوط، وأن ينزل القسس في هذه الأماكن لتعريف الأهالي بالمسيحية الصحيحة، كما يعلمها البرتغاليون . وكان على القائد البرتغالي أن يشحن بضاعته، وبعد ذلك يتحدث إلى الحاكم باتجاه البرتغاليين نحو معاملة المسلمين وذلك بالاعتداء على سفنهم في البحار، وأن يطلب من الحاكم طرد العرب المسلمين من مدينته قليقوط بوصفه حاكماً مسيحياً .

وصل كابرال في شهر سبتمبر سنة ١٥٠٠ إلى قليقوط، ومعه ستة مراكب فقط، وحاول إقامة محطة تجارية في هذه المدينة غير أن المسلمين لم يلبثوا أن دبروا حالة شغب محلية قتل فيها ٤٨ برتغالياً. وخربت مستودعات المحطة التجارية البرتغالية الجديدة ثم أطلق البرتغال نيران مدافعهم على المدينة الموكولة إلى دالميدا وتركوها وساروا إلى كوشين الواقعة جنوب قليقوط، على ساحل الملبار . ووجد كابرال أن حاكم قليقوط لا يدين بالمسيحية بل هو هندوسي، ففشلت بذلك الخطط التي وضعها ملك البرتغال ولم ينجح مبعوثه في مهمته إلا قليلاً، بسبب معارضة العرب . وأرسل الملك عمانويل في عام ١٥٠٢م فاسكو دي جاما إلى الهند للحصول على تعويض عن حوادث عام ١٥٠٠م التي قتل فيها ٤٨ برتغالياً، وخربت في أثناءها الممتلكات البرتغالية . وأرسلت أيضاً بعض قطع بحرية إلى مدخل البحر الأحمر للهجوم على سفن المسلمين. وعين ملك البرتغال في هذه السنة دوق فرانسيسكو في الشرق، وزوده بتعليمات كثيرة، منها إنشاء حصون في كلوه وانجديقا وكانت كلوه مدينة إسلامية معادية للبرتغال . وكان الغرض من إقامة هذه الحصون تزويد السفن البحرية بالمياه العذبة الحصنين على أن يبدأ دوق دالميدا في بناء حصنين آخرين أحدهما في كوشين والثاني في كنورو كانت المهمة الثالثة هي الذهاب إلى مدخل البحر الأحمر، لبناء حصن في موقع مناسب لمنع السفن التي تحمل التوابل من الدخول إلى مصر. وبذا يفقد الهنود أملهم في المتاجرة مع غير البرتغاليين وبعد

الانتهاء من هذه المأموريات كان على دالميدا أن يذهب إلى ساحل الملبار لإقامة حصن في كولام الهندية، وهي مركز تصدير الفلفل وتقع جنوب كوشين وكان على نائب الملك كذلك أن يراقب شحن الفلفل إلى البرتغال وأن يتخذ ما يراه من إجراءات ضد قليقوط، وأن يتعامل في سلام مع راجا كوشين إذا وافق هو على طرد المسلمين . وكان على الميدا أيضاً أن يرسل سفناً برتغالية إلى هرمز في الخليج الفارسي العربي وإلى ساحل الهند — ولا سيما دبول و كوجرات وشول ويتخذ من هذه البلاد قواعد للهجوم على السفن العربية . واشترط الملك البرتغالي في تعليماته أنه في حالة قبول الحكام المسلمين في هذه المدن للبرتغاليين أن يدفعوا أتاوة وأن يسمحوا للسفن البرتغالية بدخول الموانئ لشراء الحاجيات المطلوبة .

واستطاع دالميدا تنفيذ تعليمات بناء الحصون في كلوه وميسه وانجديقا وكونور وكوسين ، وحاول الهجوم على السفن الإسلامية في عام ١٥٠٦ م، غير أنه لم يوفق . ولم يتمكن نائب الملك من بناء الحصن المطلوب عند مدخل البحر الأحمر واستعاض عنه باحتلال جزيرة سقطره التي اختارها لتكون قاعدة للهجوم على السفن التجارية التي تحاول الدخول إلى البحر الأحمر، وتم ذلك في عام ١٥٠٧ . غير أن رفض الفونسو دي البوكيرك قائد السفن البرتغالية رفض إطاعة أوامر نائب الملك وذهب إلى هرمز بدلا من الهند وحاول إقامة حصن هناك لكن مقاومة السكان وهرب بعض البرتغاليين جعلت مهمته عسيرة . وأرسل نائب الملك حملات برتغالية لبناء حصون في سوفاله وموزنبيق .

وبدأت عمليات القرصنة على سفن المسلمين، واستمرت هذه الحركة التي قصد بها اقتلاع جذور النشاط العربي من منطقة المحيط الهندي، واحتكار التجارة في أيدي حكومة البرتغال . ووجد البوكيرك أن هذه العمليات سوف تخلق جواً من عدم الثقة كما أنها لم تدخل إلا ربحاً قليلاً إلى خزانة الدولة ، ووجد أيضاً أن غالبية الغنائم الغالية الثمن يختلسها الضباط والجنود . فكان عليه أن يغير من سياسة البرتغال التي ترمي إلى احتكار التجارة كلية وطرد العرب المسلمين . وقد أخذ بعين الاعتبار في قراره هذا وجود قوات بحرية مصرية وقوات أخرى من سلطنة كوجرات ، ووجد البوكيرك أن الأمل ضعيف في إرضاء العرب لذلك

رأى أنه من الضروري أن يقيم حصوناً في المراكز التجارية الرئيسية، وهي عدن .
 وهرمز . ديو . وجوا . وهذه كانت في فكرته منذ زمن وأضاف إليها مصوع
 الواقعة جنوبى سواكن على ساحل البحر الأحمر وأراد البوكيرك أيضاً أن يجعل حكام
 هذه المراكز من البرتغاليين على أساس أن قيام منشآت برتغالية في هذه المراكز
 عليها حكام من بنى جنسه يخفف الضغط من جانب، الآسيويين ويطلق يدهم في إدارة
 شئونهم التجارية وغيرها . وكان البوكيرك يخشى دخول الأسطول المصرى
 إلى بحر العرب لمقاومة الأسطول البرتغالى لأن دخول الأسطول المصرى
 إلى هذه المياه سيقوى أعداء البرتغال في الهند وغيرها . ووجد البوكيرك أن
 بناء الحصون في المراكز التى سبقت الإشارة إليها سوف يجعل مراكز البرتغال
 في الهند في أمان وسوف يفتح الطريق إلى البحر الأحمر للهجوم على جده ،
 وأراد بذلك أن يحول الصراع على التجارة في المحيط الهندى إلى حرب صليبية
 لأنها في رأيه ضرورة لازمة لحكومة البرتغال ولخدمة المسيحية ورأى
 البوكيرك أن الهندوس والمسيحيين المحليين لا يملكون سوى رأس مال قليل ،
 ولا يستطيع هو تدمير تجارة المسلمين في سرعة لأن المسلمين لهم مال وفير وتخدم
 تجارتهم أعداد كبيرة من السفن . واستقر رأيه على أن التجارة مع الشرق يجب
 أن تكون مع المسلمين الذين كان اشتغالهم بالتجارة بعيد الجذور ، وليس من
 السهل على البرتغاليين اقتلاعهم . وأخذ يفكر في الوسائل التى تساعد على نجاح
 مهمته، ومن هذه الوسائل الاستيلاء على جزء من تجارة المسلمين، وتحويل الجزء الباقي
 عن طريقه مع المراكز التى كانت معدة لإقامة الحصون إلى مراكز تجارية ،
 التجارة إلى البحر الأحمر . نهائياً إلا بعد الحصول على إذن خاص .

واحتل دالبوكيرك مدينة جوا التى أراد أن يجعل منها مركزاً تجارياً للبرتغال
 في آسيا، واحتل بعد ذلك الملقا . ثم انسحبت القوات البرتغالية من جزيرة سقطره،
 لأن دالبوكيرك وجدها ليست بذات فائدة ما، وحاول احتلال عدن، ولكنه فشل .

ودخلت القطر البرتغالية إلى البحر الأحمر، وهو الأمر الذى ترك انطباعاته القوية
 في مصر المملوكية والدولة العثمانية . وحاول دالبوكيرك إنشاء حصن في ميناء ديو
 عن طريق المفاوضة، غير أنه لم ينجح . وعمل في نفس الوقت على إنهاء حالة الحرب

مع قاليقوط التي تولى حكمها سامورى جديد ، بعد مقتل سلفه عن طريق السم بايعاز دالبو كيرك . وأعطى السامورى الجديد للبرتغال إذناً ببناء حصن فى قاليقوط ، كما منحهم حق الاتجار فى الفلفل . وسافر دالبو كيرك بعد ذلك إلى هرمز ، لتقوية النفوذ البرتغالى ، وقرر أن تمتد رحلته إلى البحر الأحمر فى عام ١٥١٦م غير أن ظروف إبعاده عن مركزه وموته حالت دون ذلك .

وفى عهد دالبو كيرك وصل نفوذ البرتغال من الخليج الفارسى العربى إلى الملايو ، واستطاع البرتغاليون أن يكون لهم سلطان ونفوذ سياسى على ساحل الهند الغربى بالقرب من مدن الملقا وهرمز ، كما أنهم استطاعوا بناء الحصون فى المراكز الاستراتيجية وصار بذلك لأسطولهم نفوذ قوى على التجارة ، غير أن دالبو كيرك أغفل أن يجعل النشاط البرتغالى قائماً على كفاية ذاتية من حيث المال والرجال .

ويبدو أن دالبو كيرك بالغ فى تقديره لثروة أرخبيل بلاد الملايو، لأن سياسته هذه شجعت عدداً من مواطنيه على السفر إلى تلك البلاد . وأعطى دالبو كيرك للتجارة أهمية كبرى فى الشؤون البرتغالية ، وهو الأمر الذى جعل البرتغاليون لا يفكرون كثيراً فى منازلة المسلمين . وقرر دالبو كيرك أن بناء الحصون التى اقترحها دالميدا سىكلف مالا كثيراً ، وأنه لا ضرورة لها ، ويقول فى رسالة بعث بها إلى الملك « إن العدد الكبير من الحصون التى نقيمها سيكون له أثره فى إضعاف القوة المحاربة ، واجعل كل الاعتماد على الأسطول ، لأننا إذا لم نكن أقوياء فى البحر فإن كل شئ سوف يكون علينا .

ويبدو أن الأمر الذى دفع دالميدا إلى التفكير فى بناء الحصون هو خوفه من احتمال حدوث كارثة إذا أصيب الأسطول بخسارة . وكان دالميدا يأمل فى المنفعة التى تنجم عن بناء هذه الحصون ، وكان فى حالات تفكيره فى سياسة بلده يريد أن يجعل من هذه الحصون ما يناسب حاجة بضعة آلاف من الرجال وعدد قليل من قطع الأسطول . وبعد وفاة دالبو كيرك بذل خلفاؤه الجهد الكبير لتثبيت ما كسبه هو فى النواحي السياسية والاقتصادية ، وهذا بالرغم من أن أخطاءه كانت عديدة .

وقرر ملك البرتغال احتكار عدد من السلع التجارية ، وجاء في قانون الهند البرتغالية لعام ١٥٢٠م بيان هذه السلع ، وهي الفلفل والزنجبيل والقرفة والدارصيني والقرنفل وجوز الطيب والحرير .

ولم يسمح هذا القانون للمسيحيين والمسلمين أو الهندوس بالتجارة في هذه الأصناف ، دون الحصول على تصريح ملكي ، كما حرم على عدد كبير من موظفي الدولة ممارسة التجارة لحسابهم الخاص . غير أن هذا القانون لم يكن معمولاً به في كثير من الأحوال ، إذ قام البرتغاليون والآسيويون بخرقه ، ولم يكن من المعقول منع المستوطنين من البرتغال من التجارة ، لأن عدداً كبيراً منهم كان يصرف لهم جزء من رواتبهم عينية ، واستمر ذلك حتى السنوات الأخيرة لحكم الملك عمانويل الأول . وبعد وقف صرف جزء من المرتب من السلع على هذا النحو . لم يكن في إمكانيات التاج البرتغالي منع ضباطه من التجارة ، لأن المرتبات كانت قليلة وغير كافية . ودخل الفساد في إيرادات الدولة وهو الأمر الذي جعلها غير قادرة على دفع مرتبات الموظفين ، أي أن المرتبات الضعيفة خلقت الفساد ، وجعلته يستشري ، وسهلت للموظفين ممارسة التجارة التي انتشرت بين الموظفين في منتصف القرن السادس عشر الميلادي .

وأظهر الآسيويون طاعتهم للقانون ، عندما لم يكن هنالك اختيار ، كما أنهم في بعض الحالات تجاهلوا القانون ، أو قدموا الرشوى للسماح لهم بالتجارة . ولم يكن من السهل على حكومة البرتغال إحكام احتكارها بدقة ، وفي منتصف القرن السادس عشر الميلادي أهمل التجار من الآسيويين هذه القوانين ، وأخذوا في نقل التوابل ومنها الفلفل إلى البحر الأحمر . ثم إن مشروع دالبو كيرك الذي طلب من الآسيويين الحصول على تصريح لسفنهم لم يلق اهتماماً ، ولم يكن في مقدور القوات البرتغالية المتغيرة أن تباشر رقابتها على التجارة البحرية . وكان هنالك إحكام للرقابة على بعض موانئ ساحل الهند الغربي ومنطقة هرمز ، ومع ذلك كان التهريب سهلاً .

وتولى شؤون تجارة ملك البرتغال إدارة اسمها بيت الهند في لشبونه ، وكان عمل هذا البيت مراقبة شؤون الإدارة البرتغالية عامة في الشرق . وكانت السفن تذهب في كل عام من لشبونه إلى ساحل الملابار لنقل التوابل للملك ، وكانت السفن تؤجر لهذه السفريات . ومنعت القوانين هذه السفن من قبول الغنائم أو مخالفة أوامر قبطان كل سفينة .

الشاطر بصيلي عبد الجليل

بعض مصادر هذا البحث

ابن أياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور . (طبعة القاهرة ، وجمعية
المستشرقين الألمان) ، خمسة أجزاء .

Axelsson, (Eric) : Portuguese in South - East Africa 1600-1700.
(Johannesburg 1960).

Coupland, (Sir Reginald) : East Africa and its Invaders.
(Oxford, 1938).

Gray, (Sir John): Early Portuguese Missionaries in East Africa.
(London, 1958).

Ibid. History of Zanzibar. (Oxford).

Oliver & Mathew : History of East Africa, Vol I, 1963.

Serjeant, (R.B) : The Portuguese of the South Arabian Coast,
(Oxford, 1963).

Stigand, (C.H) : The Land of Zinj. (London, 1913).

Strandes, (Justus) : The Portuguese Period in East Africa.
(Nairobi. 1961).

Vambery, (A), The Travels and Adventures of the Turkish
Admiral Sidi Ali Reis, (London, 1899).

الأحوال الاجتماعية والنظم الإدارية في الجزائر

قبل الغزو الفرنسي

من الشائع أن الحكم العثماني عزل ولاياته العربية عن العالم الخارجي ، غير أننا لا نلمس هذه الظاهرة بالنسبة لنيابة الجزائر العثمانية ، لأن نشاطها البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط أوجد بينها وبين أقطار هذا الحوض صلات متعددة الوجوه ، وهي صلات تشمل القسم العربي والقسم الأوربي من الولايات العثمانية على السواء .

ولما كان هذا العصر بالنسبة للأقطار العربية العثمانية عصر خمول فكري ، قلما اهتم فيه الكتاب بالشئون العامة ، فإن أغلب معلوماتنا للأسف تستمد من مصادر أوربية ، أكثرها مكتوب خلال تلك الحقبة العثمانية . فالرحالة الأوربيون بدأوا يقدون إلى الجزائر ويكتبون عنها منذ القرن السادس عشر ، كما أدت الحروب البحرية المتواصلة إلى وقوع عدد من الأوربيين في الأسر بالجزائر ، وتصدى بعض هؤلاء وأولئك للكتابة عنها ، بعد عودتهم إلى بلادهم ، وطبيعى أن تكون كتاباتهم متحيزة ، لأنها تعبر عن سخطهم على أيام الأسر .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر يطالعنا مصدر جديد له قيمة أعظم ، وهو مجموعة تقارير القناصل من مختلف الجنسيات الأجنبية ، وكثير منها منشور . وليس معنى ذلك أننا نفتقد المصادر الوطنية فلا نجد لها ، إذ حفظت بعض سجلات العهد العثماني ، وهي موجودة الآن في مركز أبحاث حوض البحر الأبيض المتوسط الملحق بجامعة إيكس آن بروفانس ، لأن الحكومة الفرنسية حملت معها سجلات الجزائر قبل أن تجلو حديثا عن البلاد .

وترجع أقدم تلك الوثائق إلى ١٥ عاما قبل الاحتلال الفرنسي ، أى إلى عام ١٦٨٠ . ونشر ديفو وغيره من الباحثين مقتطفات من تلك السجلات ، بعد أن ترجموها .

للفرنسية ، وذلك في مجلة Revue Africaine التي كانت تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية في العهد الفرنسي الاستعماري ، ومنها مجموعة عن الغنائم البحرية ، وأخرى عن الأوقاف ، وهذه بالذات تلي أضواء هامة على الحياة الاجتماعية .

والمصدر الجزائري الوحيد الذي تمكنا من العثور عليه ، هو كتاب المرأة لمحمدان خوجة ، وهذا الكتاب نعرفه من خلال ترجمته الفرنسية التي نشرت سنة ١٨٣٣ ، وهو يتناول الأوضاع الاجتماعية الجزائرية ، ليثبت منها أن المجتمع الجزائري أهل لأن يتولى إدارة نفسه بنفسه .

وترتب على كثرة المصادر الأجنبية أن توفرت لدينا معلومات عن العاصمة الجزائرية ، وهي مدينة الجزائر نفسها ، على أننا حاولنا ما استطعنا في هذا المقال أن نوسع الدائرة ، وأن نتحدث عن الأقاليم الجزائرية كذلك ، مع العلم بأننا لم نستطع أن نحقق توازناً بين المعلومات التي توفرت لدينا عن مدينة الجزائر ، وبين المعلومات التي توصلنا إليها فيما يخص الأقاليم .

وكان أهل المدن الجزائرية يمثلون نسبة ضئيلة ، إذا قيسوا بجموع السكان ، وقدرت هذه النسبة بنحو ٦ ٪ . وفيما عدا العاصمة ومدينة قسنطينة لم توجد ببلاد الجزائر مدن هامة ، فوهران لم يزد سكانها عن عشر آلاف ، أما مدينة معسكر التي كانت عاصمة الإقليم الغربي أثناء احتلال الأسبان لهذه المدينة ، فازدهرت بسبب وجود صناعة النسيج بها ، ولا سيما البرانس للرجال ، والحايك للرجال والنساء على السواء .

وهناك مدينة ثالثة في الغرب هي تلمسان ، وكانت هذه المدينة لمدة ثلاث قرون عاصمة لدولة من الدول المغربية الصغيرة ، وهي دولة بوزيان ، لكنها اضمحلت في العهد العثماني ، وإن احتفظت بطابعها كمرکز للثقافة العربية الإسلامية . وظلت هذه المدينة هكذا حتى في عهد الحكم الفرنسي ، إذ قاوم أهلها الغزو الثقافي الأجنبي ما استطاعوا ، ولذا كان الفرنسيون الذين يرغبون في دراسة اللغة العربية أو اللهجة الجزائرية يتوجهون إلى تلمسان . وربما يرجع ذلك إلى أن اللغة العربية كانت تسود وهران ، على حين احتفظ البربر بلغتهم في معظم إقليم قسنطينة ، وخاصة في الشمال ، حيث تقع جبال جرجرة الوعرة وحيث عاش البربر في عزلة عن العالم الخارجي ، وهم يعرفون في الجزائر باسم

القبائل (١)، وفي العهد العثماني تكونت في أقاليم القبائل سلطنات مستقلة استقلالاً فعلياً واسمياً عن عاصمة النيابة، وأطلق بعض الرحالة الأوربيين على القبائل اسم الجبليين. والواقع أن كلمة قبائل تطلق على سكان الجبل دون التقيد بجنس معين، وربما كانت اللغة وطريقة المعيشة أهم مميزات القبائل عن غيرهم من سكان الجزائر. ونظراً إلى طبيعة البلاد الجبلية اشتغل أهل القبائل بالرى وبزراعة الأشجار، وخاصة أشجار الزيتون، على حين اشتغل سكان السهل بزراعة الحبوب.

وكانت قسنطينة تضارع العاصمة من حيث عدد السكان، إذ بلغ عدد سكانها قبيل الغزو الفرنسي ٢٥ ألفاً، وهي تقع على الطريق التجاري بين الجزائر وتونس. ويقوم فيها كثير من ملاك الأراضي الزراعية، وعدد من الطائفة اليهودية التي تشتغل بالتجارة. أما العاصمة التي كانت من أكبر مدن البحر المتوسط في القرن السادس عشر فبلغ عدد سكانها حينذاك نحو ١٠٠ ألف، ثم هبط هذا العدد بالتدريج حتى وصل قبيل الغزو الفرنسي إلى نحو ٣٠ ألفاً. ويفسر الأوربيون هذا التدهور بانقطاع القرصنة، وليس من موضوع هذا المقال أن نناقش ما إذا كانت الحروب البحرية قرصنة أم نوعاً من الحروب الرسمية التي تعارفت عليها الدول في ذلك الوقت. ولكن يجب أن نضيف أن تقدم وسائل الملاحة لدى الدول الأوربية، وتحلف البحرية الجزائرية ابتداءً من القرن الثامن عشر، أدى إلى نقل النشاط التجاري من يد الجزائريين إلى الأوربيين، وإلى التقليل في نفس الوقت من قدرة الأسطول الحربي الجزائري على متابعة نشاطه المألوف.

وفي خارج المدن كان العرب المنتظمون في قبائل، والبربر الذين اختلطوا بالعرب باضطباع لغتهم، فضلاً عن أولئك الذين انعزلوا في الجبال، يشكلون غالبية السكان. أما العثمانيون فعاشوا في معزل عن السكان الوطنيين، وكان شعورهم الطبقي حاداً. وبينما نجد بعض الأسر العثمانية في الشام تتحول إلى أسر وطنية أسرة العظم في دمشق، نلاحظ أن العثمانيون في الجزائر كانوا أشد انعزالاً عن المجتمع الجزائري بالقياس إلى غيرهم من أتراك الأقطار العربية التي خضعت

(١) يكتب بعض المعاصرين هذا اللفظ بالهمزة المتوسطة، ولكننا عدلنا عن هذه التسمية لسببين، وهما أنها ربما تلتبس مع كلمة قبائل جمع قبيلة، وثانياً أن أهل البلاد ينطقون بهذا اللفظ بالياء، كما هنا.

للحكم العثماني . ويدل على ذلك أنهم أولئك العثمانيين المقيمين بالجزائر رفضوا أن يتمتع أبناؤهم الذين من أمهات جزائريات بامتيازات الآباء وولدا شكل أولئك الأبناء طبقة ثانية تعرف باسم القولوغلان .

ويعزى إلى القائد البحري العثماني المشهور عورج وهو مؤسس نيابة الجزائر ، أنه حظر على القولوغلان ارتقا المناصب العليا القاصرة على العثمانيين الخالص فضلا عن تقليد يقضى بأن يتمتع الأب عن التوسط لابنه إذا كان من طبقة القولوغلان . ولذلك حاول القولوغلان القيام بثورة على الحكم العثماني سنة ١٥٨٠ ، إلا أن البيلربك حسن باشا فنزيانوم قمعها ، واضطر القولوغلان إلى اللجوء لدى قبيلة زلاتن البربرية وامتزجوا بها . ومما يسترعى الانتباه أن المجتمع الجزائري تعرض في العهد العثماني للتمييز الطبقي على أساس العنصر . فبينما استعلى العثمانيون الخالص على القولوغلان استعلى هؤلاء بدورهم على السكان الوطنيين الذين لم يتصلوا بالعنصر العثماني أصلا . والشاهد على ذلك رفض قبيلة زلاتن التعاون مع الأمير عبد القادر لمقاومة الفرنسيين ، بحجة أنها تنتمي إلى عنصر أعلى مما اضطر القائد الجزائري إلى تبديدهم سنة ١٨٣٨ . وبينما كان محظوراً على القولوغلان أن يرتفعوا إلى درجة آبائهم ، فتح الباب على مصارعيه أمام الأسرى الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام ، واصطنعوا اللغة التركية لكي يتمتعوا بجميع حقوق العثماني الأصليين . ووصل بعضهم إلى منصب رئاسة الدولة ، مثل علي باشا علوج الإيطالي الأصل ، وحسن باشا فنزيانوا الذي يدل اسمه على أنه ينتمي أصلا إلى البندقية (فينيسيا) ، وكلاهما فاضل منصب البلبا كوية .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو كيف احتفظت هذه الأقلية العنصرية بوضعها ، كطبقة ممتازة حاكمة مدة ثلاثة قرون ، وهي المدة التي استغرقتها الحكم العثماني . وربما يفسر ذلك الوضع بأن العثمانيين قصرُوا مناصب الجيش ومناصب الدولة العليا على أنفسهم ، وهنا يثور سؤال آخر ، وهو كيف كان العنصر العثماني يحدد نفسه للاستمرار في حكم تلك النيابة البعيدة ؟

الجواب على ذلك أنه منذ نشأت النيابة الجزائرية عمد خير الدين إلى استقدام الجند من الأناضول ، وأحيانا من ألبانيا أو كريت ، وكان أتراك الأناضول يتعصبون دائما لبني إقليمتهم . وفي بداية الأمر كان إغراء الحروب البحرية قويا ، فتوافد العثمانيون من تلقاء أنفسهم

إلى بلاد الجزائر . وكانت حكومة النيابة ترسل الدعاة إلى الأناضول ، وخاصة إلى أزمير، لحشد الجنود اللازمين لها، وتدفع لهم أجور السفر أو تبذل لهم الوعود المغرية . ورغم ذلك تناقص عدد العثمانيين في بلاد الجزائر بالتدريج ، فبينما كان متوسط عدد الوافدين سنوياً في القرن الثامن عشر يتراوح ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ انخفض ذلك العدد في المدة ما بين سنة ١٨١٠ و ١٨٢٠ إلى ٢٣٠ ، وفي السنوات العشر التالية إلى ٢٠٠ سنوياً . وكان من المنتظر أن تفقد الهيئة العسكرية العثمانية (الأوجاق) أهميتها ، نتيجة قرار السلطان محمود بحل الإنكشارية سنة ١٨٢٦ ، لولا أن الوقت لم يطل بالنياية الجزائرية العثمانية لتري آثار هذا القرار .

واقصر وجود العثمانيين على مدينة الجزائر، حيث بلغ عددهم نحو أربعة آلاف كلهم من الذكور . وعلى عواصم الأقاليم ، على حين صار للقولو غلان مهمة الحكم في المدن الصغيرة ، فتراهم في تلمسان يعيشون بمعزل عن السكان العرب ، والصورة السائدة لكلمة عرب في الجزائر حينذاك تشبه ذلك المفهوم السائد في مصر، وهي اقتصرها على أبناء القبائل التي تعيش حياة الرعى في الغالب .

أما سكان المدن من غير العثمانيين والقولو غلان، فكانوا يعرفون أنفسهم بالنسبة إلى المدينة التي ينتمون إليها، وأطلق الأوربيون عليهم كلمة مور . وهذه الكلمة محل جدل ، فيقال إنها تحريف عن كلمة مغربي ، ولكن سبق للرومان أن استخدموها لوصف سكان المغرب الأقصى الذي كان يعرف في عهدهم بإقليم موريتانيا، ثم أصبح الإسبان يطلقونها على جميع المسلمين، حتى إن البرتغاليين حينما وصلوا إلى الساحل الإفريقي الشرقي فوجئوا هناك بالمسلمين، وأطلقوا عليهم اسم مور . أما في الفترة التي تعيننا فاصطلح الكتاب على تخصيص هذه الكلمة لوصف السكان الوطنيين في مدن المغرب العربي وحدها، وليس لهذه الكلمة مدلول جنس بل تصف طبقة اجتماعية معينة ، والصفة الأساسية فيها هي سكنى المدن وطريقة الحياة المرفهة التي تحياها، والتي تختلف عن معيشة أهل الريف . وإذا شئنا تعبيراً حديثاً فهي البرجوازية الوطنية، ويدخل في تكوينها عدة أجناس ، وهي العرب والبربر، وبصفة خاصة أبناء المهاجرين من الأندلس في القرن السابع عشر . واتخذت هذه الطبقة من اللغة العربية أساساً لثقافتها، ويبدو أنها أرادت أن تساهم في حركة النهضة الحديثة، فيذكر روزية الذي عاصر الغزو الفرنسي

أن بعض المور في مدينة الجزائر أرسلوا ابنائهم للدراسة في فرنسا ، قبل سنة ١٨٣٠ ، أي قبل الغزو الفرنسي لبلاد الجزائر ، وإلى هؤلاء ينتمى حمدان خوجه الكاتب المشار إليه في هذا صدر المقال .

ويقال إن حمدان كان عضواً في جمعية سياسية تتكون من الطبقة المثقفة ، وتنادى بإقامة حكومة حديثة حرة في الجزائر ، على أن ترتبط ارتباطاً ما بفرنسا ، مقابل إخلاء البلاد (١) . على أن الثقافة السائدة بين الجزائريين في عهد الغزو كانت الثقافة العربية الإسلامية التي لم تتغير معالمها منذ العصور الوسطى ، ولا شك أن هذه الطبقة من الجزائريين هي التي كانت تخرج علماء الدين والقضاة ، لكن لم يفسح المجال أمامها لولاية مناصب إدارية هامة ، بل كان معظم تلك الطبقة يشتغل بالتجارة . وكثيراً ما رحب الجزائريون بتزويج بناتهم من العثمانيين ، لكي يحتضنوا بهم في وقت الاضطرابات السياسية ، لكن رؤساء الجند العثمانيين اعتادوا أن يحذروا الوافدين من الزواج أصلاً ، لأن ذلك يفقدهم كثيراً من الامتيازات ، وخاصة التهاون في الحملات البحرية .

لم يستوطن الجزائريون من الطوائف غير الإسلامية سوى اليهود ، وهم ينقسمون إلى قسمين : أولاً اليهود القدامى الذين ينحدرون من قبائل بربرية ، وهؤلاء اعتنقوا الموسوية في العهود القديمة ، وثانياً اليهود الذين بدأوا يفدون على الجزائر من الأندلس ، نتيجة اضطهاد الحكومة الإسبانية لهم . ثم جاء إلى الجزائر بعض اليهود الذين يقطنون مدن البحر الأبيض المتوسط ، ولا سيما مدينة ليفورن الإيطالية ، وذلك سعيًا وراء الأعمال التجارية المربحة . ويختلف النوع الأول اختلافاً بيناً عن النوع الثاني ، فهو يعيش على نفس طريقة الوطنيين ، ويتكلم لغة عبرية مختلطة بالعربية ، ويعيش في حي خاص تحت ظروف مادية سيئة . أما اليهود الوافدون فكانوا يتكلمون معظم لغات البحر الأبيض المتوسط ، وكثير منهم حصل على ثراء كبير ، إلا أنهم كانوا يخفون هذا الثراء ، فتبدو منازلهم من الخارج متواضعة . وكان أفضل مورد للكسب بالنسبة لليهود جميعاً ، هو شراء الغنائم البحرية ، وإعادة بيعها في الأسواق الأوربية ، أو التوسط في عمليات افتداء الأسرى .

وفي نهاية القرن الثامن عشر اكتسبت أسرتان يهوديتان تفوذاً اقتصادياً هائلاً في الجزائر ، نتيجة الوساطة بينها وبين فرنسا في تجارة الحبوب ، وهاتان

(١) نشر أوجيرون نص خطاب وجهه أحد أعيان الجزائر إلى الحاكم برترين سنة ١٨٣٢ ، وهذا الخطاب باقٍ ضوئاً على مدى الوعي السياسي في الجزائر في ذلك الوقت .

الأسرتان هما أسرة بكرى وأسرة بوزيناش. وكان التجار اليهود يبيعون منتجات الجزائر في أوروبا بأربعة أضعافها تقريبا، كما كانوا يستغلون فرصة الجهل، ويبيعون مستحدثات الصناعة الأوربية إلى أعيان الجزائريين بأسعار خيالية. فيروى أن أحدهم باع جوهرة لبأى قسنطينة بثلاثة ملايين من القروش، مع أن ثمنها الفعلي ثلاثون ألفاً. وبالإضافة إلى ذلك عرض التجار اليهود على الدايات أن يستثمروا لهم رؤوس أموالهم، ولذا اكتسبوا لديهم نفوذاً كبيراً، وخاصة في عهد الداي مصطفى (١٧٩٨ - ١٨٠٥). ولما كان اليهود هم الذين توسطوا في عمليات بيع القمح إلى فرنسا إبان عهد الثورة الفرنسية، كان طبعاً أن يحملهم الأهالي مسئولية المجاعة التي حلت بالبلاد سنة ١٨٠٥. وفي ذلك العام قتل أحد الجنود العثمانيين ناتالى بوزيناش، وهو يهتف بحياة ملك الجزائر. وبعد ذلك الحادث أخذ المليون اليهود يغادرون البلاد، أما الفقراء منهم فازدادت أحوالهم سوءاً. وكان يهود ليفورن يتمتعون أحياناً بحماية القنصل الفرنسي، أما الغالبية فكانت تخضع لحكومة النيابة التي فرضت عليهم قيوداً في بناء المساكن، وفي الزى وفي التجوال في الشوارع ليلاً. ومع ذلك كانت نسبتهم السكانية كبيرة في العاصمة، إذ قدروا بنحو خمسة آلاف في أوائل القرن التاسع عشر. ويرأس الطائفة شخص واحد يدعى المقدم، ويتولى جمع الضرائب وتقديمها للحكومة، أما في شئون الأحوال الشخصية، فكان اليهود يتمتعون باستقلال قضائى تحت إشراف الربانة.

كانت هذه الطوائف الجزائرية التي تحدثنا عنها وهى أهل المدينة الوطنيون من المور والعمانيين والقولوغلان واليهود، هى العناصر الأساسية التي تمتلك مساكن أو أحياء خاصة تستقر فيها.

أما الطوائف الأخرى فتعتبر وافدة، وتسكن إما في الفنادق أو خارج أسوار المدينة. ومن هذه الطوائف الميزايون، وهم سكان واحات الميزاب الواقعة في الصحراء الكبرى، ويشتهرون باعتناق المذهب الإباضى، ويعتبرون من أنشط أهل الجزائر في الأعمال التجارية. لذا تردد الميزايون على العاصمة، لينقلوا إليها منتجات أفريقيا الاستوائية، ويتبادلوها هناك مع ما يجدونه من أدوات الحضارة الحديثة، ثم يعودون بها لتوزيعها في أفريقيا الوسطى.

ومنحتهم حكومة النيابة احتكار بعض الحرف، كالجزارة وإنشاء

الحمامات، وتخصص أهل بسكرة في حرفة الجمالين، بينما اشتهر الوافدون من بلاد القبائل بتجارة زيت الزيتون الذي يذبت شجرة في بلادهم .

ولكى نستكمل الصورة عن أنواع السكان، لابد وأن نشير إلى الأسرى المسيحيين الذين تردد ذكرهم في هذا المقال، فقد وصل عددهم حسب تقرير الرحالة في القرن السادس عشر إلى ثلاثين ألفاً، وهي نسبة عالية إذا قيسَت بمجموع سكان العاصمة . لكن يجدر بنا قبل التحدث عن هذه الطبقة أن ننوه بموضوع هام، وهو وجود أعداد هائلة من المغاربة أسرى في المدن الأوربية، حتى إن ليفون صارت سوقاً لبيع أسرى المسلمين، ومركزاً للمساومة على اقتنائهم . لكن أولئك الأسرى المغاربة لم يجدوا الأدباء والكتاب الذين يتحدثون عنهم طويلاً، ويصورون حياة البؤس التي كانوا يعيشونها في المراكب الأوربية، إذ كانوا يستخرون في الغالب لأعمال التجديف، ومع ذلك فإننا لم نعد تماماً الوثائق الجزائرية التي تشير إلى محاولات حكومة النيابة لإفداء هؤلاء الأسرى .

ونشر أحد المستشرقين الإسبان رسائل متبادلة بين حكومة الجزائر ومدريد، بشأن افتداء رئيس من أهم رؤساء البحرية الجزائرية كان أسيراً بجزيرة مينورقة سنة ١٦٩١، واسمه بيبي . ويلاحظ أن كثيراً من المعاهدات التي عقدتها حكومة النيابة مع الدول الأوربية احتوت على بند خاص بتخليص الأسرى، بل إن المادة الأولى من المعاهدة الفرنسية الجزائرية سنة ١٦٢٨ كانت مخصصة لهذا الموضوع . وتكشف لنا سجلات الأوقاف عن كثير من الاتقياء كانوا يعتبرون أن من أهم أعمال البر التي تستحق تخصيص الحبوس من أجلها افتداء أسرى المسلمين المغاربة في أوروبا . غير أن الجزائر افتقدت شاعراً مشهوراً مثل سرفانتيز الإسباني الذي أعطى لحياة الأسرى في الجزائر الصورة المؤلمة التي رسخت في أذهان الأوربيين، وذلك لأن الحظ شاذ لم يلقى في بعض الوقت في سجون النيابة، ولا شك أن الصورة التي أعطاها سرفانتيز أو غيره من الرحالة، أو ممثلي الطوائف الدينية التي تخصص بعضها في مسألة افتكاك الأسرى، كانت تنطوي على كثير من المبالغة والدعاية، استدراكاً لعطف المحسنين بأنوارهم من ذلك جيوبهم المستعارة قبايلهم .

على أن التاريخ حفظ لنا بعض الشهادات الأخرى الأقرب إلى تصوير الواقع ، وهي واردة أيضاً عن مصادر أوروبية . فيذكر القنصل الأمريكي شار الذي عاش في الجزائر أوائل القرن التاسع عشر ، أنه كان يرى الأسرى وهم يتجولون بحرية في أزقة المدينة ، وخاصة عند حى الميناء بعد الظهر أى ساعة العودة من العمل ، وكثيراً ما كان هذا العمل فرصة للأسير لكي يكسب فديته بيده ، ويستطيع بعد دفعها أن يعود إلى بلاده . كذلك كانت عقيدة الأسرى موضع احترام كامل وأقيم هيكل مسجد داخل السجن لكي يتمكن الأسرى من تأدية الصلاة ، كما كان يسمح للرهبان بأن يتصلوا بهم كيفما شاءوا . بل إن حكومه النيابة اعتبرت يوم الأحد عطلة بالنسبة لهم ، وهذا يؤكد لنا أن حالات اعتناق الإسلام التي تردت بين الأسرى لم يكن الدافع إليها الاضطهاد ، بل الرغبة في الوصول إلى مركز مرموق في الجزائر كما أشرنا من قبل .

وفي عهد قوة النيابة كان الأسرى المسيحيون ينتمون إلى مختلف الجنسيات الأوروبية ، أما في القرن الثامن عشر فقد صارت أغليتهم من الإسبان ، لأن كلا من بريطانيا وفرنسا ارتبطت بمعاهدات صداقة مع الجزائر ، بينما كانت أسبانيا من أكثر الدول عداءاً للنيابة لاحتلالها ميناء وهران ، ولأنها رفضت أن تدخل في معاهدة لتنظيم التمثيل القنصلي قبل سنة ١٨٠٢ . وبعد هذا التاريخ صارت غالبية الأسرى في أوائل القرن التاسع عشر من نابلي ، وغيرها من الدويلات الإيطالية ، ومن ثم يتضح لنا أن عملية الأسر لم تكن نتيجة قرصنة فردية ، بل كانت تتبع حالات الحرب أو الصلح بين النيابة ومختلف الدول الأوروبية .

وفي سنة ١٨١٦ هاجم أسطول إنجليزي هولندي مشترك مدينة الجزائر ، وأجبر الداي على إطلاق صراح الأسرى الموجودين لديه . ولاحظ القائد البريطاني للأسطول أنه لم يكن بين الأسرى إنجليزي أو فرنسي واحد ، ومع ذلك تدخل القائد ، لكي يحصل على تعهد بالإقلاع عن عادة استرقاق الأسرى المسيحيين ، أو المطالبة بفدية عنهم . وقد نشر أحد الباحثين (١) الفرنسيين مقتطفات من سجلات

(١) انظر ديفو (Devoulx) : في مجلة (Revue Africaine, 1865)

الغنائم التي ترجع إلى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وهي تدل على أن حكومة النياية كانت تسعى للتعرف على شخصيات الأسرى، لتقدير فديتهم حسب مكانة الأسير في المجتمع وهي تتراوح ما بين ٧٠ و ١٠٠ ريال، وإذا كان الأسير ماهراً في حرفة وخاصة صناعة السفن أو هندسة المدافع، أو كان من عمال البناء، حرصت النياية على إستبقائه أطول مدة ممكنة.

ومن المؤكد أن الجزائر كانت تجد صعوبة في اقتداء أسراها. وكثيراً ما أخفت الحكومة الفرنسية الأسرى الجزائريين لديها حتى لا تتعطل سفنها باعتراف كولبير وزير البحرية في عهد لويس الرابع عشر. وحينما استولى نابليون على جزيرة مالطة، ووجد بها ٢٠٠٠ من الأسرى المسلمين، أرسل خطاباً إلى الداي يخبره بأنه لم يجد من بينهم أحداً من رعايا النياية. ومن الصعب تصور صدق هذه الرواية. لأن أكثر الأقطار الإسلامية اصطداماً بفرسان مالطة كانت هي نياية الجزائر.

وصف العاصمة الجزائرية كان الميناء المنيع الذي بناه خير الدين أصل عظمة مدينة الجزائر وتحولها إلى عاصمة للمغرب الأوسط، وترجع تلك المناعة إلى الموقع الطبيعي، وإلى العمل الهندسي الرائع الذي تفتق عنه ذهن البحار العثماني الشهير، فإن الجزائر القديمة كانت تقع في مواجهة جزيرة صخرية كان يحتلها الإسبان، وقد أقاموا فوقها حصناً. وفي سنة ١٥٢٩ إنزع خير الدين هذا الحصن من الإسبان واستخدم المواد التي تخلفت عن تخطيطه هذا الرصيف لإقامة رصيف ضخم يصل بين الجزيرة الصخرية والساحل، وأصبح بمثابة حاجز أمامي مداخل الميناء. وتبارى حكام الجزائر بعد ذلك في توسيع الرصيف وبنوا له الأبراج العالية التي أقيمت فوقها المدافع.

وفي أثناء السنوات التي ندرسها كان الداخل إلى المدينة الجزائرية يشاهد المحلات التجارية فوق هذا الرصيف، مما يدل على أن مدينة الجزائر كانت إحدى المدن التجارية في حوض المتوسط، وليست وكر قرصنة، كما يصورها الأوربيون. وكان يمثل الحكومة في الميناء الخوجه، وهو يحصل الرسوم عن البضائع وعن السفن أيضاً. واختلفت هذه الرسوم حسب جنسية التجار، فالأوربيون الذين

ينتمون إلى دول لها معاهدات تجارية مع الجزائر يدفعون ٥ ٪ عن قيمة البضائع الواردة إلى البلاد ، والمواطنون الجزائريون يدفعون ١٠ ٪ ، أما اليهود فيحصل منهم ١٢ ٪ . وتدفع السفينة المتوسطة الحجم مقابل الرسو في الميناء مبلغ ١٣٨ فرنكا جديدا أي ١٣ جنيتها مصريا تقريبا .

ويدخل المسافر إلى مدينة الجزائر عن طريق باب الجزيرة الذي يسمى أيضاً باب الجهاد ، واختارت حكومة النيابة هذا الموقع لتضع فيه بعض الآثار الدالة على أمجادها الحربية ، فكان معلقاً على سور المدينة عند هذا الباب علماً لفرسان مالطه ، غنمه الجزائريون في الحروب البحرية ، وعلى الجانب الآخر أجراس كنيسة الوهران التي استردتها حكومة النيابة من الأسبان سنة ١٧٠٨ .

ومثل كثير من المدن الساحلية بنيت مدينة الجزائر على شكل مدرج ، فالقسم الذي يقع حول الميناء يسمى بالحى الأدنى ويقع فيه قصر الجنيته مقر الداي ثم حى القصبة حيث توجد القلعة القديمة ، ويسكنه رؤساء البحر أو أصحاب المراكب الذين يعرفون أيضاً بأهل الطائفة . ويقال إن بعض هؤلاء أقاموا السرايب التي تصل ما بين بيوتهم وبين الميناء ، لتسهل لهم الهرب في حالة اختلافهم مع الداي .

واشتمل الحى الأدنى السوق على الكبير ، والحى اليهودى ، والفنادق التي يسكنها الأجانب وبعض الطوائف الجزائرية الأخرى التي تأتي من خارج العاصمة .

أما الجزء الأعلى من المدينة فيضم في الغالب مساكن الموسرين ، سواء من العثمانيث أم من التجار الوطنيين . وكانت معظم شوارع المدينة ضيقة ومنحدرة نحو البحر ، وهذا الانحدار يسهل وسائل تصريف المياه والقاذورات ، ولكنه يتطلب أحيانا إقامة درج ، مما يجعل وسائل النقل بالعربات مستحيلة . ومع أن العرب كانت معروفة جيداً ، فإنها لم تستخدم كثيراً في النقل ، سواء داخل العاصمة أو بين مدن النيابة المختلفة ، لأن الطرق كانت غير معبدة ، ولذلك فإن وسيلة النقل الشائعة هي الإنسان أو الحيوان .

وقد رت منازل العاصمة بنحو ثمانية آلاف ، ويبدو أن هذا التقدير ينطبق على أيام ازدهارها ، لأنه يدل على زيادة كبيرة فى عدد المساكن ، لو أن سكان العاصمة لم يزيدوا فعلا عن ثلاثين ألفاً قبيل الغزو . ومعظم البيوت موقوفة ، وأهم الأوقاف هى المخصصة للحجاج المغاربة ولفقراء الحرميين . ولما لم تكن هناك أسماء للحارات، مع عدم وجود أرقام للمنازل، فإن حجب الوقف كانت تحتوى على أوصاف تفصيلية للموقع حتى تعرف بالعقار الموقوف .

أما الأحياء السكنية فتحمل أسماء خاصة، وبعضها مستمد من الحرفة الشائعة فى الحى، أو من أسماء أبواب المدينة، وأشهرها باب الواد، وباب عزون . وتفصل بين هذه الأحياء جدران لها أبواب، يقف عليها حراس، ولا يسمح لأحد باجتياز تلك الأبواب ليلاً إلا إذا كان يحمل قنديلاً، ومعظم المدن الإسلامية فى ذلك الوقت كان عدد المساكن فى العاصمة يزيد عن حاجة السكان، فاشتملت المدينة على ١٣ جامعاً كبيراً، أشهرها جامع عبد الرحمن الثعالبي، وهو شفيح المدينة . وكانت مدينة الجزائر محاطة بسورين يفصلهما خندق ، وهناك بابان رئيسيان للخروج منها إلى الأقاليم، وهما باب الواد وباب عزون . وكان الباب الثانى هو بداية الطريق السلطانى الذى يؤدى إلى قسنطينة وإلى مدينة . وعند هذا الباب كانت تنفذ أحكام الإعدام، كما أن أهم الضواحي تقع خلف باب عزون ، وفى تلك الضواحي أنشئت مصانع الطوب والمدابع وغيرها .

النظام الإدارى

منذ سنة ١٦٧١، وإلى أيام الاحتلال الفرنسى، كان يطلق على حاكم النياية العثمانية اسم الداى . وهذه الكلمة الغربية على مصطلحات الإدارة العثمانية تشير كثيراً من التساؤل ، فهناك من يقول إنها مشتقة من لهجة الرؤساء البحريين، وإنها تعنى عندهم الخال . وهناك من يقول أنها محرفة عن كلمة داعى، وهى تدل على رئيس المائة فى مصطلح الجيش العثمانى .

وأطلق الأوربيون على حكومة الجزائر أحياناً اسم المملكة ، وأحياناً اسم النيابة ، وشبهها بعضهم بالجمهورية ، لأن الدايات يختارون بواسطة الجند ، ولا يتوارثون الحكم ، غير أن هذا التشبيه بعيد عن الواقع ، وإذا شئنا اختيار مصطلح حديث لكي نشبه به النظام السائد في الجزائر فهو الأوليغارشي ، أي حكم الطبقة العسكرية الممتازة

وإذا كان الداي حاكماً مستبداً ، نه كان في نفس الوقت عبداً للحامية العثمانية التي تستطيع أن تطيح به لأتفه الأسباب ، كما أن اختيار الدايات كان يأتي في معظم الأحيان نتيجة الصدفة وبدون تقدير للكفاءة . ومن الأدلة على ذلك أن الداي مصطفى (١٧٩٨-١٨٠٥) نشأ كناسا في أزميز ، والداي علي (١٨٠٨-١٨٠٩) كان يعمل مغسلاً للموتى . وإذا كان هناك بعض الدايات الذين استتب لهم الأمر أكثر من ٢٠ عاماً ، فإن معظمهم لم يكن يستقر في الحكم إلا مدة قصيرة . وفي الجزائر قبر مشهور يعرف باسم السبع دايات ، وهو يضم بين جدرانها سبعة من حكام النيابة ، قتلوا جميعاً بعد يوم واحد من وصولهم إلى منصبتهم ، وكان يعد سعيداً ذلك الداي الذي يموت على فراشه . ويتم الانقلاب عادة بواسطة مؤامرة تدبرها فرقة أو أكثر من فرق الحامية ، وتقع في الغالب بسبب تأخير في المرتبات أو المطالبة بزيادتها . ويعبر المتآمرون عن الانقلاب برفع العلم الأحمر على قصر الجنيّة ، ويكون ذلك مؤذناً للجند بأن ينزلوا إلى شوارع المدينة ، ويفعلوا ما يشاءون ، وهنا تكون الفرصة لأعمال السلب والنهب ولذلك يسارع التجار بإقفال محلاتهم .

ولا يشترط أن يتولى قائد الانقلاب منصب الداي ، وكثيراً ما رفض الضباط هذا المنصب خوفاً من النهاية التي تنتظر الدايات . لذلك حدث أن أجبر بعض الدايات بالقوة على قبول رئاسة الحكومة . وحينما يستولى المتآمرون على القصر ، فلا بد أن تنتهي حياة الداي السابق ، ويفضل العثمانيون أن يقتل الداي نفسه بيده ، فيشيرون إليه بشرب السم ، وحينما يتم تنصيب الداي الجديد يعود العلم الأخضر إلى الارتفاع فوق قصر الجنيّة .

وبساعد الداي مجلس يشبه من بعيد مجلس الوزراء ، ويسمى الديوان ، وهو يتألف من ٥ وزراء ، ويسميتهم القناصل الأوربيون القوي ، Les Puissances ، وهم (١) المخزنجي المكلف بحراسة أموال الحكومة

ويسجل الداخل والخارج منها يومياً، ويسلم مفاتيح الخزانة عند الظهر في كل يوم للدائى، فيحفظها عنده حتى صباح اليوم التالى .

(٢) البيت مالجى ، وهو الموكل بصيانة الأوقاف وأموال اليتامى الذين يشرف عليهم أوصياءه ، فضلاً عن أموال الذين ماتوا دون وريث .

(٣) وكيل الخيل، ويختص برعاية أملاك الدولة من الأراضي الزراعية، وذلك بجانب عمله الأصلي، وهو صيانة الخيول اللازمة لقوة الفرسان.

(٤) أغا العرب ، وهو الذى يشرف على شئون قبائل المخزن أى القبائل المتعاونة مع الحكومة، ويعتبر فى نفس الوقت هو المسئول عن الحاميات المربطة فى الأقاليم .

(٥) وكيل الخرج، وكان مسئولاً عن العلاقات الخارجية، وعن الشئون البحرية . وكان الجمع بين الخارجية والبحرية أمراً شائعاً أيضاً فى أوربا حينذاك ، فمثلاً كان كولبير يتولى هاتين الوزارتين فى عهد لويس الرابع عشر .

ويتضح مما سبق أن ثلاثة أو أربعة من الوزارات كانت تختص بالشئون المالية ، ولا غرو فإن مهمة الحكومة الرئيسية كانت جمع المال، سواء بطرق مشروعة أم غير مشروعة، ومن ذلك أن أغا العرب كان يشتغل أيضاً بجمع الضرائب، لأن عمل قبائل المخزن هى تحصيل الضرائب من القبائل الأخرى .

وكان الديوان بمثابة هيئة تنفيذية تجتمع يومياً ، وعرفت مدينة الجزائر نوعين آخرين من الدواوين ، أحدهما مجلس أهل الطائفة (رؤساء البحر)، والآخر المجلس الكبير الذى يعد بمثابة هيئة استشارية تمثل الإدارة والأهالى معاً ، ويضم هذا المجلس عدداً من البلكياشيه ضباط الحامية ، وأربعة من الخوجات الكتبة، ومفتى الخنفية، ومفتى المالكية، وممثلين عن أهل الطائفة .

كانت اللغة الإدارية هى التركية ، مع استخدام اللغة العربية فى بعض الأوامر خلال السنوات الأخيرة من عهد النياية ، لكن اللغة التركية بصفة عامة كانت أكثر شيوعاً لدى حكومة الجزائر منها فى تونس . أما فيما يتعلق بالقضاء والحبوس، فإن اللغة العربية كانت دائماً هى السائدة، وانتشرت

بين التجار والبحارة لغة مختلطة من العربية والإسبانية والفرنسية والإيطالية ، وكانت هذه اللغة معروفة لدى كثيرين من سكان موانئ البحر الأبيض المتوسط . ومن الطريف أن غرفة مرسيليا التجارية وضعت قاموساً لتلك اللغة ، ومنه يتبين أن الإسبانية كانت هي اللغة الغالبة فيها .

الحامية : كانت الحامية العثمانية قليلة العدد ، تراوح بين ٤ و ٦ آلاف ، ويتركز معظمها في العاصمة . أما معظم الحاميات في الأقاليم فتتكون من القولوغلان ، ونحن ندهش أمام استطاعة هذه الحامية الصغيرة أن تسيطر على البلاد ثلاثة قرون كاملة .

وأصغر وحدات الحامية هي الأوجاق ، وهي التي ينتمى أفرادها في عنبر واحد ويتبع كل عنبر اثنان من الخدم وطباخ وانتشر استعمال تعبير أوجاق فصار يشمل الجيش العثماني كله بالجزائر ، ويرأس الحامية شخص يعرف بأغا الانكشارية ، وقد روعي نظام الأقدمية المطلقة في هذا المنصب ، فيتولاه أقدم البلكياشيه لمدة شهرين ، ولذلك كان يعرف أحياناً بذي القمرين ، ثم يحال إلى الاستبداد ليفسح المجال لمن يليه .

ولذلك كان معظم البلكياشيه يصل إلى منصب أغا الانكشارية . وعند وصول الفرنسيين إلى البلاد لوحظ وجود ثمان معسكرات تركية بالعاصمة ولكن الجزائر كانت قد تأثرت بإجراءات السلطان محمود ضد الانكشارية ، فدخلت إلى الجيش عناصر أخرى غير تركية .

وكانت العناصر التي تتكون منها الانكشارية في الجزائر تنتمي إلى الأناضول وإلى ألبانيا أو كريت ، ولذا أصبح من المتوقع حدوث تنافس بين هذه العناصر ، مع أنها كانت جميعاً تشعر بالتضامن أمام العنصر الوطني أو القولوغلان .

وعند وصول الجندي العثماني إلى البلاد كان رؤسائه من الاوداباشية ينصحونه بعدم الزواج ، لأن ذلك يربط مصالح الطبقة العسكرية الممتازة بمجموع الأهالي من المور ، وأثبتت التجربة فعلاً أن العثمانيين المتزوجين من الأهالي يتدخلون عادة لحمايتهم ، وشاءت الصدفة أن يرتفع أحد هؤلاء العثمانيين إلى

منصب الداي ، وهو الداي عمر (١٨١٥ و ١٨١٦) ، وهو الذي سبق له أن توسط لمنع نهب المدينة في إحدى الانقلابات، واستطاع بعد مساومات أن يتفق مع زعماء الانقلاب على تحديد الأماكن التي يجوز فيها النهب ..

بدأ الداي عمر سلسلة من الإصلاحات في نظام الجندية والمالية، غير أن عهده اقترن بكموارث حدثت رغم إرادته، وهي الحملة الأمريكية على الجزائر سنة ١٨١٥ ثم البريطانية في العام التالي وهما الحملتان اللتان نالتا كثيراً من قوّة النيابة. ولذا يقدر أحد قيمة إصلاحات هذا الداي، غير أنه رسم الطريق لخلفائه كي يكملوا العمل الذي بدأه. وفي سبيل ذلك عمد على خوجه (١٨١٧ — ١٨١٨) إلى التخلص من سيطرة الإنكشارية، فنقل مقره من قصر الجنيّنة إلى القصبة، وقمع ثورة الجند بشدة، وقتل ١٥٠٠ من الإنكشارية، وشرع في استخدام القلولوغلان والقبائل لكي يوازن بها طائفة الإنكشارية المتمردة ، غير أن الموت عاجله في الوباء الذي اجتاح البلاد سنة ١٨١٨ ، ولا شك أنه هو الذي مهد السبيل لحسين داي أن يستقر في الحكم بعد ذلك مدة اثني عشر عاماً (١٨١٨ — ١٨٣٠) .

واعتمد حسين داي اعتماداً متزايداً على العنصر الوطني ، وبلغ عدد القبائل في جيش النيابة النظامي سنة ١٨٣٠ ألفين ، كانوا يختارون عادة من قبيلة زواوة ، وصار ذلك الاسم علماً على الجند حتى إن الفرنسيين حينما تابعوا مبدأ استخدام الوطنيين في جيشهم أطلقوا عليهم اسم الزواف وربما لو أمتد العهد بالنيابة لتكونت أسرة حاكمة تذوب في المجتمع الجزائري، كما حدث بالنسبة للأسرة الحسينية في تونس .

كانت الإنكشارية تشكل عبئاً مالياً ضخماً ، إذ أن الحكومة كانت مضطرة إلى دفع المرتبات الكثيرة حتى إلى الذين تركوا منهم الخدمة بحكم السن، وقلما اشتغلت البجالية العثمانية، بالأعمال التجارية لتصرف بذلك عن المعيشة على المرتبات. هذا بالإضافة إلى نفقات نقل الجند من مواطنهم الأصلية. عرفت النيابة صناعة

ضرب المدافع ، ومع ذلك فإن الجيش العثماني هناك لم يكن ذا تأثير فعال، وربما كان الذي ينقصه هو القدرة على المناورة في القتال، ولذا ظل عاجزاً مثلاً أمام قلعة كاف التونسية (١٨٠٦ — ١٨٠٩). مع أنه كان يشكل العبء المالي الأكبر للحكومة، ويضطرها إلى مضاعفة الضرائب، كما سنرى .

كان الداي يدير شؤون العاصمة وسهل النتيجة ، فضلاً عن الشريط الساحلي الذي يمتد أحياناً إلى بلاد القبائل الصغرى شرقاً. أما بقية النيابة فكانت ثلاثة أقاليم أو باكويات ، وهي قسنطينة في الشرق، وتليها في الأهمية وهران في الغرب وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة معسكر ، ثم إنتقلت إلى ميناء وهران بعد استرداده من الأسبان نهائياً سنة ١٧٩٠ . أما الإقليم الثالث فهو أصغرهما، ويقع في الوسط ويسمى بباكوية تيطرى وكانت عاصمته مليانة أحياناً قليلة ، ومدينة في معظم الأحيان .

وتأثر وضع البايات حكام الأقاليم باستقرار الأحوال أو اضطرابها في العاصمة ، وهم يعتمدون في ممارسة سلطتهم على جهاز صغير من الكتبة وجباة الضرائب الذين يعرفون بالخوجات . وكانت الحكومة تجري امتحانات للذين يرغبون في تولي وظيفة الخوجة، فيعين الناجح في العاصمة، ويرسل الراسبون إلى الأقاليم ، ولكن كما هو شائع في هذا الوقت كانت الرشوة تلعب دورها بجانب الكفاءة، سواء للتعين أم لاختيار المكان الذي يرسل إليه الخوجه .

وكان تحصيل الضرائب في الغالب يتطلب إرسال حملات تأديبية عرفت في المغرب العربي كله باسم الحملات وتألف الجيش الذي يتبع البك في الأصل من القبولوغلان ، ولكن لما كانت هذه الحملات فرصة للنهب والسلب ، فقد كان المتطوعون من الوطنيين يسارعون إلى الالتحاق بهذه الحملات ، وتدخل المنازعات القبلية طرفاً فيها. وفي الجزائر كانت القبائل تنقسم إلى صفوف ، أى إلى أقسام متخصصة داخل القبيلة ، وهكذا كانت الحملة تتضخم بأعداد هائلة من الصفوف ، حتى بلغت بإقليم تطرى ١٣ ألف رجل ، بجانب ألفين فقط من الإنكشارية .

وكانت الحملات تترك وراءها الخراب والدمار ، وتعود في الغالب بغنائم

هائلة تبلغ عشرات الألوف من الأغنام والأبقار والعجول ، حتى أن النظام الاجتماعي لبعض القبائل كاد ينهار نتيجة تعرضه لهذه الحملات التي أفقدت هذه القبائل ثروتها .

وبعد أن تقسيم جزء من هذه الغنائم على جميع المشتركين في الحملة، يجمع الباقي لكي يرسل إلى العاصمة .

ومن المفروض أن يقدم الباي بنفسه المبلغ المقرر عليه للنيابة ، ولكنه كان يفضل في الغالب إرسال مندوب عنه حتى لا يتعرض للإهانة، أو القتل أحياناً إذا لم تكن الأموال التي يحملها كافية وجرت العادة أن ترسل الأقاليم أموال الميرى المقرر عليها مرتين في السنة، إحداها في فصل الشتاء ، والأخرى في فصل الصيف ويكون وصول الأموال إلى العاصمة سبباً مناسباً لإقامة الاحتفالات .

لم يكن الباكوات يمارسون سلطة مباشرة خارج المدن ، واقتصر مظهر وجود الحكومة على الحملات التأديبية . لذا فإن الوحدة الإدارية الهامة بالنسبة للوطنيين كانت هي القبيلة ، وهي تنقسم إلى أربعة أنواع من حيث علاقتها بحكومة النيابة . أولاً قبائل مخزن ، وهي التي تضع نفسها تحت تصرف الحكومة ، فتساعد في جمع الضرائب من القبائل الأخرى ، وأخذت هذه التسمية عن اسم الحكومة عامة في المغرب الأقصى ، ويقع عند تلك القبائل أحياناً شخص من العثمانيين أو القولوغلان ، وهو يمثل الحكومة ، ويعرف بالقائد . ثانياً القبائل المستقلة تماماً وهي تنتشر في الجنوب . ثالثاً قبائل الرعية وهي التي تلزم من حين لآخر ، سواء بالقوة أم بالخوف على دفع ضرائب منتظمة وغير منتظمة ، وهي في الغالب ضرائب عينية . رابعاً القبائل التي استقرت في أملاك الدولة القريبة من الساحل ، وهي تشغل عادة بزراعة الأرض لحساب الدولة ، أو لحساب بعض الأفراد من الملاك . ولم تكن القبيلة تستقر طويلاً على وضع من هذه الأوضاع ، وكثيراً ما تنتقل من نوع إلى آخر من الأنواع الأربعة المذكورة حسب الأحوال المتغيرة .

الأحوال الاقتصادية

يتبين مما سبق أن مهمة الدولة في ذلك الوقت اقتصر على جباية الضرائب ، وهذه النقيصة ليست من خصائص الحكم العثماني وحده ، بل إنها أمر شائع

في ذلك العهد . ولما لم تكن الدولة حينذاك ترى نفسها ملزمة بتأدية الخدمات العامة، فإن الكتاب سواء في عصرنا الحاضر، أم في العصر الذي ندرسه ، لا بد أن ينظروا نظرة سيئة إلى تصرفات الحكومة. حينما تزيد من الضرائب ، أو تتدخل في توجيه الحياة الاقتصادية بصفة عامة .

وثمة نقيصة أخرى اقترنت بالحكم العثماني فيما يتعلق بنظام الضرائب النظام الذي تفضل تسميته بالاستغلال المالي ، إذ أن الدولة لم تكن تكتفي بضرائب محددة ، بل كانت تلجأ في كثير من الأحيان إلى جباية الأموال عن طريق العنف، وتحت ستار أعذار تبدو غريبة في عصرنا الحاضر ، كحق الحماية في أن تجمع من المزارعين ضريبة ضيافة إذا نزلت في قرية ما ، مع العلم بأن هذه الوسائل الغريبة كانت شائعة في أوروبا قبل عهد الثورة الفرنسية .

والضرائب الثابتة هي التي يقرها الشرع الإسلامي أو العرف السائد في ذلك الوقت، وهي تتمثل في ضرائب العشور على المنتجات الزراعية ، وتختلف من ١٠ إلى ١٠٠ / حسب نظام الري السائد ، فالأرض التي تروى بالأمطار وبدون مشقة تدفع نسبة أكبر. وحدد الشرع مقادير الزكاة على الثروة الحيوانية . غير أن المشكلة كانت كيفية حساب تلك الضرائب ووسائل جبايتها، وكان يزيد تلك المشكلة تعقيدا إضطراب نظام الملكية الزراعية. وعرفت بلاد الجزائر عدة أنواع من الملكية، وهي الوقف، وأملاك الدولة، والملكية الفردية الخاصة التي كانت موجودة حول المدن فقط، وكان للعثمانيين ملكيات عديدة في سهل المتيجة تعرف بالحيشان، وتزرع في الغالب بالفواكه والخضر، لكفاية حاجة العاصمة. وأكثر أنواع الملكية انتشاراً كان تعرف بالعرش، وهي أن تنزل قبيلة أو عشيرة في مكان وتستقر به، فيملكه جميع أفراد العشيرة ملكية جماعية. ولم يعترف الفرنسيون بهذا النوع من الملكية، وقالوا أنه حق إنتفاع حصلت عليه القبائل من الدولة. وكان ذلك تبريراً منهم لمصادرة أملاك العرش لحساب الاستعمار . وبالنسبة لأملاك الدولة والأفراد كان المزارع يحصل على خمس المحصول نتيجة عمله، وأحياناً يترك المالك له جزءاً من الأرض يزرعه لحسابه . مقابل عمله في بقية الأرض المعروفة حينذاك باسم العزبة . وكان أبناء القبائل

يكرهون نظام المزارعة هذا، ففضلت غالبيتهم حياة المرعى . ولعل ذلك من أسباب انخفاض الإنتاج الزراعى فى العهد الذى ندرسه حتى أن حمدان خوجة وصف سهل المتيجة بأنه أرض مستنقعات، مع أنه سهل صالح للزراعة . وربما عمد حمدان خرجة إلى ذلك ليصرف الفرنسيين عن الطمع فى إمتلاك هذا الإقليم، بعد أن صار بفضل استغلاله بالوسائل الحديثة من أخصب أراضي الجزائر .

وربما كانت الضريبة الجبركية أكثر الضرائب انتظاما فى عهد النيابة العثمانية، وسبق أن أشرنا إلى النسب المحددة على البضائع المستوردة والتي تختلف باختلاف جنسية التجار .

وعرفت الجزائر كثيراً من الضرائب الإضافية التى تحملها المزارعون أو الرعاة، كلها وصلت إليهم سلطة الحكومة. وسبق أن أشرنا إلى ضريبة الضيافة التى يدفعها أهل القرية حينما يمر بهم موظف أو جندى من الجيش الرسمى، كذلك كان يفرض على المالك الذى يستخدم أكثر من بقرة لحرق أرضه ضريبة إضافية تعرف بالزويجة، ولعلها مشتقة من كلمة زوج بقر . وعرفت الجزائر ضريبة الرؤوس، ولو فى نطاق محدود، وكانت تسمى هناك باللازمة وحينما تستنفد الحكومة أنواع الضرائب تلجأ إلى ما تسميه صراحة بالغرامة وهى تأخذ عينا فى غالب الأحيان . ولما كان أهل الواحات الفقيرة يعفون من الضرائب، فإن الحكومة العثمانية لم تشأ أن تتركهم بدون غرامة، وحددت غرامة الواحات بتقديم عدد من الرقيق الأسود، وذلك لأن الواحات تقع فى طريق التجارة بين أفريقيا وحوض البحر المتوسط. والظاهر أن بعض الدايات أراد من وراء ذلك استخدام الرقيق الأسود بالجيش، فلما فشلت التجربة رأى الاستفادة منهم فى خدمة المنازل، ولذلك أصبح الإقبال على النساء الأفريقيات أكبر، لتربية الأطفال . وقدر عدد هؤلاء الرقيق فى أوائل القرن التاسع عشر بنحو ألفين فى العاصمة .

ولجأت حكومة النيابة إلى البحث عن موارد أخرى غير الضرائب والغرامات، فكانت تصدر أحيانا أملاك القبائل، بحجة أنها حاصية، وتضمها إلى

أملاك الدولة. ثم عمدت الحكومة إلى احتكار بعض الصناعات المربحة، كاستخراج الملح وبيعه للتجار، وديانة الجلود.

وفي نهاية عهد النيابة زاد تدخل الحكومة في الشؤون الاقتصادية، فبعد أن كانت تحتكر التجارة الخارجية أصبحت توجه أيضاً التجارة الداخلية، فهي تحدد أسعار البيع للجملة والقطاعي، وتلزم الفلاح ببيع ما يفيض عن استهلاكه للحكومة، وبذا صارت الحكومة تمتلك مخازن الحبوب. ولذا كانت قبائل الرماة تضطر إلى المجيء إلى العاصمة لتشتري تلك الحبوب، فتكون فرصة للدائ كي يحصل منها على إعلان الولاء للحكومة.

كذلك كانت العاصمة هي السوق الوحيد لتصريف زيت الزيتون الذي تنتجه بلاد القبائل، ومنها يباع للتجار الأوربيين، أو يوزع على بقية البلاد.

ولحكومة النيابة موارد أخرى لا تستمد من داخل البلاد، مثال ذلك العوائد التي كانت تحصلها من شركات التجارة الأوربية، وفي العصر الذي ندرسه كانت شركة أفريقيا الفرنسية في عنابه تدفع عوائد سنوية تقدر بمبلغ ١٨٠ ألف فرنك، مقابل السماح لها باستيراد قمح قسنطينه، خلافاً لأوامر الدولة العثمانية التي تقضي بحظر بيع المواد الغذائية للخارج. ولعل أشهر تلك الموارد الخارجية مجموعة الأتاوات التي كانت تدفعها بعض الدول نظير تأمين ملاحتها في حوض البحر المتوسط. غير أن هذا المورد قلّ منذ القرن الثامن عشر، ما بسبب ذكرناه من ضعف البحرية الجزائرية ابتداءً من ذلك القرن. ولكن يبدو أن كثيراً من الدول عادت إلى نظام دفع الأتاوات في أوائل القرن التاسع عشر، وذلك حتى تتخفف من أعباء حماية السفن في المتوسط وفي تلك الحقبة لم تقدم الدولتان الرئيسيتان وقتذاك، وهما، إنجلترا وفرنسا، شيئاً من هذه الأتاوات بصورة صريحة، بل كانت تستعوض عن ذلك بالهدايا التي يقدمها القناصل للدائ.

وينسب الكتاب الأوربيون التدهور الاقتصادي الذي أصاب النيابة في نهاية عهدها إلى انقطاع تلك الأتاوات فجأة، بعد الحملة الأمريكية سنة ١٨١٥، والحملة البريطانية سنة ١٨١٦. وهذا التفسير يمثل جانباً واحداً من الحقيقة، أما الجانب الذي أهمله الباحثون فهو أن نظام الحصار القاري الذي أدى إلى الاعتداء على السفن

التجارية المحايدة بواسطة الطرفين المتحاربين ، إنجلترا وفرنسا ، عرقل نشاط الجزائر التجاري . وكانت الجزائر بدأت تستفيد من الحرب العامة بتصدير منتجاتها بأسعار أفضل ، ولا سيما القمح والكتان اللازم في صناعة السفن ، غير أن الحرب الاقتصادية التي اتسع نطاقها في عهد نابليون أضاعت على الجزائر تلك الفرصة .

وسواء رجحنا هذا التفسير أم ذاك ، فإن النياية عانت قبيل سقوطها اضطرابات اقتصادية لم تعرف من قبل . ويبدو أن الإنتاج الزراعي ضعف أيضاً خلال تلك المدة ، مما جعل الواردات تزيد على الصادرات ، حسب تقرير القنصل الأمريكي شلر ، وهذا في الوقت الذي كان النقد المعدني فيه قليلاً بالبلاد . وكانت نتيجة ذلك كله زيادة ارهاق الناس بالضرائب على النحو الذي شرحناه .

ولا شك أن لهذه الأزمة الاقتصادية علاقة بالمعارضة الوطنية التي فلمسها بوضوح في هذه الحقبة ، وتمثلت المعارضة في زيادة نشاط الطرق الصوفية التي أصبحت تعبر عن آمال الناس وآلامهم ، وهي حينذاك تشكل بديلاً عن الروح الوطنية .

ومن المعروف أن الطرق الصوفية اكتسبت نفوذاً خاصاً في شمال أفريقيا ، وأتت بعض تلك الطرق من المشرق ، وانتشرت في الجزائر مثل القادرية . أما الطرق التي تزعمت المعارضة فنشأت في بلاد المغرب أصلاً ، وأهمها طريقتان الدراوية التي أوشكت أن تطيح بالحكم العثماني في وهران وكانت تتلقى المساعدات من سلاطين المغرب الأقصى حيث الموطن الأصلي لتلك الطريقة ، حتى صار لفظاً درقاوي وعاص مترادفين عند أتراك الجزائر . أما الطريقة الأخرى فهي التيجانية التي انتقل مركزها إلى عين ماضي من واحات الجنوب سنة ١٨١٥ . وبعد عدة اشتباكات مع السلطات العثمانية تعرض التيجانية لهزائم متلاحقة ، اضطرت الطريقة إلى مهادنة تلك السلطات حتى إذا سقطت النياية لم تحرك ساكناً لمقاومة الغزو الجديد .

البحرية : نتبين من عدة مناسبات وردت في هذا المقال أهمية الدور الذي قامت به البحرية في حياة الجزائر ، لذلك يجدر بنا أن نخصص لها الفقرة

الأخير الباقية من هذا البحث. ومما لاشك فيه أن الحروب البحرية كانت مصدراً هاماً بالنسبة لنيابة الجزائر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وعندما أخذ الأسطول الجزائري يضعف انتقل الإشراف عليه من رجال الطائفة إلى الداي ورجال حكومته مباشرة، وبذا تأكدت الصفة الرسمية لتلك الحروب، وسارت الجزائر تقريباً على نفس التقاليد الشائعة في كل من البحرية البريطانية والبحرية الفرنسية خلال حروب الثورة و نابليون، بل إنها كانت أقرب إلى الصفة الرسمية من بحرية مالطة التي كانت من ألد خصوم الجزائر في حوض البحر المتوسط.

ومن المدهش أن يحتفظ الأسطول الجزائري بهيئته الدولية حتى أوائل القرن التاسع عشر، رغم تضائله من حيث الحجم والتسليح، إذ قدرت القطع البحرية الكبيرة بخمس فرقاطات، وأربعة زوارق مسلحة. أما معظم الأسطول فكان من المراكب، الصغيرة، يحمل كل منها مدفعاً واحداً، ويسمى المدفع الواحد بالشبك. وكان يوجد من هذا النوع من المراكب الصغيرة نحو ٥٠ قطعة، لذا كان مرجع قوة الأسطول الجزائري في أوائل القرن التاسع عشر إلى شجاعة البحارة الفائقة. ويرجع الفضل في تجدد قوة الأسطول أثناء تلك الحقبة إلى رجال من طراز خير الدين وعلى باشا علوج، وحيدو على. غير أن حيدو على يختلف عن سابقيه في أنه كان مواطناً جزائرياً.

بدأ الرئيس حيدو (١) حياته قائداً لثلاثة شبك كانت تعمل في البحر لحساب باي وهران، وذاع صيته بعد اشتراكه في معركة ضد سفن من الأسطول الأمريكي سنة ١٧٩٥، مما جعل الداي يستدعيه إلى العاصمة، ويعهد له بقيادة سفينتين كبيرتين. لكن الحظ شاء له أن يفقدهما، مما جعله ينجس ثلاث سنوات في قسنطينة، وفي سنة ١٨٠٠ استدعاه الداي مصطفى من جديد، وسمح له بمواصله حياة المغامرة في البحار.

ومال حيدو إلى البطولة وإحراز الأجداد أكثر من السعي وراء الغنائم،

(١) أفرد له ديفو Devoulx ترجمة لهذا الرئيس البحري. — انظر قائمة المصادر.

فتمحول عن مهاجمة السفن التجارية إلى مهاجمة السفن الحربية المعادية. ولما لم تكن البرتغال ترتبط بأي نوع من العلاقات مع الجزائر، ركز الرئيس حميدو هجماته على سفنها، وأخذت شهرته تعلو منذ أن استولى على فرقاطة برتغالية تحمل ٤ مدفعاً، وضمت هذه الفرقاطة، إلى الأسطول الجزائري، وسميت باسم البرتغالية .

وسجل حميدو فخراً رائعاً للبحرية الجزائرية يوم أن خرج عن ميدانها التقليدي، وهو حوض المتوسط، فعبر مضيق جبل طارق، وراح يواصل مغامراته في مياه المحيط الأطلسي . وفي تلك المياه النائية تمكن حميدو سنة ١٨١٢ من الاستيلاء على ثلاث سفن حربية برتغالية . ووجد الداي أن حميدو أهل لتوجيه ضرباته ضد دولة أخرى أعظم، وهي الولايات المتحدة التي امتنعت عن دفع الأتاوة منذ سنة ١٨١١ غير أن حميدو لم يلتق بالأسطول الأمريكي حتى قررت الولايات المتحدة إرسال حملة إلى الجزائر في سنة ١٨١٥، ففوجئ بها حميدو في حوض المتوسط، وقتل أثناء اشتباكه معها .

ثم أنزلت حملة إكسماوث البريطانية سنة ١٨١٦ بالأسطول الجزائري كارثة عظيمة أخرى، إذ دمرت أربعاً من الفرقاطات الخمس التي كان يملكها الجزائريون، فضلاً عن اثنين وعشرين شبكا .

وسارعت حكومات تونس والمغرب الأقصى، فضلاً عن الدولة العثمانية، إلى تقديم بعض المراكب لتعويض الأسطول الجزائري عن كارثته هذه. ولذا استطاع الأسطول الجزائري المشاركة في موقعة نوارين البحرية بثماني سفن. وتدل هذه الأحداث على استمرار روح التضامن الإسلامي بين رجال البحرية، سواء في الجزائر أم في الأقطار الأخرى في حوض البحر المتوسط. وربما كانت ذكرى أعمال الجهاد أيام خير الدين مازال ماثلة في الأذهان، ويدل على ذلك أيضاً مجموعة الأسماء التي تخيرتها حكومة النياية لإطلاقها على السفن حينما ازداد ضغط الدول الأوروبية وأخذت النياية في اتباع العرف البحري الذي يقضي بوضع أسماء للسفن ولذا سميت إحدى السفن بالفتح، وأخرى بالجهاد، وثالثة بالنصر .

ذكرنا أن حكومة النياية تولت إدارة البحرية، ولذلك أصبحت تحصل على نسبة كبيرة من الغنائم، وفي السنوات التي تعيننا هنا وصل نصيب

الحكومة إلى ٥٠ ٪، بالإضافة إلى نسب أخرى حصلتها مقابل أعمال التفريغ والحراسة . وخصصت النيابة جزءاً من الغنائم لافتياء أسرى المسلمين، ثم وزعت الباقي على القائمين بالعمل في الحملات البحرية، أي ساهمين للبحار وسهم للجندى الإنكشارى الذى يخرج مع الحملة للنزول فى سفن الأعداء بعد الاستيلاء عليها . وتوزع الغنائم عينا ، فإذا كانت السفينة التى تم الاستيلاء عليها حرية تكون كلها للحكومة ، وحينذاك يعرض البحارة بمكافآت مالية .

وكانت العاصمة تحتفل بعودة الحملات البحرية، ويذهب الرئيس ليقدم الحساب إلى الداي ، ثم يفرغ شحنته تمهيداً لتوزيعها .

وتحدث الكتاب طويلاً عن الأسباب الدولية التى أدت إلى سقوط نيابة الجزائر سنة ١٨٣٠ . ، وفى هذا المقال محاولة علمية لإبراز الأحوال الداخلية التى تفسر لنا أسباب ضعف النيابة فى عهدها الأخير ، ومنها يتضح أن النظام العثمانى كان يمر بأزمة تستعصى على الحل ، لأن الأقلية العنصرية الممتازة فقدت دعائم قوتها، بسبب حل الإنكشارية من جهة ، وضعف الأسطول من جهة أخرى، كما أن الأزمة الاقتصادية أوجدت نوعاً من المعارضة الوطنية لم يكن له وجود من قبل ، وهذه المعارضة واضحة فى ازدياد نفوذ الطرق الصوفية التى أوجد بدورها أزمة اجتماعية تتجلى فى بعثرة ولاء النمر بين الطريقة الصوفية والقبيلة .

صلاح العقاد



بعض مصادر هذا البحث

- 1 — Boyer (Pierre) : La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française. Paris, 1963.
- 2 — Dépôt Général de La Guerre : Aperçu Historique ... sur l'Etat d' Alger ... Paris, 1830.
- 3 — Devoulx (A.) : Le Registre des prises maritimes ... in Revue Africaine. 1871, tome XV, 1872 tome XVI.
- 4 — Devoulx (A.) : Le Raïs Hamidou, un corsaire algérien du XIIIe siècle de l'Hégire à Alger, 1858.
- 5 — Dubois - Thainville : Mémoire sur Alger, (1809). Paris 1927.
- 6 — Hamdan Ben Othman Khodja : Aperçu historique ... sur la Régence d'Alger ... Paris, 1833.
- 7 — Kersey (de) : Mémoire ... sur Alger (1791), Paris 1927.
- 8 — Laugier de Tassy : Histoire du Royaume d'Alger. Amsterdam 1725.
- 9 — Shaler (W.) : Esquisse de l'Etat d'Alger, Paris, 1830.

الأصول التاريخية لقضية عمان

بدأت القضية العمانية تظهر في مجال المناقشة الدولية حين عرضت على الأمم المتحدة ، لأول مرة سنة ١٩٥٧ ، وكان ذلك على أثر اجتياح قوات سلطنة مسقط ، المؤيدة من جانب الإنجليز ، لأراضي الإمامة العمانية في الداخل . وبرر سلطان مسقط هذا الاعتداء بأنه توطيد لنفوذه في المقاطعات الخاضعة له ، أو بمعنى آخر أنه لا يعترف بوجود الإمامة . ومن هنا كان اتجاه الإمامة إلى إسماع صوتها في المجال الدولي ، مع التركيز على أن لها كياناتاً خاصاً . وعلى هذا فإن مشكلة عمان تثير تساؤلاً لا يمكن تفهم القضية على أساسه . هل الإمامة هي الأصل ، والسلطنة غير شرعية ؟ أم أن وجود السلطنة أكسبها صفة الشرعية بحكم الأمر الواقع ، ومن ثم تصبح الإمامة بوجودها لا تستند إلى هذه الصفة ؟ ومن هنا يرتبط موضوع قضية عمان بالحديث عن الإمامة ، وهي ليست منشأة حديثة ، بل إنها نظام ألفه العمانيون في الحكم منذ القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي . ويعزو مؤرخو الفرق الإسلامية المذهب الإباضي الذي تقوم عليه الإمامة في عمان إلى إحدى الفرق التي ينقسم إليها الخوارج (١) ، وإن كان الإباضيون أنفسهم لا يقرون بصحة هذه النسبة ، ويؤكدون أن خروجهم لم يكن على الإمام عليّ على الدولة الأموية ، وهم يشيرون بذلك إلى ثورة عبد الله ابن إيباض على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٢) . وعلى أثر قمع هذه الثورة في العراق اتخذ الإباضيون من عمان . ملجأ لهم ، نظراً لمواقعها المتطرفة ، وأخذوا ينشرون فيها مذهبهم . ومن عمان بدأت تظهر ثورات كثيرة ضد الأمويين والعباسيين .

(١) انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٢٧١ ؛ مصطفي بن اسماعيل الإباضي :

الهدية الإسلامية ؛ يحيى معمر : الإباضية في موكب التاريخ ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

(٢) الشماخي : كتاب السير في رجال الإباضية ، ص ٧٧ .

ولعل أشهر هذه الثورات ما قام به سليمان وسعيد الجلنديين ، اللذان كانا يقومان بشئون الإمامة في عمان زمن الوالى الأموى الحجاج بن يوسف الثقفى . لكن الهزيمة لحقت بهذه الثورة ، فاضطر الاثنان إلى الفرار إلى بلاد الزنج ، مما كان من أثره انتقال المذهب الإباضى إلى شرق إفريقيا (١) . وانتشرت الإباضية كذلك فى شمال أفريقيا منتصف القرن الثانى للهجرة ، وقامت بها عدة دويلات إباضية ومنها دولة قامت فى تاهرت ، أسسها عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٠ هـ ، واستمرت ما يقرب من ١٣٦ عاماً حتى أزالها أبو عبيد الله الشيعى فى عام ٢٩٦ هـ (٢) .

المقصود بهذه الإشارات إلى انتشار الإباضية فى مختلف الأماكن من العالم الإسلامى ، ونجاحها فى تكوين إمامات خاصة بها ، أن الإمامة الإباضية لا تعنى صفة العموم ، أو بمعنى آخر لا تشترط ضرورة وجود إمام واحد للجماعة الإسلامية الواحدة ، بل تسمح لكل جماعة من الجماعات فى أى مكان أن تختار لنفسها الإمام الذى تراه صالحاً لها .

وفى عمان بدأ الإباضيون يتخبون أنفسهم منذ النصف الأول من القرن الثانى الهجرى (٣) ، وظلت الإمامة العمانية تسير دون انقطاع تقريباً مدى أربعة قرون . ثم خلا مقعد الإمامة لمدة قرنين ونصف قرن ، وسيطر فى أثناءها الزبانيون على الحكم ، فألغوا الإمامة ، ولقبوا أنفسهم بالملوك . ثم حدثت الثورات الإباضية التى أعادت بعث الإمامة فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى (النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى) ، واستمرت الإمامة قائمة منذ ذلك الوقت حتى عام ١٥٦١ ، ثم انقطعت لأكثر من ستين عاماً . وقامت على أنرها

(١) انظر Pearce : Zanzibar ; The Island Metropolis of East Africa. p. 45; Ingrams: Arabia. & The Isles. pp, 6—8.

(٢) البارونى : الأزهار الرباضية فى أئمة وملوك الإباضية ، ص ٨٣ وما يليها .

(٣) انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ،

ج ١ ، ص ١٩١-١٩٤ .

الإمامة الإباضية في أسرة اليعاربة التي ظلت تمارس الحكم في عمان من ١٦٢٤ إلى ١٧٣٨ م. وعلى الرغم من عدم ميل الإباضيين إلى حصر الإمامة في أسرة واحدة، فإن الإمامة استمرت قائمة في تلك الأسرة على طريقة الانتخاب بين أفرادها لأكثر من مائة عام. وسبب ذلك فيما يبدو أن هذه الأسرة نجحت في تعزيز مركزها لدى العمانيين، بفضل جهودها في الصراع الذي نشب بين عمان والبرتغاليين، وبفضل ما حققته لعمان من تفوق بحري، وخاصة في عهد أئمتها ناصر بن مرشد وسيف بن سلطان. ففي عهد هذين الإمامين ظهر أكبر أسطول عربي منظم، وأصبح هذا الأسطول في نهاية القرن السابع عشر الميلادي قوة بحرية لا نظير لها في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي. وبفضل قوة هذا الأسطول طارد اليعاربة سفن البرتغاليين في شرق أفريقيا وسواحل الهند. ولذا كانت عمان إحدى القوى المحلية التي أسهمت في الإجهاز على، الإمبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي والخليج العربي وشرق أفريقيا. وحفظ السالمى مؤرخ عمان الإباضى بعض الرسائل المتبادلة بين اليعاربة وخصوصهم البرتغاليين، وهي تنم عن روح التحدى والعداء التي تملكى الطرفين. وشرح هذا المؤرخ كذلك أعمال سيف بن سلطان وحروبه ضد البرتغاليين، فقال: «إن الإمام حارب النصارى في جميع الأقطار، وعمل لهم مراكب عظيمة في البحر، وعظم جيشه، وقوى سلطانه، وأخذ من النصارى منيسه وكلوه وباته، وغيرها من البلدان التي بالزنج ومن البلاد التي بالهند (١)».

ثم ما لبثت أسرة اليعاربة أن واجهت صراعاً أسرياً خطيراً حول منصب الإمامة، وكان من نتيجة ذلك أن لجأ بعض المتنازعين من أبناء الأسرة إلى طلب معونة فارس. ولبي نادر شاه الفرصة، وكانت تحدوه آمال واسعة في بسط السيطرة الفارسية على الخليج (٢). ولذا احتل الفرس عمان (١٧٣٨—١٧٤١)، وكان هذا الاحتلال كفيلاً بقيام حركة تحررية عمانية ضد الفرس تزعمها

(١) السالمى: تحفة الأعيان يسيرة آل عمان ج ٢، ص ٩٦ - ٩٨.

(٢) أنظر Lockhart: Nadir Shah, p. 182.

أحمد بن سعيد والى اليعاربة في ميناء صحار ، وكان لنجاحه في تخليص عمان من الاحتلال الفارسي تأثير كبير في انتخابه للإمامة ، وبذلك انتقلت الإمامة الإباضية من أسرة اليعاربة إلى أسرة آل أبي سعيد التي لا تزال تحكم في مسقط حتى الوقت الحاضر . ولما مات الإمام أحمد هذا وقع اختيار العمانيين على ابنه سعيد ، وكان ذلك في عام ١٧٨٣ (١) .

وشهد عهد الإمام سعيد بن أحمد الذي استمر إلى عام ١٨٢٠ م ثنائية الحكم في عمان ، من حكم ديني يمثله هو كإمام في الداخل ، وحكم زمني على الساحل بطبيعة الظروف التي دعت إليه . ذلك أنه حدث في بحار الشرق على أثر انهيار السيطرة البرتغالية ، أن ظهرت دول أوربية أخرى ، وهي بريطانيا وهولندا وفرنسا ، وهؤلاء كانت لهم سياسة أخرى غير سياسة البرتغاليين الاحتكارية ، إذ انصرفوا إلى تأسيس المستعمرات ، واستغلال الأهالي ، وتكوين الإمبراطوريات . أما في مجال التجارة فأفسحوا المجال للعناصر التي كانت تعمل فيها من قديم لتعمل من جديد ، ولكنهم حرصوا في الوقت نفسه على تأمين المواصلات لإمبراطورياتهم الاستعمارية ، وترتب على ذلك دخولهم في علاقات مع القوى المحلية المسيطرة على أهم القواعد في طريق هذه المواصلات . ولما كان طابع التنافس بين هذه الدول هو الظاهرة الغالبة لجأت كل منها إلى محاولة الاعتماد على القوى المحلية وأن تضمن موالاتها لها بقصد توطيد نفوذها . ولما كانت الإمامة الإباضية الدينية لا ترحب بقيام مثل تلك العلاقات من ناحية ، ثم هي بحكم انزوائها في المناطق الداخلية من ناحية أخرى فإنها تركت هي للحكام المعينين في الساحل أن يكونوا بحكم الظروف أكثر تحوراً ونزوعاً إلى الاتصالات الخارجية . ولذا دخل أولئك الحكام المحليون في علاقات مع الفرنسيين والهولنديين والإنجليز ، وشجع ولاية الساحل على ذلك أن سلطة الإمام أخذت وقتذاك في الضعف ، بسبب التفكك الداخلي الذي نتج عن اقتطاع أقاليم البلاد لبعض أفراد الأسرة الحاكمة ، . يضاف إلى ذلك ضعف الإمام نفسه ، فالواقع أن انتخاب الإمام سعيد لم يكن لكفاءة شخصية

اتصف بها، بل كان اعترافاً بما أسداه أبوه من خير للبلاد، بتخليصها من
الفرس . ولعل عدم اعتراف أغلبية العمانيين بإمامة سعيد هو الذى أتاح
للحركات الانفصالية الفرصة للسيطرة المحلية ، وهكذا طغت شخصية حكام
الساحل على الإمام سعيد، ولم يبق له إلا احتفاظه بلقب الإمامة حتى وفاته فى عام
١٨٢٠، فى الرستاق، بعد أن خرج عليه الكثيرون .

والحق أن حكام الساحل كانوا أكثر تقديراً للموقف الخارجى ، إذ
وجدوا من الدول الأجنبية استعداداً للتعامل معهم . وبما زاد فى
الحركات الانفصالية أنها قامت فى ظروف التنافس الإنجليزى الفرنسى فى بحار
الشرق، خلال حرب السنوات السبع (١٧٥٦ — ١٧٦٣)، وحرب الاستقلال
الأمريكية . ولذلك استفادت الحركات الانفصالية فى مسقط عموماً من هذا
التنافس ، إذ عمدت الدول المتنافسة إلى إعطاء كيان للحكام المنفصلين الذين
كانوا بحكم وجودهم على الساحل أقرب إلى تلك الدول من الإمامة العمانية
الداخلية، وتأكد هذا الاتجاه حينما عمل بونايرت فى أثناء وجوده بمصر على
الاتصال بمسقط، وحينما بادرت بريطانيا إلى عقد أولى معاهداتها مع مسقط.
وكانت هذه المعاهدة تهدف إلى إضعاف النفوذ الفرنسى وإفساح الطريق أمام
الإنجليز فى المجالات السياسية والتجارية. ولكن على الرغم من عقد هذه المعاهدة فقد
استمر حكام مسقط يتعاملون مع الفرنسيين ، وإن كان قد نتج عن نجاح
الإنجليز فى القضاء على النفوذ الفرنسى فى المحيط الهندى ، بعد سقوط جزيرة
موريس فى أيديهم سنة ١٨١٠، أن تحول سلاطين مسقط إلى الاعتماد كلية على
الإنجليز (١) .

وعلى هذا النحو بدأ ظهور السلطنة التى اتخذت مسقط عاصمة لها، على حين
ظلت الإمامة فى عاصمتها الرستاق. لكن وجود حكم فى مسقط وحكم آخر فى المنطقة

الساحلية جعل سلطة الإمامة تتقلص وتنزوي في المقاطعات الداخلية، على حين أخذت السلطنة تضطلع بشئون الحكم تدريجياً. يضاف إلى ذلك أنه بعد وفاة الإمام سعيد، وعدم مواتاة الفرصة لانتخاب إمام جديد، أصبح حكام الساحل هم السلطة القائمة فعلاً. وأدى ذلك إلى الانفصال بينهم وبين الإباضيين في الداخل، لأنهم لم يكونوا على استعداد للاعتراف بأسلوب للحكم سوى الإمامة الإباضية، وآثروا الاحتفاظ بشخصيتهم دون اعتراف منهم بشرعية الحكم القائم على الساحل. ولم يعبأ حكام الساحل بذلك، إذ انهم لم يعودوا بحاجة إلى تأييد ديني يعتمدون عليه، بل بدأوا يستندون إلى نواح أخرى لتأييد نفوذهم، كاصطناع القوة العسكرية، وموالة الاتصال بالدول الأجنبية. وساعد الإباضيون على عدم الاعتراف بحكم السلاطين، والتمسك بنظام الإمامة رغماً عن عدم انتخاب إمام جديد يخلف الإمام سعيد، أن الأباضية كذهب لا ترى ضرورة توالى الأئمة في الحكم، بل تسمح بوجود فترات تخلو فيها الإمامة، مادام لا يوجد شخص جدير بها، وهي الفترات التي يطلق عليها إباضيون فترات الشغور، وعلى ذلك فليس انقطاع الإمامة في فترة من الفترات معناه انتهائها، لأن الإمامة كانت تظهر ثم تختفي، ثم تعود إلى الانبعاث حيناً تواتيها الفرصة.

وهكذا قبعت المقاطعات الداخلية في عمان، بعد تحول مركز الثقل إلى مسقط، وهي لا تكاد تشارك بشيء في زمام الحكم. وبدأ الصراع يظهر قوياً بين الساحل والداخل في عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦)، الذي انتهز فرصة وفاة الإمام فاتجه إلى توحيد عمان، ولكنه وجد معارضة شديدة. والحق أن سيرة سعيد بن سلطان كانت مدعاة لتوسيع الهوة بينه وبين الإباضيين، إذ كانوا يأخذون عليه ميله إلى الأساليب الأوربية، وحسن استقباله للأجانب. وزادت كراهيتهم له عندما عقد معاهدات كانت تبيح للأجانب حرية الدخول، بل الإقامة والمتاجرة والمرور مع بضائعهم، في جميع أراضي عمان. ومعنى ذلك ولو من حيث المبدأ أن تفتح مناطق كثيرة أبوابها، على حين يصبر كثيرون من زعماء الداخل على إحصاءها. ثم كانت هناك فضلا عن ذلك معاهدات إلغاء تجارة الرقيق التي لم يمانع السيد سعيد في عقدها مع بريطانيا. ويمكن أن نقرر هنا أن الحاجز الذي يفصل بين السلطنة والداخل حاجز ديني بطبيعته.

ففي مسقط أمور كثيرة صارت تعد مقبولة، نظرًا لاتصال مسقط بالهند والغرب، ولكن الإباذيين في الداخل ينكرونها ويستنكرونها. ولما كان حكام آل أبي سعيد إباذيين أيضاً، بالاسم على الأقل، ساعدت هذه الحقيقة على زيادة التبرم بأعمالهم بين المتحمسين الذين يقطنون وراء الجبال. وهنا نشير إلى ما ذكره لوريمار في تعليقه على نقل العاصمة إل مسقط، إذ قال «إن نقل العاصمة إلى الساحل عرض الحكام لتأثير حضارة أجنبية أبعدتهم عن قبائل الداخل، وقللت من محبتهم بين رعاياهم، ولو بقيت العاصمة في الرستاق لكان من الممكن أن تتمتع عمان بمزايا حكومة أكثر استقامة ونشاطاً، وكان يمكن أن يكون الفساد الخلقى للأسرة الحاكمة أقل سرعة.»

ويعني هنا أن نوضح بعض المظاهر التي نتجت عن انتقال العاصمة إلى مسقط، فأولا بدأ الحكام يتخلون عن لقب الإمامة. ولما كان لقب السلطان لم يتضح لحكام مسقط إلا بعد تقسيم السلطنة في عام ١٨٦١، واءتراف إنجلترا وفرنسا في التصريح المشترك باستقلال كل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار سنة ١٨٦٢، اتخذ الحكام لقب «السيد» الذي راق لهم استخدامه، ولا يعني هذا اللقب ادعاءهم المجيء من سلالة شريفة، وإنما لا يعدو أن يكون نوعاً من ألقاب التعظيم.

وثانياً: بدأ الحكام يعتمدون على الجنود المرتزقة لتأكيد سيطرتهم، ولا شك أن للتعارض والعداء الشديد الذي كان قائماً بين الحكام والإباذيين المتحمسين تأثير كبير في عدم وجود جيش وطني من أهل البلاد. ومن هنا كان استخدام الحكام لعناصر البلوش والزيجلوس التي كانت تأتي من السند وسواحل مكران، ولا تزال عناصر البلوش مستخدمة في جيش السلطنة حتى الوقت الحاضر. وكما كشف تقرير دي بنج في عام ١٩٦٣ أن عدد هذه العناصر بلغ أكثر من نصف قوات مسقط، فإنه أصبح من الصعب على الحكام أن يعتمدوا على الموارد الداخلية، فهي فقيرة في جملتها، فضلاً عن عدم ضمانها، وإنما أتاحت لهم السيطرة على الساحل فرصة الحصول على مكوس جمركية، وخاصة حينما نجحوا في مد السيطرة العمانية على الساحل الشرقي للخليج وإدارة

موانى بندر عباس وجزيرة هورموز والقشم ، ابتداء من عام ١٧٩٨ (١) .

ثالثا ، فشل حكام مسقط رغم كونهم إباضيين فى أن يحدثوا وحدة بينهم وبين غيرهم من الإباضيين المتحمسين فى الداخل ، بل كانوا يواجهون أعنف المعارضة . وربما يكون للطابع الحضري وما تبعه من علاقات خارجية عاملا فى زوال تعصب إباضية الساحل للعقيدة الإباضية ذاتها ، إلا أن المشكلة هى أن إباضية الداخل استمروا على تمسكهم الشديد بتعاليمهم . ويمكن تشبيه تلك المشكلة بما واجهته الدولة السعودية فى صراعها ضد المتحمسين من اتباع الدعوة الوهابية ، وبينما نجحت السعودية فى ذلك فشل سلاطين مسقط ومرجع ذلك أن السلاطين اتجهوا الى إحداث التطور فى صميم العقيدة الإباضية بإدخال الحكم الوراثى وإهمالهم لنظام الإمامة .

وكان من المتوقع أن تنجح حركات إحياء الإمامة فى الوقت الذى ضعفت فيه سيطرة الحكام على مقاطعات الداخل ، أو كما حدث مثلاً فى انصراف السيد سعيد الى شئون ممتلكاته فى شرق أفريقيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وفعلاً قامت عدة محاولات تهدف إلى إحداث انقلاب فى نظام الحكم ، والرجوع به الى أصوله الأولى . لكن هذه المحاولات لم يقدر لها النجاح ، ويرجع ذلك إلى التأييد الذى كان يلقاه حكام مسقط من جانب الإنجليز ، لأن إنجلترا كانت تفضل فى أن تتعامل مع السلاطين عن أن تصطدم بالإمامة وما فيها من تعاليم ومبادئ تتعارض مع مصالحها . ثم هناك عامل آخر وهو الغزوات السعودية المتكررة التى تعرضت لها الأقاليم الداخلية من عمان ، وما كان لهذه الغزوات من تأثير فى احتدام الصراع والعصبية التى كانت قائمة بين عرب الشمال من الغافريين وعرب الجنوب من الهناويين ، إذ كان السعوديون يعدون من عرب الشمال . وأدى ذلك إلى أن غافرية عمان كانوا أسرع إلى تشرب الدعوة الوهابية ونشرها والدعاية لها فى واحتى الظاهرة والبوريمى ، مما أوجد للسعوديين مطالب متعددة فى هذه المناطق ، فى حين عمل عرب الجنوب من

الهناوين الإباحيين على محاربة السعوديين، أى أن الصراع الدينى بين الإباحيين والوهايين اصطبغ بالنزعة القبلية السائدة (١). وهكذا وجد الإباحيون أن الضغط أصبح قويا عليهم من جانب السعوديين فى الشرق، ومن جانب السلطنة على الساحل فى الغرب. وكان ذلك الضغط المزدوج من أكبر الأسباب التى حالت دون بعث الإمامة الإباحية. ثم حدث أن قام السعوديون عدة مرات بالتعاون مع السيد توينى بأحباط ثورة إباحية نشبت عام ١٨٥٣. ويمكن أن نضيف إلى أسباب إحياء بعث الإمامة الإباحية القرن التاسع عشر عدة عوامل أخرى، منها أن بعض الذين قاموا بمحاولة إحيائها لم تكن تحذوهم رغبات صادقة فى ذلك، ولم يكن ما قاموا به إلا نوعاً من التنازع العائلى فى دولة البوسعيد، أى أن بعض هذه المحاولات كانت فى حد ذاتها صراعاً أسرياً، فضلاً عن أن الإباحيين لم يحققوا نجاحاً فى التوفيق بين القبائل الهناوية والغافرية. واستمرت المقاطعات الداخلية فى عمان تعاني من تعقد الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية، واقصد بذلك انقسام قبائلها إلى مجموعات طبقاً للدين والفئة ومنهاج المعيشة، وأصبح عدم اتحاد تلك القبائل من أهم العوامل التى أدت إلى فشل بعث الإمامة الإباحية. ولكن فى عام ١٨٦٨ سمحت الأحوال بفرصة لإحياء الإمامة فى وقت لم يكن فيه سلطان مسقط حائزاً على تأييد العمانيين، وكان يصطدم دائماً بمحاولات من قبل قريب له فى السيطرة على الحكم فى مسقط، فضلاً عن التطلع إلى ممتلكات أسرته فى شرق أفريقية، بعد أن فصلتها بريطانيا عن سلطنة مسقط فصلاً نهائياً، ولذلك فضلت بريطانيا وقوع مسقط فى أيدي الإمامة فى وقت لم تكن فيه مطمئنة إلى مصير

(١) ينقسم العمانيون إلى قسمين كبيرين، وهما الهناوية والغافرية، والهندية عرب الجنوب والغافرية عرب الشمال. وهناك كذلك القحطانيون والعدنانيون، وهما القسمان الكبيران اللذان كان ينقسم إليهم العرب قديماً. ولما كان عرب الجنوب أول الوافدين على عمان استمرت السيطرة فى أيديهم، ولكن بمرور الزمن بدأت عناصر الشمال تغدو إلى عمان، فاختلط العنصران عن طريق التزاوج. غير أن العصبية القبلية وقفت حائلاً دون قيام اتحاد تام بين هذين العنصرين، ولا شك أن ذلك التنافس هو من السمات المميزة لتاريخ عمان القديم والحديث. انظر:

الحكم في مسقط ، وهكذا أتاح الظروف فرصة لانتخاب الإمام عزان بن قيس ، وكانت إمامة ذلك الرجل ذات أهمية من ناحيتين ، وهما أولاً :

أنها أدت إلى الإطاحة بحكم السلاطين في مسقط ، وإن كان ذلك لفترة مؤقتة وثانياً: أنها أول مرة تقوم فيها الإمامة في مسقط ، وكانت تقوم قبل ذلك في العواصم القديمة (أزكي - بهلي - الرستاق نروي). وكان قيام الإمامة في الساحل كفيلاً بتطور العقيدة الإباضية إلى الشكل الذي يتلاءم مع الظروف الجديدة . لكن قصر حكم الإمام عزان كان مسئولاً عن عدم تحقيق ذلك ، بالإضافة إلى رفض بريطانيا الاعتراف بعزان بن قيس خلال وإمامته . وسع أن السياسة البريطانية زعمت لنفسها بأنها سياسة عدم التدخل ، فإن الإنجليز اتجهوا بطريق غير مباشر إلى تقويض إمامة عزان وإنهاء عهده ، بتأليب أعدائه عليه، وتمريضهم ضده ، فضلاً عن أنه لم تقم علاقات بينهم وبينه رغم استقراره في الساحل ، إذ دأبت بريطانيا على عدم الاعتراف بحكمه .

وإذا استثنينا العداء الذي لقيته إمامة عزان بن قيس من جانب بريطانيا ، فإن عوامل أخرى أدت إلى انهيارها السريع ، وأهم هذه العوامل عدم نجاح عزان في التوفيق بين القبائل الهناوية والغافرية . ومن المعروف أن القبائل الغافرية استحوزت على سلطات كبيرة في أثناء حكم السلطان سالم الذي قضى عليه عزان بن قيس ، ولذا كانت الغافرية تعتقد أن الإمامة صارت للهناوية، ولهذا أضرموا العداوة للإمام (١). واصطدم عزان فعلاً بعدة ثورات غافرية اتسمت بزعة دينية، وذلك حينما حرّض السعوديون هذه القبائل على الثورة، وبالتالي دخل الإمام في صراع مرير بينه وبين السعوديين . ومن الطريف أن الإمام عزان في سبيل حصوله على الأموال اللازمة

(١) السالمى : تحفة الأعيان ، المجلد الثانى ، ص ٥٤٢ .

لمحاربة السعوديين، التجأ إلى الاقتراض من الأهالي، وإلى مصادرة أموال أسرة البوسعيد، بعد أن برر علماء الإباضية مصادرة تلك الأموال بأن السلاطين من آل أبي سعيد «أخذوا الجبايات من غير محلها، ووضعوها في غير أهلها» (١). وكانت واحة البوريمي هي الموضع الذي دارت فيه المعارك بين الإباضيين والسعوديين. وهناك عامل هام آخر نستطيع أن نعزل به انهيار إمامة عزان بن قيس، وهذا العامل هو أن الإمامة أخفقت في أن تكتسب تأييداً، إذ كان من نتيجة تعسف الإباضيين أن طبقت إجراءات وقع عبئها على الناس، مما جعلهم يؤثرون حكم السلاطين على الحكم المتزمت للأئمة ولما زادت المخاطر على الإمامة في أيامها الأخيرة، صار من الضروري تطبيق إجراءات زادت في شدتها عن كل ما سبقها، حتى إن كثيراً من الذين كانوا يريدون الإمامة من الناحية النظرية لم يكونوا على استعداد من الناحية العملية لبذل التضحيات في سبيل إنقاذها. وزاد الأمر سوءاً أن القوة الرئيسية للإمامة كانت مركزة في أيدي شيوخ من غلاة التعصب، ولهذا لم تلق الإمامة تأييداً في الساحل، حيث كان الأهالي قد تعودوا مظاهر الحضارة، بل لقد أشيع عند مقتل الإمام عزان أن الرصاص القاتلة أطلقت عليه من أيدي أحد أتباعه (٢)، ولو صدقت هذه الرواية فهي تدل على عدم الاستجابة التي اصطدمت بها الإمامة، كما تدل على فشلها في الحصول على التأييد العام. أما بريطانيا فإنها لم تكف طوال السنوات التي قضاها عزان في الإمامة عن مراقبة أوضاع الحكم الجديد، ويبدو أن رحلة كولمب، وهو أحد رجال البحرية الهندية، إلى مسقط حول ذلك الوقت، كانت بتعليمات من حكومة الهند للتجسس على نظام الحكم القائم. ويشير كولمب إلى أنه ثبت لديه بعد سؤاله لعدد كبير من أهالي مسقط، أنهم غير راضين عن حكم الإمام، نتيجة لتعسفه (٣). يضاف إلى ذلك أن بريطانيا أخذت تدبر المؤامرات ضد عزان، وتشجع السيد تركي، وتمده

(٢) السالمى : تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٦، ٢٤٧ .

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٦ .

(٣) Colomb: Slave Catching in the Indian Ocean. pp, 122-127

بالسلاح، وأصبح أملها الأول إعادة تأسيس ذلك النوع من الحكم المفضل لديها في مسقط، وهو الحكم الذي يعتمد على سلطتها ويخدم رغبتها .

وفي أثناء السنوات التي أعقبت اغتيال عزان بن قيس سنة ١٨٧١، أي حتى عام ١٩١٣، تجددت الثورات الإباضية في عمان، لكنها لم تسفر عن إحياء جديد للإمامة، لأن السلاطين استخدموا سلاح الرشوة وإغداق الأموال على القبائل المسيطرة على الطرق المؤدية من الداخل إلى مسقط. وتؤكد المصادر البريطانية نفسها أن كل ما كان يتحصل عليه السلاطين من رواتب سنوية من الحكومة البريطانية. كانوا ينفقون أكثره للحصول على ولاء هذه القبائل لهم. وبلغ من تهديد قبائل الداخل للسلطنة ما ذكره الكولونيل روزن، وهو دبلوماسي ألماني زار مسقط حول ذلك الوقت، بأن وصول قبائل الداخل إلى أبواب مسقط كان في كل عام بمثابة نذير لجيش السلطان بالاختفاء في أقبية المدينة وكهوفها. وكان حفظ النظام موكولا في معظمه إلى إحدى السفن الحربية البريطانية التي كانت تجوب الخليج، وكان على السلطان أن يلجأ إلى أية وسيلة مهما بلغت من القسوة، للقضاء على أشد خصومه خطراً. وإزاء التهديدات المستمرة أصدرت الحكومة البريطانية في الهند في عام ١٨٨٦ تصريحاً أكدت فيه بأنها لن تسمح بحدوث أي هجوم على مسقط، ولو دعى الأمر إلى تدخلها بالقوة للحيلولة دون ذلك .

ولكن في عام ١٩١٣ أعيد بعث الإمامة الإباضية، حينما ولي شئونها الإمام راشد الخروصي . وفي تلك السنة أعلن الإمام الجديد خلع السلطان وتكفيره، وبدأت قواته تتحرك من الداخل في طريقها إلى مسقط (١). وتعود أسباب هذه الثورة إلى زيادة النفوذ البريطاني في مسقط، وخاصة بعد أن نجحت بريطانيا في القضاء على منافسة فرنسا، وإلى إخضاع السلطان لمطالبها فيما يتعلق بأمور التجارة بالسلاح والرقيق، وقبوله استغلال بريطانيا لموارد عمان الداخلية. على أن ثورة ١٩١٣ لم تكن ثورة دينية صرفة تهدف

(١) أوراق التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي والمملكة العربية السعودية،

إلى تطبيق التعاليم الإباضية كما أنهم تمكن انقلاباً في أحد فروع الأسرة الحاكمة ، كما حدث في إمامة عزان بن قيس بل تبدو فيها بوادر الحركة القومية . والراجح أن السيد فيصل سلطان مسقط حاول تهدئة هذه الثورة بمحاولة تنصيب نفسه إماماً على المذهب الإباضى . على أن نقطة الخلاف بينه وبين زعماء الإباضية ترجع إلى تمسكه بأن يكون إماماً وسلطاناً معاً ، فضلاً عن رفضه الموافقة على كثير من مطالبهم . وقبل اندلاع الثورة كان أول ما اتجه إليه الإباضيون أن يفيدوا من تجاربهم السابقة فقد عملوا على التمكن لأنفسهم بالصلح بين القبائل ، من غافرية وهناوية ، وفعلاً نجحت الثورة بفضل التعاون الذى تم بين زعماء مناطق الشرقية وزعماء الجبل الأخضر . وما يسترعى الانتباه أن الشعور ضد أسرة البوسعيد أصبح قوياً إلى درجة أن لم يهتم أحد لانتخاب أى فرد من أفراد هذا البيت ، كما حدث في حالة الإمام عزان بن قيس . وفي العام التالى لنشوب الحرب العالمية الأولى كانت قوات الإمامة تحيط بالسلطنة من كل جانب ، وعجزت الحكومة البريطانية بسبب اشتراكها في الحرب عن الاستمرار في المقاومة ، وأصبح أهم ما تحرص عليه أن توجد تهدئة بين الإمامة والسلطنة ، خوفاً مما يترتب على دعوة الإمام للجهاد الدينى من تأثير على مركز بريطانيا . وظهر هذا الاتجاه في عام ١٩١٥ ، حينما زار لورد هاردينج نائب الملك في الهند منطقة الخليج ، وطلب من سلطان مسقط أن يسلم الثائرين ، وأن يعقد معهم صلحاً يتنازل بموجبه عن المناطق التى تم لهم احتلالها ، بعد أن أعلن له صراحة أن الإنجليز لن يتمكنوا من الاستمرار في مساعدته . وعندما انتهت الحرب بذلت بريطانيا جهوداً كبيرة لإقرار الوضع بين الطرفين ، ونصح المقيم البريطانى في الخليج للسلطان تيمور بن فيصل بوجوب عقد صلح مع زعماء الداخل . وفي نفس الوقت بعثت بريطانيا عام ١٩١٩ برسالة إلى زعماء عمان تطلب منهم وقف إطلاق النار ، وجاء في هذه الرسالة التى وقعها القنصل البريطانى في مسقط « أكتب إليكم بالخصوص ، لأخبركم أن إرادتنا هى أن نساعد في تأليف حكومة عربية في كل البلاد العربية ، لتحكم حسب عوائدها ، وحيث تخلص العرب من ربة جور الأتراك ، فالرجاء وثيق أنهم

سيقدمون في أمورهم على الطريقة العربية الطيبة ، وبما أن الفرصة الآن سنحت لأن نلتفت إلى عمان فإنه من الواجب أن أحاول أن أشرح لكم سياستنا . وبعد أن أوضح القنصل البريطاني أنه يريد التباحث مع العمانيين ، لإقرار السلام في المنطقة فإنه أخذ يهددهم بقوله « إن لدينا خمسمائة ألف من العساكر المدربة على الحروب في العراق ، وقد فرغوا من أعمالهم الحربية ، ولا حاجة لنا بهم هناك . وبضعة آلاف منهم تكفي للاستيلاء على عمان بأسرها ، لو أننا أردنا بكم سوءاً ، والسيد تيمور يخالفكم في أنه يحاول أن يكون على صداقة معنا . وتضمنت الرسالة تهديداً اقتصادياً ، إذ جاء فيها « إن الحاكم المتولي على السواحل لا يعجز عن فرض الخراج على ما يذهب إليكم .. وتعلمون كذلك أن زمام أمور البحر في أيدينا ، فإن كنتم تريدون مناصبتنا العداء فلن نسمح أن يباع لكم الأرز أو القمح أو الأنواب التي تلبسونها ، وإن نبيح لكم بيع تموركم ، مع العلم بأن كل تجارتكم لا تجري إلا في بلادنا . ولكن إذا كنتم مستحسنون صداقتنا فأنا سوف نقوم بمساعدتكم كما تساعد الآن السيد تيمور ، لكن إن لم ترضوا الآن أن تعاونونا فالعواقب الوخيمة ستحل بكم وليس بناءً ، ومن المتعذر أن نكون أصدقاء لمن لا يريد صداقتنا (١) .

والواقع أنه على الرغم مما في هذه الرسالة من عبارات التهديد ، فإنها تتضمن أيضاً الاعتراف باستقلال عمان ، وقد تأكد هذا الاعتراف في عام ١٩٢٠ ، بعقد معاهدة السيب التي وقعها نيابة الإمام ممثلة الشيخ عيسى بن صالح الحارثي ، ومن قبل السلطان تيمور بن فيصل مستر وينجت قنصل بريطانيا في مسقط . وفي هذه المعاهدة تعهد السلطان بعدم التدخل في شئون عمان الداخلية وتعهد ممثلوا الإمامة من جانبهم بأن يمتنعوا عن الهجوم على مسقط . ورحبت الحكومة البريطانية بهذه الاتفاقية التي عقدت بواسطتها ، واعتبرتها نهاية لصراع

(١) أخذت هذه الرسالة من مكتب إمامة عمان بالقاهرة ، كما يوجد نص هذه الرسالة وغيرها من الرسائل التي تودلت بين القنصل البريطاني ومسقط والشيخ عيسى بن علي في:

طويل بين الإمامة والسلطنة ، وبداية لعهد مستقر لسلطنة مسقط التي كانت دوما تخضع للتهديدات العسكرية من داخلية عمان .

واستمرت الأوضاع هادئة في عمان من ١٩٢٠ إلى ١٩٥٤ ، وتعاقب الأئمة في أثنائها في الحكم ، وخلف الخروصي في عام ١٩٢٠ الإمام عبد الله الخليلي . وعندما توفي الخليلي في عام ١٩٥٤ أعان العمانيون انتخاب الإمام الحالي ، وهو غالب بن علي . ولم تحدث مشاكل خلال هذه السنوات بين الإمامة والسلطنة ، إلا في عام ١٩٣٧ ، حينما احتج الإمام على منح السلطان امتيازاً لإحدى الشركات البترولية التابعة لشركة بترول العراق (١) ، للتنقيب عن البترول في أراضي عمان ، واعتبر أن منح هذا الامتياز خرقاً لمعاهدة السيب . ثم كانت بعد ذلك المشكلة الرئيسية التي حدثت في عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٧ ، وهي احتلال قوات مسقط لأراضي الإمامة في الداخل ، مما دفع بالقضية العمانية إلى مجال المناقشة الدولية .

وتثير معاهدة السيب جدلاً قوياً بين الحكومة البريطانية المتحدة باسم سلطان مسقط ، وبين زعماء الإمامة . ونما يزيد التساؤل عدم وجود نص رسمي لتلك المعاهدة يمكن الاعتماد عليه ، فزعماء الإمامة يؤكدون أنهم وقعوها كممثلين عن الإمام لا عن أنفسهم ، وأنه صدق على هذه المعاهدة كل من الإمام والسلطان . ولكن ديباجة المعاهدة ، كما وردت في تقرير دي ربنج لم ينص فيها على الإمام ، وإنما كل ما جاء فيها « هذا هو الصلح المتفق عليه بين حكومة السلطان تيمور بن فيصل والشيخ عيسى بن صالح بن علي عن سكان عمان » ، كما أنه لا يوجد تصديق من الإمام على هذا الصلح المشار إليه . ولكن زعماء الإمامة يؤكدون أن هناك نصاً آخر للمعاهدة مصدقاً عليه من قبل الإمام ، وإن كان هذا النص ضاع في أثناء إحدى الإغارات التي تعرضت لها عمان من ناحية مسقط . ويشير عدم إظهار النص الخاص بالسلطان ، ثم إنكاره ، تساؤلاً في ذلك الصدد ، وخاصة أن السلطان الحالي يرى أن هذه المعاهدة كانت خطأ سياسياً من والده الراحل ، وأنه لا يعترف بها ،

(١) أنظر . Petroleum Development : Oman & Dhofar .

ويعتبرها اتفاقية مؤقتة وشخصية ، من جانب والده وزعماء بعض القبائل في عمان ، وأنه لا يعقل منطقياً أن يعقد السلطان معاهدة بينه وبين رعاياه (١) .

ولكن مما يؤيد وجهة نظر الإمامة ، في التمسك بمعاهدة السيب ، أنها عقدت في وقت كان فيه الموقف في صالح الإمامة ، وأن بريطانيا هي التي حاولت منذ نهاية الحرب في عام ١٩١٨ ، تنظيم مقابلة بين الشيخ عيسى نائب الإمام والقنصل البريطاني في مسقط ، للتفاوض في عقدها . وعلى الرغم مما يبدو من إلحاح بريطانيا ، كما ذكرنا سابقاً ، ولجوها إلى التهديد ، فإن زعماء الإمامة حرصوا على عقد هذه المعاهدة ، وكانوا أكثر تقديرًا للحقيقة الموقف الذي ترتب على سيطرة بريطانيا على الساحل ، وما قد تؤدي إليه هذه السيطرة من تضيق الحصار على الإمامة ، فوسع بريطانيا في هذه الحالة أن تحقق الإمامة سياسياً واقتصادياً ، ولذلك وافق الزعماء على عقد هذه المعاهدة ، وخاصة أنها قررت ألا تزيد نسبة المكوس الجمركية عن ٥ ٪ ، وأن يتمتع العمانيون بالأمان في موانئ الساحل (٢) . وعلى العموم فإن معاهدة السيب ، وإن لم تحصل على نص رسمي لها فمن المعروف أنها كانت تنص على أربعة شروط بالنسبة للإمامة ، وأربعة شروط أخرى بالنسبة للسلطنة . وهذه الشروط تتناول العلاقات التجارية ، وسلطة المحاكم والمماريين من القانون . غير أن النص الأساسي الذي تعهد به الطرفان ، وألزما نفسيهما به ، هو إلحاح بعدم الاعتداء وعدم التدخل في شئونهما

United Nations Official Records—Records on Oman (١)
General Assembly, Distr. General A / 5846, January 1965
p. 90 ff.

Memorandum Submitted to the Committee by the (٢)
United Kingdom • The Relationships between the
United Kingdom & Sultanate of Muskat & Oman,
United Nations Official Records A / 5846 Annex XI p. 1

الداخلية (١)، فضلاً عما تضمنته الرسائل المتبادلة بين المقيم البريطاني في الخليج وزعماء الإمامة، من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٢، من تأكيدات باستقلال الإمامة عن السلطنة، إذ يحملهم مسؤولية الاعتداءات التي تقع من قبائل الإمامة على القبائل الخاضعة للسلطنة، وبعد ذلك مخالفة لشروط معاهدة السيب، كما تضمنت هذه المراسلات بعض العبارات التي تؤكد صفة الاستقلال.

وبالإضافة إلى ذلك أكد الرحالة والكتاب الذين زاروا مسقط، أو عملوا بها بعد معاهدة السيب ومنهم برترام توماس الذي كان يشغل منصب وزير المالية في حكومة السلطان تيمور بن فيصل، أن السلطان لم تكن تتعدى سلطته الساحل (٢)، وأكد كابتن إكلير أن معاهدة السيب تعد تسليمياً باستقلال عمان، وقال ريتشارد سانجر إن البلاد انقسمت بانتهاء الحرب العالمية الأولى إلى قسمين، إمامة عمان في المنطقة الجبلية، وحكومة مسقط في المنطقة الساحلية. أما الصحفي البريطاني جيمس موريس، فأكد أن معاهدة السيب نصت على سيادة السلطان في عمان، ومن المعروف أن جيمس موريس رافق سلطان مسقط في رحلته إلى داخلية عمان، في عام ١٩٥٥، وامت هذه الرحلة تحت حماية الحراب البريطانية، وبسبب هذه الحقيقة

(١) قررت معاهدة السيب أربعة مواد لصالح الإمامة، وأربعة أخرى لصالح السلطنة، وهي كالآتي: أولاً المواد الخاصة بالإمامة: ١ - لا تفرض ضرائب أكثر من ٥٪ على البضائع الواردة من عمان إلى موانئ مسقط - ومطرح وصور. ٢ - يتمتع العمانيون بالإمامة والحرية في مدن الساحل. ٣ - ترفع جميع القيود على دخول العمانيين مسقط ومطرح وغيرها من موانئ الساحل. ٤ - تتعهد حكومة السلطان بأن تسلم اللاجئين الهاربين من عدالة عمان.

أما المواد الخاصة بالسلطنة فهي: ١ - يتعهد شيوخ وقبائل عمان بعدم مهاجمة المدن الساحلية، ولا يتدخلون في شئون الحكم. ٢ - يتمتع أهالي مسقط المشتغلون بالتجارة بالحرية والأمان في مقاطعات عمان. ٣ - تسليم اللاجئين. ٤ - تقرر مطالب التجار للعمانيين على أساس تعاليم الإسلام.

(٢) أنظر United Nations official Records A/5846 p. 103. See also, Bertram Thomas, Arab Rule Under The Al Bu Said Dynasty in Oman & Zauzibar London, 1939.

اختار موريس عنواناً ساخراً لكتاب صدر له أخيراً ، إذ أسماه سلطان في عمان .

والواقع أنه منذ عقد معاهدة السيب ، وعلى الرغم من أنه لم توضع حدود سياسية بين الإمامة والسلطنة ، فإن الحدود كان متفقاً عليها عرفياً بين الطرفين . واستمر الأئمة يعينون الولاة والقضاة ، ويجمعون الزكاة ، بل تطور الأمر في السنوات الأخيرة من حكم الإمام الخليلي حتى أصبح للإمامة جوازات سفر معترف بها في بعض الدول العربية . ولكن بريطانيا ظلت تبني اعتراضها على عدم وجود كيان مستقل للإمامة لأنه لم يحدث لها أن أقامت علاقات خارجية بينها وبين الدول ، والرد على ذلك أن نفوذ بريطانيا هو الذي حال دون قيام تلك الاتصالات حتى في محيط العلاقات العربية ، إذ بذلت عدة محاولات منذ عام ١٩٥٣ لضم إمامة عمان إلى الجامعة العربية ، ولكن لقي هذا الطلب رفضاً من كثير من الدول العربية التي لم تكن تحررت من إشراف بريطانيا بدعوى أن الإمامة لم تستكمل مقومات الاستقلال الذي ينص عليه ميثاق الجامعة (١) . غير أنه إذا كانت وجهة النظر البريطانية ترى عدم الاعتراف بالإمامة ، بدعوى أنها ليست ذات كيان سياسي مستقل ، فهل يعني ذلك أن مسقط تتمتع فعلاً بهذا الكيان ؟ الحقيقة هي أن سلطنة مسقط تخضع خضوعاً مطلقاً للسيطرة البريطانية ، فبريطانيا تتحكم في السلطنة بمقتضى عدة اتفاقيات ومعاهدات عقدتها مع السلاطين منذ أواخر القرن التاسع عشر . أما الدعوى بأنه كان لسلطنة مسقط علاقات خارجية مع غير بريطانيا من الدول كالولايات المتحدة الأمريكية (١٨٣٣) وفرنسا (١٨٤٤) وهولندا (١٨٧٧) (٢) ، ففي نظر الإمامة أن هذه

United Nations official Records, p. 109.

(١) انظر

(٢) يمكن الرجوع إلى تلك المعاهدات ، وكذلك المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع السلطنة في :

Aitchison : Collection of Treaties, Relating to India & Neighbouring Countries. vols. XI, XII.

المعاهدات لم تكن بين مسقط وهذه الدول ، بقدر ما كانت بين هذه الدول وبين بريطانيا ، فضلاً عن أنها لم تتعد النواحي التجارية (١) . ومن ناحية أخرى يذنب إلى الإشارة إلى أن هناك اتفاقية عقدتها بريطانيا مع مسقط في عام ١٨٩١ ، وأشرفت بمقتضاها على علاقات السلطنة الخارجية ، وقررت أن يكون الممثل البريطاني هو الممثل الأجنبي الوحيد في مسقط . ثم إن الاتفاقيات التي عقدتها بريطانيا مع السلطنة في عهد السلطان تيمور بن فيصل قام بإبرامها باسم السلطان برترام توماس وزير ماليته ، أي أن إنجليزياً كان يتعاقد مع إنجليزى أخرى .

على أن المشكلة الرئيسية التي استوجبت ظهور القضية العمانية في المجالين العربى والدولى هي ما تعرضت له مقاطعات الإمامة ، في عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٧ ، من اجتياح لأراضيها من قبل قوات مسقط التي كان يؤازرها الإنجليز ، ويرجع سبب هذا العدوان إلى عاملين رئيسيين :

أولهما الوعي العربى الذى ظهر فى السنوات الأخيرة بشكل واضح فى المنطقة العربية ، مما جعل بريطانيا تعمل على إحكام سيطرتها على المناطق الخاضعة لها ، منعاً لامتداد تيار القومية العربية إليها .

أما العامل الثانى فيرجع إلى اكتشاف البترول فى أراضى الإمامة ، وطمع بريطانيا فى السيطرة على موارد تلك الثروة . والواقع أنه منذ بواكر اكتشاف البترول فى عمان وبريطانيا تهدف إلى حصار الإمامة اقتصادياً ، ومنع وصول الأسلحة إليها ، مع إثارة الفتن بين القبائل . ثم كانت الخطوة البريطانية الأخيرة ، وهى استخدام القوة المسلحة لإخضاع البلاد ، مع ملاحظة أن احتلال القوات البريطانية لواحة البورى حول ذلك الوقت (١٩٥٥) ، كان له تأثير كبير فى الحصار الفعلى حول المقاطعات الداخلية لعمان وبذا أصبحت عمان تعاني من الضغط العسكرى شرقاً وغرباً .

وعند عرض القضية العمانية على الأمم المتحدة ، فى عام ١٩٥٧ ، كانت وجهة النظر العربية أن الإمامة دولة مستقلة ، حافظت على استقلالها على مدى العصور ،

وأنها دخلت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في علاقات مع البرتغاليين والفرنسيين، وإنها إذا كانت تخضع حالياً للاحتلال من قبل قوات مسقط، أو بالأحرى تخضع للسيطرة البريطانية، فإن هذا لا ينفي عنها صفة السيادة .

أما وجهة نظر سلطان مسقط فهي وجهة النظر البريطانية ، إذ حرّضه الإنجليز على أن يحجج على بحث موضوع عمان ، لأنها جزء من سلطته (١) . وأكد المندوب البريطاني المتحدث باسم السلطان أن بحث هذه القضية يعد تدخلاً في شؤون دولة مستقلة ذات سيادة، وهي سلطنة مسقط، واعتراض على وجود ممثل لإمامة عمان، مدعياً بأنه لا يمثل إلا حزمة من الثأرين ، وحث اللجنة على رفض الطلب العربي . يبحث هذه القضية زاعماً أن قبول مناقشتها سيؤدي إلى إيجاد سابقة خطيرة قد تؤدي إلى الإفادة منها مستقبلاً لأي ثائر أو معارض للحكومة الشرعية القائمة في بلد كانت .

وهكذا ظلت السياسة البريطانية تتأقلم لتلائم مصالحها ، فهي وإن كانت مع سياسة التفكيك، فهي من أنصار التكامل أيضاً ، حينما يتمشى ذلك مع مصالحها . ومعنى ذلك أن بريطانيا ترى التمسك بوحدة مسقط وعمان تحت سيطرتها ، لاستغلال موقع عمان الاستراتيجي، ولحماية مصالحها البترولية في منطقة الخليج ، والدوتيرر وحدة الإقليمين أي أن عمان ومسقط دولة واحدة لا دولتين . وأن الاسم الأصلي كان عمان فقط ، وأن إضافة اسم مسقط ، يرجع إلى قيام الأجانب ممن تعاملوا مع عمان بالإشارة إليها باسم مسقط ، نظراً إلى أن تلك المعاملات كانت تتم عن طريق مرفأ عمان على الساحل ، وهو مسقط ، وأن سيادة السلطان على عمان يمكن الاستدلال عليها من بعض المعاهدات التي عقدها

(*) في الوقت الذي أكد فيه السلطان بأنه لا يعترف بحق الأمم المتحدة في مناقشة قضية داخلية من صميم سيادته ، فإنه أعلن استعداداه لدعوة ممثل شخصي للسكرتير العام لهيئة الأمم، لزيارة عمان والحصول على الحقائق المطلوبة عن الموضوع . وأعلن السكرتير العام للأمم المتحدة في عام ١٩٦٢ قبوله عرض السلطان ، وتشكلت لجنة لاستقصاء الحقائق في عمان ، برئاسة السفير السويدي في إسبانيا . وقامت اللجنة في مارس ١٩٦٣ بزيارة لمسقط ، كما تقابلت مع الإمام غالب بن علي في الدمام . وبعد استقصائها للأوضاع في مسقط عمان ، وسؤالها عدداً كبير من العمانيين ، رفعت تقريراً مفصلاً إلى السكرتارية العامة لهيئة الأمم، ويمكن الرجوع إلى نص هذا التقرير في منشورات الأمم المتحدة عن عمان ، وهو الذي أشرنا إليه في هذه الدراسة .

السلطين مع الدول الأجنبية، حيث كان يشار فيها إلى لقبه باسم سلطان مسقط وعمان ، وأن معاهدة السيب ليست بمعاهدة بالمعنى المقرر في العرف الدولي لأنها لا تعدو اتفاقية تم عقدها بين حكومة السلطان وبعض رؤساء العشائر التي تتضمنها دولته ، وأن تلك الاتفاقية لا تعد ومنج تلك فيها لتلك القبائل بعض التوسع في مباشرة اختصاصاتها الداخلية.. وإذ لما يشير التهم أن تصر بريطانيا على وحدة مسقط وعمان وأن تقف موقف المدافع عن وحدة بلد عربي. ولكن شتان الحال بين وحدة تتم برغبة العمانيين وبين وحدة تفرض عليهم تحت سيطرة بريطانية . وفي أثناء الدورات المتتالية للجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث عرضت القضية العمانية للمناقشة ، اختلفت الآراء بشأنها فاعتبرها البعض مشكلة استعمارية ينبغي تصفيتها ، واعتبرها البعض الآخر مسألة داخلية على حين رأى آخرون عدم اتخاذ قرار فيها قبل استكمال بحثها .

وأصحاب الرأي الأول، وهم يمثلون الدول العربية ومن يؤازرهم من دول المجموعة الآسيوية الأفريقية ، يؤكدون وجهة نظرهم في أن المشكلة استعمارية ، نظراً للمعاهدات غير المتكافئة التي عقدتها بريطانيا طوال القرن التاسع عشر حتى الوقت الحالي ، ولا سيما المعاهدات التي عقدت في السنوات الأخيرة لاستغلال المنطقة ، وإقامة القواعد العسكرية فيها ، فضلاً عن أن تاريخ بريطانيا مع عمان اقترن بتجزئتها إلى سبع وحدات سياسية ، وهي السلطنة على الساحل ، وعمان في الداخل ، والمشايخ السبع على الساحل العماني. وهو ما تسميه بريطانيا بالساحل المتصالح . يضاف إلى ذلك ما اتجهت إليه بريطانيا من اقتطاع ممتلكات عمان ، كما حدث في عام ١٨٥٤ ، عندما حرّضت السلطان سعيد على التنازل لها عن جزر كوريا موريا ، بالإضافة إلى مساعدتها لفارس في الاستيلاء على البندر والموانئ العربية التي كانت تديرها عمان على الساحل الشرقي للخليج. ويمكن الإشارة أيضاً إلى الفصل الكبير بين مسقط وزنجبار في عام ١٨٦١ بمقتضى حكم كانبج ، وكانت مسقط وزنجبار قبل ذلك سلطنة واحدة .

أما أصحاب الرأي الثاني، فيؤكدون أن مشكلة عمان داخلية ،

ويستندون في ذلك إلى قرار محكمة العدل الدولية الصادر في ١٩٥٠، وهو يقضى باستقلال مسقط. ومن المعروف أن هذا القرار صدر على أثر أزمة في العلاقات بين فرنسا وبريطانيا بشأن فرنسة السفن العمانية (١)، وعرفت هذه القضية باسم قضية سفن مسقط. وكان استقلال السلطنة في صالح بريطانيا، إذ حرم على فرنسا التدخل لحماية العمانيين. ولكن ثمة حقيقة تستلفت النظر، وهي أن قرار المحكمة تضمن وضع حدود للسلطنة بحيث تقتصر على الساحل دون الداخل، إذ لم تكن سيادة السلطان على الداخل في ذلك الوقت بعيدة عن حدود عاصمته.

وعلى الرغم مما تخضع له مسقط من إشراف بريطاني واضح في شئونها الداخلية والخارجية، فإن بريطانيا لا تزال تصر على (استقلال) السلطنة وتبرر تدخلها ومساعدتها للسلطان بحكم ما يربطها به من معاهدات، وإنها لم تتدخل إلا بناء على طلبه لقمع ثورات داخلية تلي تأييداً من الخارج. وتؤكد بريطانيا أن الحالة أصبحت هادئة منذ عام ١٩٥٩، وعلى ذلك فلا داعي لإثارة هذه المشكلة.

وبعد فإن القضية العمانية تحتاج إلى اهتمام كبير ويجب أن تفهمها على أنها ليست، كما تحاول بريطانيا تصويرها، نزاعاً بين الإمامة والسلطنة، بل ينبغي أن ننظر إليها على أنها مشكلة استعمارية، وليست طريقة معالجتنا للقضية هي المطالبة بتجريدة عمان إلى سلطنة في الساحل وإمامة في الداخل، أو التمسك بمعاهدة السيب، فهذه المعاهدة ينبغي ألا نوليها أهمية، لما تتضمنه من تكريس فصل مسقط عن عمان، وما هذه المعاهدة إلا واحدة من تلك التسويات التي فرضتها بريطانيا على العالم العربي في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وثمة حقيقة أخرى يجب الإشارة إليها، وهي أنه يظهر واضحاً في معالجة قضية عمان أن التأكيد على الصفة التاريخية للإمامة، ووجود كيان لها

(١) انظر Firouz Kajare, Le Sultanate d'Oman et La Question de Mascate.

في مختلف العصور التاريخية ، لا يؤثر شيئاً في حد ذاته ، وأن معالجة القضية من هذه الزاوية فقط لن يفيد ، إذ تصبح بهذه الطريقة قضية تاريخية ، ولا يكون للكثيرين معلومات كبيرة عنها . وعلى ذلك ينبغي أن يتجه أسلوب معالجة هذه القضية إلى التركيز على وجود الاستعمار البريطاني في عمان والخليج العربي ، وضرورة العمل على تصفيته ، وإلغاء كافة المعاهدات القديمة التي عقدها بريطانيا مع إمارات الخليج ، وهي معاهدات أصبحت لا تتفق مع تطورات العصر . وهذا الأسلوب سوف يجتذب الكثير من الدول التي استقلت حديثاً ، والتي عانت الكثير من الاستعمار ، وبذلك يمكن عملياً تسهيل القضية العمانية عند عرضها في المنظمة الدولية . ولكن ينبغي كذلك ملاحظة أن المناقشات الدولية وحدها لا تحل المشاكل ، وإن كانت تساعد على أن تمضي في الطريق لإيجاد حل عادل ، وعلى ضوء ما مرت به الحركات التحررية عموماً من تجارب . والخلاصة أن الموقف يحتم أن تكون الثورة العمانية مستمرة ومتجددة ، وأن تجد تأييداً من الرأي العام العالمي ، لإزالة بقايا الاستعمار من العالم العربي .

ثم يأتي بعد ذلك حق تقرير المصير ، وإعطاء الشعب العماني الفرصة لاختيار حكومة تحررية تقدمية تتفق مع تطورات العصر ، وأن يكون أول هدف تسعى إليه هذه الحكومة المستقبلية تخليص البلاد من الطائفية والقبلية ، مع المضي قدماً في تطويرها وإنقاذها من التخلف الذي فرض عليها أجيالاً طويلة .

جمال زكريا قاسم

obeykanda.com

حجة تملك ووقف

صادرة عن القاضي سديد الدين أبي محمد عبد الله

لمنفعة عتيقة أبيه واسمها خطلوا ابنة عبد الله

مقدمة توضيحية :

هذه الوثيقة محفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة، في محفظة تحتوى على أربع وثائق ، وهى بحسب ترتيبها الزمنى كالآتى (١) :

١ — وثيقة فاطمية ، وهى حجة وقف الملك الصالح طلائع بن رزيك .

(٢٠ ربيع الثانى ، ٥٥٤ هـ = ١١ مايو ، ١١٥٩ م) .

٢ — وثيقة أيوية ، وهى حجة وقف ابنة جمال الدين محمد .

(٢٤ ذو القعدة ، ٦٣٧ هـ = ١٧ يونيه ، ١٢٣٩ م) .

٣ — وثيقة خاصة بالقاضى سديد الدين أبي محمد عبد الله ، وهى المنشورة هنا ،

(١٩ شعبان ، ٦٤٩ هـ = ٧ نوفمبر ، ١٢٥١ م) .

٤ — وثيقة من أوائل عصر دولة المماليك الأولى ، وهى حجة وقف

نحر الدين يعقوب بن أبو بكر بن أيوب

(١٢ شوال ٦٥١ هـ = ٥ ديسمبر ١٢٥٣ م) .

وجميع هذه الوثائق الأربع غير منشورة ، والوثيقة المنشورة هنا

مكتوبة على قطعتين من الرق موصولتين ، وطولها ١٢٩ سم ، وعرضها ٤٣ سم ،

وأولها تالف . ويتخللها ثقب ، وخطها فى معظمه غير منقوط ، كما هو الحال

فى العصر الأيوبي .

وموضوع هذه الوثيقة تنازل خطلوا ابنة عبد الله ، وهى جارية حشرية

رومية الجنس مسلمة ، عن دار لها وفى حيازتها ، إلى ابن سيدها القاضى

سديد الدين أبى محمد عبد الله ، حتى لا تؤول الدار إلى ديوان المواريث الحشرية بعد وفاتها دون وارث . ذلك أن ديوان المواريث الحشرية تولى النظر فى شئون أموال الحشرين ، وهم الذين يتوفون بلا وارث شرعى (١) . ويبدو أن أولئك الحشرين كانوا يضيّقون بقوانين ذلك الديوان ، ويتنازلون فى حياتهم عما يمتلكون من عقار ثابت ، أو أموال منقولة ، بمختلف الوسائل الشرعية . وكان منشأ ذلك أن الناس اعتقدوا أن العقارات والأموال التى تؤول إلى ديوان المواريث الحشرية لا تصل إلى إرادات ذلك الديوان ، وبالتالي لا تصرف فى وجوه الأوقاف والخيرات المقررة ، بل تذهب إلى جيوب الموظفين . ويؤيد ذلك الاحتمال قول النابلسى فى كتابه لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، أنه إذا توفى حشرى ، وله أموال عند أشخاص متفرقين فى أقاليم الديار المصرية ، كانت عادة الديوان أن يهمل تلك الأموال كأنها ما يكون مقدارها ، لا استحالة تحصيلها . وهذا كلام يشتم منه على الأقل أن موظفى هذا الديوان كانوا يختبئون وراء هذه الاستحالة المزعومة ، ثم يجمعون تلك الأموال لأنفسهم على مر السنين (٢) .

وثمة أهمية ثانية لهذه الوثيقة ، وهى أنها توضح طريقة من طرق التصرف فى العقارات الخاصة بالوقف ، حتى لا تؤول إلى ديوان المواريث الحشرية ، إذ أن الوارد فى الحجة أن الدار المذكورة صارت من ممتلكات القاضى سديد الدين ، وأنه أوقفها بدوره على خطلوا معتقة أيبه ، تلتفع بها بالسكن والإسكان وقبض أجرتها ، مدة حياتها . فإذا توفيت خطلوا لم تذهب الدار إلى ديوان المواريث الحشرية ، بل تصبح وقفاً على ورثة القاضى من الإناث دون الذكور ، وهن فاطمة وخديجة وزينب وآسية ، وعلى عتيقة الست خطلوا المذكورة . وفى هذه الحالة يصبح لـديوان الأحباس حق فى الإشراف

(١) انظر ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٣١٩ ، والقلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ .

(٢) النابلسى : كتاب لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، ص ٥٤ ، نشر .

Claude Cahen & C. Becker (Bulletin d'Etudes

Orientales, Tome XVI, Années 1958—1960, Damas 1961.)

على تلك الدار (١) . وأهمية ثالثة لهذه الوثيقة أنها تصف الطراز المعارى المنزلى فى العصر الأيوبى ، كما تشرح نوعاً من التوثيقات الشرعية والإشهادات فى ذلك العصر (٢) .

نص الوثيقة :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على [سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم] (٣) / أقرت خطلوا ابنة عبد الله ، الحرة ، الرومية الجنس ، المسلمة المرأة الكامل ، عتيقة القاضى الأجل الرئيس المحترم [الأمين زكى الدين] (٤) / أبى محمد عبد القوى بن القاضى الأجل المحترم الأمين أبى الفتوح نصر بن بقا ، مشارف (٥) رباع الأيتام بالقاهرة المحروسة كان رحمه الله عند شهوده طوعاً فى صحة / منها وجواز أمر وسلامة ، غير مكروهة ولا مجبرة ولا جاهلة بما أقرت به فيه ، فى ليلة صباحها تاسع شعبان ٦٠٠ سنة تسع وأربعين وستمائة ، أنها ملكت / ولد معتقها المذكور ، القاضى الأجل ، الرئيس العدل المحترم

(١) انظر ابن مماتى : نفس المرجع ، ص ٣٥٦ ، حاشية ١ ، وكذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار وذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ . (طبعة بولاق) .

(٢) انظر عبد اللطيف إبراهيم : التوثيقات الشرعية والإشهادات ، سلسلة الوثائق التاريخية القومية ، العدد الثانى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٩ ، جزء ١ .

(٣) (٤) ما بين الحاهرتين ضائع فى الأصل ، ما عدا بقايا حروف غير واضحة ، ولعل المراد ما هنا .

(٥) المقصود بالمشارف الموظف المكلف بجمع المتحصلات المالية ، وطلب البيانات التفصيلية الكاملة ، من أية جهة من الجهات الضريبية التى تقع فى دائرة عمله . انظر

ابن مماتى : نفس المرجع ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٨ ، ص ٣٠٤ .

(٦) لى الأصل « شعبان » ، وسوف يذأب الناشر على تكميل الناقص من النقط فيما يلى ، دون إشارة لذلك عموماً .

الأمين ، سيد الدين أبا محمد عبد الله بن القاضي الأجل الرئيس المحترم الأمين
زكى الدين / أبى محمد عبد القوى بن القاضي الأ [جل المحترم] (١) الأمير أبى
الفتوح نصر بن بقا ، ما ذكرت أنه لها ، وفى يدها وملكتها وتصرفها ، وهو
جميع الدار / [الآتى] (٢) ذكرها ووصفها وتحديدتها فيه ، وهى بالقاهرة
المحروسة بحارة الروم السفلى (٣) ، بدرب يعرف بالحارث وعرف بالحجرى ،
وصفتها ... ٤ / الباب المربع عليه زوج أبواب ، يدخل منه إلى دهليز مسقف
بقطع نخل ، علوه غير داخل فى هذا التمليك ، وهو خارج عن حقوق هذه الدار ،
[وينتهى الدهليز] (٥) / المذكور ، إلى باب مربع يدخل منه إلى دهليز [بد] باب
لطيف ، يتوصل منه إلى قاعة سفلى ، تشتمل على أربعة مخازن ، منها ثلاثة (٦)
بأبواب وذات (٨) المرتفعين المجاورين كل منهما غشيم (٨) وبينهما عمودان
رخاماً حاملان لضلع وبستل ، وفى الدهليز المذكور سلم معقود بالحجر ،
يصعد من عليه إلى باب مربع ، يصار منه إلى أربع طباق ... / (١١)

(١) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل ، أعاد بقايا حروف ، ولعل المراد ما هتا .
ولم تذكر كتب التراجم المبادلة شيئاً عن الأشخاص المذكورين فى هذه الوثيقة ، غير أنه
من المعروف أن سيد الدين الوارد هنا تولى وظيفة من وظائف القضاء .

(٢) انظر الحاشية السابقة .

(٣) ذكر المقرئ (المواظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٨) أن حارة الروم انقسمت
إلى حارة الروم السفلى ، وحارة الروم العليا أو الجوانية .

(٤) موضع هذه النقط عدة الفاظ ضائعة فى الأصل .

(٥) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل ، ولعل المراد ما هنا

(٦) فى الأصل « ثلثة » ، بدون الألف الوسطى

(٧) الغشيم هنا الخشب الخام

Steingass : Persian—English Dictionary.

(٨) موضع هذه النقط غير واضح فى الأصل .

ويحيط بجميع هذه الدار ويحصرها ويشتمل عليها [وعلى ...] (١) / حقوقها كلها ، حدود أربعة ، الحد الأول منها ، وهو القبلى ، ينتهى إلى دار تعرف بنجوم (٢) [والحد] (٣) الثانى وهو البحرى ينتهى إلى / فندق يعرف بمخلوف بن على الحلال ، ثم بورثته ، والحد الثالث ، وهو الشرقى ، ينتهى إلى دار تعرف بأبى القيم بدر وعلوى بن دواس السيوفى [وإلى الدرب] (٤) / المقدم ذكره وفيه بابها ، والحد الرابع منها ، وهو الغربى ، ينتهى إلى الخشابين المعروفة بحارة الطوارق ، ويجاورها من هذا الحد دار تعرف بخليف بن عبيد [ملك هذه الدار] (٥) / بحدودها وحقوقها ومرافقها ، وأرضها وبنائها ، وسفلها وعلوها ، وما يعرف بها وينسب إليها من حقوقها كلها خلا علو الدهليز الأول المقدم ذكره أعلاه الخارج عن حقوق هذه الدار ، فإنه لم يدخل فى هذا التملك ملكاً صحيحاً شرعياً ، يحيزه الشرع الشريف وتقتضيه أحكامه ، قبله القاضى العدل سديد الدين ، المقر له فيه من معتقد / أييه خطلوا المذكورة لنفسه قبولاً شرعياً ، وسلمت خطلوا المقررة المذكورة ، للقاضى العدل سديد الدين المقر له فيه ، الدار المقر بها فيه ، المحدودة فيه ، فتسلمها منها تسلم مثله لمثلها ، وصارت بيده [كأمثاله] (٦) / ، ومالا من ماله يتصرف فيها كيف شاء ، وذلك بعد اعترافهما بمعرفة هذه الدار المعرفة الشرعية النافية للجهالة ، وأنهما نظراها وأحاطا بها علماً وخبرة . ولما كان بتاريخ التاسع عشر من شعبان سنة تسع وأربعين وستائة ، أشهد القاضى الأجل العدل المحترم الأمين سديد الدين أبو محمد عبد الله

(١) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل .

(٢) موضع هذه القنط بقايا حروف غير واضحة .

(٣) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل .

(٤، ٥، ٦) ما بين الحاصرتين ضائع فى الأصل ما عدا بقايا حروف ، ولعل المراد ما هنا .

المقرر له فيه المذكور على نفسه شهوده طوعاً في [صحة] (١) منه وجواز أمر وسلامة ، أنه تصدق ووقف وحبس وحرّم وأبد ، ما هو له وفي يده وملكه ملكاً صحيحاً شرعياً ، ونظره حالة هذه الصدقة ، [وأحاط] (٢) به علماً وخبرة نافية للجهالة ، وهو جميع الدار الموصوفة المحدودة أعلاه [خلا علو الدهليز الأول] (٣) ، صدقة صحيحة شرعية ، موقوفه محبسة محرمة / مؤبده ، لا تباع ولا توهب ولا تملك ولا تورث ولا ترهن ولا يبادل بها ، على معتقة أيّه خطوا ابنة عبدالله ، الحرة الرومية الجنس المسلمة المذكورة ، المملكة أعلاه ، مدة حياتها تنتفع بها بالسكن والإسكان وقبض أجرتها أسوة أمثالها ، فإذا توفيت كان النصف والربع ثمانية عشرة سهماً من أربعة وعشرين شائعاً من هذه الدار / المحدودة أعلاه ، خلا علو الدهليز الأول المستثنى منه أعلاه ، الخارج عن حقوق هذه الدار ، وقف على بنات هذا الواقف المذكور لصلبه الأربع خاصة / دون باقي أولاده ، وهن فاطمة وتدعى ست العيال ، البالغ ، وخديجة وتدعى ست الفقهاء ، العصر (٤) ، الشقيقتان اللتان رزقهما من زوجته نقيسة . . . (٥) وزينب السادسة العمر ، واسية الرابعة العمر ، الشقيقتان اللتان رزقهما مستولدته نزهة المولدة الجنس المسلمة ، بالسوية بينهما إن كن موجودات ، أو من كان منهم بالسوية بينهما ، فإن لم يكن منهن / إلا واحدة

(١) ما بين الحاصرتين ضائم في الأصل ، ما عدا بقايا حروف غير واضحة ، ولعل المراد

ما هنا .

(٣) ما بين الحاصرتين مكتوب بين السطرين .

(٤) العصر هي السيدة التي بلغت من العمر عشرين سنة ولم تنجب . المحيط .

(٥) موضع هذه النقطة ألفاظ غير واضحة في الأصل .

كان النصف والربع بكاملة لها ، فإن كن الأربع موجودات يوم ذاك وتوفيت احداهن ، عاد ما كان لها من النصف والربع لأخواتها الثلاث الباقيات بعدها في قيد الحياة بال [سوية] (١) / بينهن مضافا لما لهن من ذلك . فإن توفيت إحدى الثلاث عاد ما كان لها من ذلك ، لاختيها الباقيتين بعدها في قيد الحياة بالسوية بينهما مضافا لما لهما من ذلك ، فإن توفيت إحداهما / عاد ما كان لها لأختها الباقية بعدها في قيد الحياة مضافا لما لها من ذلك ، تنتفع بذلك أيام حياتها ، فإذا توفيت ، [البتت الرابعة ، ولم يبق منهن أحد] (٢) ، عاد ربع هذا الوقف وهو النصف والربع شائعاً من هذه الدار ، وقفاً على أولاد هذا الوقف القاضي العدل سيد الدين المذكور ، الموجودين يوم ذاك ، ذكورا كانوا أو إناثا ، واحداً كان أو أكثر ، وعلى من يحدثه الله تعالى له من الأولاد ، ذكورا كانوا أو إناثا / واحداً كان أو أكثر ، بالسوية بين الجميع ، لامزية لذكر على أنثى . فمن توفي من أولاد هذا الوقف ، سواء كان له ولد أو لم يكن ، عاد نصيبه لأخوته أهل طبقته من أهل هذا الوقف / أولاد هذا الوقف بالسوية بينهم ، لامزية لذكر على أنثى ، يجرى الحال فيهم كذلك . فإذا لم يبق منهم إلا ولد واحد ، ذكراً كان أو أنثى ، عاد النصف والربع بكاملة له ، فإن لم يكن للواقف المذكور / يوم ذاك أولاد ذكور ولا إناث ، أو كانوا وانقرضوا على ماعين أعلاه ، وتوفي الآخر منهم ، ولم يبق منهم أحد ولا حمل يرجع بنسبه للواقف المذكور أعلاه ، عاد النصف والربع من هذه الدار ، وقف على أولاد أولاد هذا الوقف القاضي العدل سيد الدين المذكور ، الموجودين يوم ذاك ذكورا كانوا أو إناثا ، واحداً كان أو أكثر بالسوية بينهم ، لامزية لذكر / على أنثى ثم على أولادهم ، ثم على أولاد ، أولادهم ثم على أولاد أولادهم ، أبداً ماتوا والدوا وتناسلوا ، طبقة بعد طبقة ، وبطناً بعد بطن ، تحجب الطبقة العليا منهم الطبقة السفلى ، أبداً / ماتوا والدوا وتعاقبوا ، بالسوية بينهم ، لامزية

(١) ما بين الحاصرتين ضائع في الأصل ، ولعل المراد ما هنا .

(٢) ما بين الحاصرتين مكتوب بين السطرين .

لذكر على انثى . على أن من توفي من أهل هذا الوقف ، ولم يكن له ولد ، ولا ولد ولد ، ولا أسفل من ذلك من ولد الولد ، عاد نصيبه لاخته أهل طبقته من أهل هذا الوقف بالسوية بينهم ، لازمة لذكر على انثى ، سواء كان واحداً أو أكثر ، ذكراً كان أو أنثى ، يجرى الحال بينهم كذلك ، فإن لم يبق منهم إلا ولد واحد ، عاد النصف والربع بكامله له / أيام حياته . وإن لم يكن للواقف المذكور يوم ذاك أولاد ، ذكورا ولا إناثا ، أو كانوا وانقرضوا على ما عين أعلاه ، وتوفي الآخر منهم وانقرضوا بأسرهم ، ولم يبق منهم أحد ، ولا حمل يرجع / بنسبه لهذا الواقف من جهة أب وأم ، عاد النصف والربع من هذه الدار وقف على من يرجع لهذا الواقف بتعصيب بالسوية بينهم ، فإن لم يكن ، فعلى من يرجع إليه برحم بالسوية بينهم ، فإن لم يكن ، عاد النصف والربع من هذه الدار وقف على فقراء المسلمين حيث كانوا ، يتولى الناظر في هذا الوقف قبض مستغل (١) النصف والربع من هذه الدار ، وصرفه على الفقراء المذكورين على ما يراه / بحسب طاقته واجتهاده . والربع الباقي من هذه الدار ، وهو ستة أسهم من أربعة وعشرين سهماً شائعاً من جميعها ، وقف على حلم (٢) المولدة الجنس المسلمة ابنة عبد الله الحره ، عتيقة خطلوا المذكورة / المقره المملكة الموقوف عليها ، أولاً أيام حياتها تنتفع بذلك بالسكن والإسكان وقبض الأجرة أسوة أمثالها أن كانت موجودة يوم ذاك ، فإن لم تكن موجودة يوم ذاك ، أو كانت / وتوفيت ، عاد الربع المذكور وقفاً على بنات القاضى العدل سيد الدين الواقف المذكور الأربع المذكورات أعلاه خاصة ، وهن فاطمة وتدعى ست العيال ، وخديجة وتدعى / ست الفقهاء ، وزينب السداسية العمر ، وآسية الرباعية العمر ، بالسوية بينهم ، إن كن موجودات يوم ذاك ، [أو أحدهن] (٣) مضافاً لما لهن من ذلك على ما فصل أعلاه ، فإن لم تكن موجودات

(١) المستغل هو كل ما أغل من أرض أو عقار أو حانوت أو سوق . المقرينى :

السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٧١ ، حاشية ٢ .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) ما بين الحاصرتين مكتوب بين السطرين .

أو كن وانقرضن / على ما فصل أعلاه ، عاد الربع المذكور وقفاً على أولاد
الواقف المذكور على ما فصل وبين أعلاه ، مضافاً لما لهم من ذلك فإن لم
يكونوا موجودين ، أو كانوا وانقرضوا على ما فصل وبين أعلاه ، عاد /
لربع المذكور وقفاً على أولاد أولاد هذا الواقف المذكور ، ثم على أولادهم ،
ثم على أولاد [أولاد] (١) أولادهم ، ثم على أولاد أولاد [أولاد] (٢) أولادهم
ونسلمهم وعقبهم . على ما نص وشرح أعلاه ، مضافاً لما لهم من ذلك . فإن لم
يكن / لهذا الواقف يوم ذاك أولاد أولاد ، ولا وجد لهم نسل ولا عقب ،
أو كانوا وانقرضوا على ما فصل وبين أعلاه ، عاد الربع المذكور وقف على
من يرجع لهذا الواقف بتعصيب على ما بين ، أعلاه ، مضافاً لما لهم من ذلك ،
فإن لم يجد فعلى من يرجع إليه برحم مضافاً لما لهم من ذلك ، فإن لم يجد فعلى
فقراء المسلمين حيث كانوا على ما بين أعلاه ، مضافاً لما لهم من ذلك ، كل ذلك بين
الموقوف عليهم بالسوية / لأمرية لذكر على انثى خلا الفقراء ، فإن الناظر
في هذا الوقف يصرف مستغله عليهم يوم ذاك ، على ما يراه من تفضيل
ومساواة ، وإعطاء وحرمان ، وذلك جميعه خلا علو الدهليز الأول / من هذه
الدار ، الخارج عن حقوقها المستثنى منه أعلاه ، فإنه لم يدخل في هذا الوقف .
وذلك بعد البداية بعمارة هذه الدار بالموقوفة المحدودة أعلاه ، ومرمتها وإصلاحها /
وما فيه الحفظ لعينها والنمو في أجزائها . وعلى أن الناظر في هذا الوقف يؤجره
سنة فما دونها ، ولا يدخل عقداً على عقد . وجعل الواقف المذكور القاضي
العدل / سديد الدين ، النظر له والولاية عليه لنفسه أيام حياته ، ثم من بعد
وفاته لولده لصلبه فتح الدين نصر الله ، إن كان موجوداً يوم ذاك ، فإن لم
يكن موجوداً كان النظر لولده / لصلبه أيضاً جمال الدين أحمد ، إن كان موجوداً
أيضاً يوم ذاك (٣) فإن لم يكن موجوداً كان النظر للبالغ الرشيد ... (٢) من أهل

(١، ٢) ما بين الحاصرين مكتوب بين السطرين .

(٣) موضع هذه النقطة كلمة غير واضحة في الأصل

هذا الوقف، فإن لم يكن في أهل هذا الوقف بالغ رشيد ، كان النظر لحاكم المسلمين يوم ذلك بالقاهرة المحروسة، يولى ذلك من يراه من عدوله وأمنائه ، فإن بلغ من أهل هذا الوقف أحد وأنس رشده ، عاد النظر إليه / فإن عدم عاد النظر للحاكم المذكور ، يجرى الحال في ذلك كذلك إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، فقد تمت هذه الصدقة ووجبت، وصارت صدقة موقوفة محبسة محرمة مؤبدة جائزة ماضية لوجه الله تعالى وطلب ثوابه ، وابتغاء مرضاته، والقربة لديه وللذلي عنده، لا تباع ولا توهب، ولا تملك ولا تورث، ولا ترهن ولا يناقل بها محفوظة / على شروطها، مسجلة على نجلها المذكورة في هذا الكتاب لا يوهنها اختلاف عصر ولا يبطلها تقادم عهد، كلما مر عليها زمان أكدها، وكلما أتى عليها أوان سددها، وكلما حللها محلل حرمت، وكلما تأول فيها تناول تأكدت، وكلما قدح فيها قدح صحت ووجبت، إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن سميع عليم (١). وقبلت خطوا الموقوف عليها أولاً هذه الصدقة قبولا شرعياً، ورفع هذا الواقف عن هذه الدار يملكه رفعا تاماً، ووضع عليها يد ولايته، يتصرف في ذلك تصرف مثله في مثل ذلك، وبه شهد في التاريخ المعين أعلاه، وهو التاسع عشر من شعبان سنة تسع وأربعين وستائة / (٢)

أشهدني القاضي	أشهدني القاضي
المحترم الأمين	الأجل الرئيس العدل
سيد الدين المملك الواقف وخطوا	الأجل
المملكة الموقوف	الرئيس العدل
عليها فيه أولاً بما نسب إليهما بأعاليه	الأمين سيد
فشهدت عليهما بذلك في	الدين الواقف
التاريخين المذكورين أعلاه المكتبين في	المذكور بذلك
العشر الأوسط من شعبان	كبيه أبو القاسم عبد المنعم

(١) سورة البقرة ، آية ١٨١ .

(٢) موضع هذه النقط سطور غير واضحة القراءة .

سنة تسع وأربعين وستائة كتبه
عبد الله بن الكامل
في تاسع عشر شعبان
سنة تسع وأربعين وستائة

أشهدني القاضي الأجل الرئيس

العدل الأمين سديد الدين

الواقف المذكور بذلك

كتبه عبد الحق بن عيسى بن عمر في

التاسع عشر من شعبان سنة

تسع وأربعين وستائة

أشهدني القاضي الأجل الرئيس المحترم
العدل

الأمين سديد الدين المملك الواقف
وخطلوا المملكة

الموقوف عليها بما نسب إليهما بأعاليه
في تاريخه

المذكورين أعلاه وهما ليلة تاسع شعبان
ونهار التاسع

عشر منه الذي من سنة تسع وأربعين
وستائة

كتبه عبد الصمد بن ثقيف

أشهدني القاضي
اجل الرئيس

المحترم العدل الأمين
سديد الدين

الواقف المذكور
بذلك

كتبه محمد بن محمد
ابن خلكان

في تاسع عشر
شعبان سنة

تسع وأربعين
وستائة

أشهدني القاضي الأجل الرئيس المحترم العدل الأمين

سديد الدين المملك المقر له الواقف المذكور

وخطلوا المملكة المقررة الموقوف عليها ،
بما نسب إليهما بأعاليه ، في تاريخيه المذكورين أعلاه
وهما ليلة يسفر صباحها عن تاسع شعبان
واليوم التاسع عشر من شعبان من سنة تسع
وأربعين وستمائة فشهدت عليهما بذلك
كتبه عثمان بن علي بن يحيى
وأشهد أن خطلوا المقررة المملكة المذكورة فيه
مالكة لما ملكته إلى حين خروجه عن ملكها إلى ملك القاضي
العدل سديد الدين ، وأشهد أن القاضي العدل سديد الدين
مالك لما وقفه أعلاه
كتبه عثمان بن علي بن يحيى (١)

(١) الخطوط المائلة الواردة في المتن للدلالة على أوائل السطور في الأصل ، وكذلك علامات الترقيم الحديثة والضبط ، كلها وسائل توضيحية من عمل الناشر لتسهيل القراءة والبحث . ويسر الناشر أن يشكر هنا د . عبد اللطيف إبراهيم لمراجعته هذه الوثيقة وتصحيحه عدداً من مواضع التصحيح بها .

مقتبسات من ابن إياس

المقتبسات المختارة هنا منقولة بنصها للقارىء ، من الطبعة الأخيرة من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، مع تشرىح الفقرات فى كل مقتبس منها بكثير من علامات الفصل والوصل والترقىم .

وأول هذه المقتبسات فاتحة أخبار سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ م) ، وهى السنة الثالثة من عهد السلطان قانصوه الغورى ، حين تم أمر هذا السلطان فى السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، فأخذ فى إعلان أسماء الموظفين لحكومته . أما منبع اختيار هذه الصفحات ، فهو احتواؤها على تصوير استاتيكى شامل لجميع كبار الموظفين فى السلطنة المملوكية الجديدة ، قبل أن يتحركوا فى دوائر وظائفهم المختلفة ، وهو تصوير يقف بالقارىء ويستوقفه ، ليرى منه لنفسه أن مصر المملوكية لم تكن للمصريين ، من قريب أو بعيد ، بل كانت لفئات من الممالك الأجانب المسيطرين باسمائهم وأسماء زوجاتهم ، وزطاناتهم التركية وغير التركية ، على جميع شئون البلاد الإدارية والاقتصادية والاجتماعية .

ويتلو هذا التصوير جملة من أخبار السلطنة المملوكية ، صغيرها وكبيرها ، وبعضها سياسى ، وبعضها اقتصادى أو غيره ، حسبما اتفق من الترتيب الزمنى المطلق ، سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، ويوماً بعد يوم ، وهو ما تجرى عليه كتب الحوليات التاريخية فى جميع اللغات الشرقية والغربية فى العصور الوسطى .

والمقتبس الثانى أخبار جاءت من مكة إلى القاهرة مع مبشر الحاج ، أواخر سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) ، وهى تصف لأول مرة ، وفى قليل من التفصيل ، جميع أعمال البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى والمداخل الجنوبية للبحر الأحمر ، منذ مجئ السفن البرتغالية من غرب أوربا إلى تلك الجهات ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أى منذ عشر سنين قبل وصول هذه الأخبار الموجزة إلى القاهرة . ويبدو من هذه الأخبار التى أوردها ابن إياس ، عرضاً ضمن أخبار مكة والحمل المصرى السنوى ، أن المعلومات الجغرافية المملوكية بصدد البرتغاليين وأهدافهم واتجاهاتهم كانت حتى وقتذاك ضئيلة قليلة جاهلة ،

وأن إفاقة السلطنة المملوكية للخطر البرتغالي على شرايينها التجارية الواصلة وقتذاك إلى الهند جاءت متأخرة ، وكان تأخيرها هذا سبباً من عديد الأسباب التي أنزلت بأسطول مملوكي كبير هزيمة بحرية مشهورة ، على أيدي البرتغاليين في المياه الهندية ، شمالي بومباي الحالية ، كما أنزلت بجيوش مملوكية بقيادة السلطان قانصوه الغوري نفسه هزيمة أكثر شهرة ، على أيدي العثمانيين ، وهي هزيمة مرج دابق شمالي حلب الشام .

والمقتبس الثالث بيان وصفي لهزيمة مرج دابق ، وهي الهزيمة التي ختمت بخاتم الانهيار على السلطنة المملوكية في مصر ، وافتتحت بها السلطنة العثمانية سلسلة انتصاراتها الزاحفة عبر الشام إلى مدينة القاهرة ، حيث أعلن السلطان سليم العثماني نهائياً أن مصر باتت ولاية تابعة للعثمانيين . وفي مطلع هذا المقتبس تصوير للجيش المملوكي ، وعلى رأسه السلطان قانصوه الغوري يرتب الصفوف استعداداً للحرب والقتال ، وكأنه وحاشيته وقادته في موكب العودة من انتصار مملوكي كبير ، أو احتفال بمولد من موالد الأولياء الصالحين ، أو يوم الخروج لصلاة أحد العيدين . غير أنه لم تكن بضع ساعات حتى صار ذلك الموكب الاستعراضى الحافل مركزاً دارت حوله معركة حامية دامية ، بدأت بمأساة سقوط السلطان قانصوه الغوري ميتاً بالفالج في الميدان ، وانتهت بمأساة انهزام الجيش المملوكي ورجوعه القهقري مفلولاً مكسوراً إلى حلب ودمشق ، ثم إلى القاهرة .

والمقتبس الرابع ترجمة طويلة للسلطان قانصوه الغوري ، بعد وفاته في مرج دابق ، وهي ترجمة تحليلية ناقدة لأعمال هذا السلطان ، وصفاته الشخصية وسياسته . ويبدو واضحاً من نعمة هذه المقتبس أن ابن إياس لم يكن من المعجبين بالسلطان قانصوه الغوري ، وأن محاسن هذا الرجل لم تكن في نظره شيئاً بالقياس إلى مساوئه . غير أن ابن إياس لم يكن منصفاً في هذا التقدير ، لأنه أغفل فيه أن هذا السلطان الطاعن في السن اعتلى دست السلطنة في دولة نخرت فيها عوامل الاحتضار والزوال منذ سنين ، وربما كانت الرغبة في مقاومة هذه العوامل هي التي أدت بهذا الرجل الطيب القلب إلى اتخاذ ما اتخذ من إجراءات إنقاذية مالية تعسفية كثيرة .

والمقتبس الخامس قائمة بأسماء بعض الأمراء المالك والقضاة ، وكبار الموظفين والمهندسين والتجار، وأساتذة المهن والحرف والصناعات، من المصريين وغير المصريين ، ممن قرر السلطان سليم الأول العثماني إخراجهم من القاهرة ونفيهم إلى إسطنبول ، لأسباب متعددة ، وربما كانت الوطنية المصرية أحد هذه الأسباب . وتبلغ هذه المجموعة نحو مائة من الرجال ، ولكنها تبلغ أكثر من ذلك ، سواء من ناحية الكم العددي ، أو الكيف الفنى ، بدليل ما أورده ابن إياس فى كتابه ، قبل هذه القائمة وبعدها ، من أسماء خرج أصحابها منفيين من القاهرة إلى إسطنبول . فضلا عن أن هذه الاسماء ما تقدم منها وما تأخر ، اشتملت فى الواقع على مجموعة المهارات الإدارية والصناعية التى اقتلعها العثمانيون من مصر ، ليفيدوا منها فى بناء عمارتهم التى تزدان بها إسطنبول الحالية . ولم تكن هذه الخسارة أول الخسائر المصرية أو آخرها ، بسبب الاستيلاء العثماني على مصر ، وهى تدل فيما تدل على أن مصر فقدت وقتذاك السيطرة على مستقبلها القريب والبعيد ، وذلك لمدة أربعة قرون مظلمة ، وتناول منها كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ما يزيد عن خمس سنوات قصيرة ، أى حتى سنة ٩٢٨هـ (١٥٢٢م) ، وهى السنة التى التى توفى فيها محمد أحمد بن إياس .

المقتبس الأول

فاتحة أخبار السنة الثالثة

من عهد السلطان قانصوه الغورى

ثم دخلت سنة ثمان وتسعمائة ، فيها فى المحرم كان خليفة الوقت يومئذ الإمام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى .

وأما القضاة الأربعة فالقاضى برهان الدين إبراهيم بن أبي شريف المقدسى الشافعى ، والقاضى سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبي الحنفى ، والقاضى البرهان إبراهيم الدميرى الملكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

فلما دخلت هذه السنة ، وتم أمر السلطان فى السلطنة، وثبتت قواعد دولته، قرر الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميراً مقدم ألف ، منهم أرباب الوظائف، وهم الأتابكى قيت الرجبى أمير كبير ، وقرقاس من ولى الدين أمير سلاح ، وأصطدر من ولى الدين أمير مجلس ، وقانى باى قرا من ولى الدين أمير آخور كبير، وطراباى الشريقى نوبة النوب ، وأزدمر من على باى دوادار كبير ، وخاير بك من ملباى حاجب الحجاب ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمون الذين بغير وظائف ، وهم خشكلى البيسى الظاهرى خشقدم ، وقانصوه بن سلطان جر كس المعروف بابن اللوقا، والأمير سودون العجمى ، وماماى المحمدى المعروف بجوشن، وأنصبباى من مصطفى، وتمر الحسنى ، وطقطباى العلاى نائب القلعة ، وطقطباى من ولى الدين ، وهو الوزير والأستادار ، ودولات باى قرموط ، وقانصوه من طراباى المعروف بكرت، وأرزمك الشريقى الناشف ، وأزبك من طراباى المكحل ، ونوروز من أزبك أخو يشك الدوادار ، وأبو يزيد المحمدى ، وعلى باى السيفى يشك الذى كان

نائب غزة ، وخاير بك السيقي إينال كاشف الغريبة ، وجانبلاط المحمدى أخو قانصوه البرجى . انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر (السلطان) من الأمراء الطليخانات خمسة وسبعين أميراً ، منهم أرباب الوظائف عشرة ، وهم عبد اللطيف الزمام والخازندار الكبير ، والمقر الناصرى محمد بن السلطان شاد الشراب خاناه ، وجانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوا دار ثانى ، ومغلباى الشريفي الزرد كاش الكبير ، وتمراز جوشن رأس نوبه ثانى ، وجان بردى تاجر المالك ، وطومان باى قرا حاجب ثانى ، وقلج من ولى الدين أمير آخور ثانى ، وتانى بك من يشبك محتسب القاهرة وخازندار ثانى ، وعلان والى القاهرة ويعرف بعلان من قراجا ، وقانصوه من دولات بردى أستاذار الصحبة ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف ، فهم قرقماس الشريفي ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم على خشكلى من ولى الدين بتقديم ألف ، وعلى قرقماس الشريفي فلم يتم لها ذلك من بعده ، وآل أمرها إلى إمرة طليخاناه ، وأزدسر من يشبك ، وخشكلى من ولى الدين ، وقانصوه من برد بك ، وجانى بك من أزدسر ، وبرسباى العلاى ، وطخ المحمدى الذى كان نائب القلعة ، وقانصوه الإبراهيمى ، وتانى بك المعروف بالأبح ، وتانى بك النجمى ، وقيت الأحول ، ويشبك من تبوك ، وبرقوق من خيجا بردى ، وشاد بك الناصرى ، وجانبلاط المحمدى ، وجان بلاط من ولى الدين أيضاً ، وقرقماس من يشبك ، وتمرباى من سيدباى ، وبك بلاط من أقباباى ، وقانى باى من يشبك ، وجانم الإبراهيمى ، وأزبك الشريفي ، ومصر باى الشريفي وطومان باى من طوبزه ، ونوروز الشريفي ، وبلاط من حيدر ، ومامش الرجى ، وكرتباى من حيدر ، ومغلباى من محتجا ، وجان بلاط من قانصوه ، وأصطمر من بشان ، وقانى باى من أزدسر ، وسودون من مصطفى ، والماس من برد بك ، وقنك من شاد بك ، وجانم من خضر ، وجان بردى من قائم ، وبرسباى الدمرداشى ، وتمر الإبراهيمى ، وجانى بك الشريفي ، وتنم من شاد بك ، ومامى من قيت ، وقانصوه من يشبك ، وقان بردى من قانصوه وأرزمك من برد بك ، وتمرباى السيقي قجاس خازندار العادل طومان باى ، وجانم من قانصوه ، ومسايد من حيدر ، وبرش من عبد الكريم ، ومسايد أيضاً من قانصوه ، وجانى بك قرا الشريفي ، وطرا باى الشريفي ، وقايتباى من

جاني بك المعروف بالأشقر ، وشادي بك اليحياوي ، وقانصوه من يشبك ،
وتاني بك السيفي أقبردي ودولات باي من مصطفى ، وقاني من سودون
الإبراهيمي ، وجانم من قجاس وطراباي من جانم ومغلباي من جانم ومصر باي
الأبو بكرى ، وجاني بك من حيدر ، انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر السلطان الأمراء العشرات مائة وخمسة وثمانين أميراً ، وهم عنبر
مقدم الممالك ، وخشكلى الشريفي وتبك الناصري وأسنباي من برسباي وقراكرز
الشريفي وجاني باي من يشبك وبكتمر من ولي الدين وسنقر العلای وقلج
السيفي قانصوه خمسمائة ، وجانم السيفي قايتباي ، وأسنباي من قروس ، وطقطمش
السيفي إينال ، وسيباي الأبو بكرى ، وإينال من جانم ، وقانصوه الإبراهيمي
وسودون من حيدر ، ويوسف من مصطفى ، وعلان من ولي الدين ، وأقبردي
الحسنى وقنبك الشريفي وبهادر من قرقاس ، وأزدمر من عبد الرحيم ويبردي
من جانبلاط وبرد بك الشريفي ، ويبردي من كسباي وأركاس السيفي قانصوه
وبكباي من قراجا وطهاي باي من مصطفى ، وأقبردي الشريفي وإينال باي من
مصطفى وخاير بك من قجاس ، وجاني بك من مهدي وأقباي السيفي يشبك وطوبى
الناصرى ورسباي من برد بك وبكبلات المحمدى ، وأزدمر من تمر باي وناق
من بخشاي ونوروز من يلباي وشاهين الجمالى يوسف ناظر الخاص وجانم
السيفي قايتباي ونوروز السيفي قاني باي وقنبك السيفي يونس ودولات باي
الإبراهيمي ، وجاني باي الحسنى وسنطباي المحمدى وتغرى بردى الشرفى
ودولات باي السيفي يشبك وجاني بك من جانبلاط وأزدمر السيفي أينال وقانم
من تاتق وقنبك من قاني باي أمير جندا ، وقصروه من قانصوه ، وتغرى بردى
الترجمان ، وقرقاس المحمدى ، وجان بردى من ولي الدين وتغرى بردى الحسنى ،
وأزدمر المهنمدار ، وأزبك النصرانى أمير شكار ، وقانصوه من أبى يزيد ،
وقنصوه الناصري ، وأبرك السيفي لاجين ، وبلباي من على باي ، وأبو يزيد من
قانصوه ، ومغلباي من أياس ودولات باي المحمدى وقانصوه من جانم وناق
من أنت ، وتبك من أزم ، وقطلو باي من عبد الرحيم ، وقاني باي من أزم
وقرقاس الإبراهيمي ، وأزبك من قانصوه ، وماماي من قبيل ، وجانم من قجاس ،
وقانصوه العلای ، وقلج الشريفي ، وعلى باي من صدقة ، ونكبلات من قانصوه

وإياس المحمدي وقانصوه من يشبك، وبرسبای من جانی بك، وقانصوه من عبد الرحيم، وطرابای السيفی أربك، ونوروز العالی وملاج من برد بك، وبرسبای السيفی يشبك، وجانی بای الحسنی وكریم بردی من قروس، وأربك من مصطفى وقانصوه من جابلط، وقرقماش الشریفی وتمر من ولی الدين ودولات بای من أربك وأربك الشریفی، وكان بلا من مغلبای، وبكباى السيفی أربك، وتغرى بردی المحمدي، وتبك المحمدي، وبرد بك السيفی، وقانی بای، ويبرس من قرقماش وأركماش الإبراهيمی، وأركماش السيفی أربك ويوسف البدی كاشف البحيرة وهو الوزير الآن، ويبرس من يشبك وخاير بك العالی، وأقبای من يشبك وتبك من أياس، وجانم من يشبك، وقانصوه من جانم ومصر بای من لاجين وخاير بك الشریفی وجانم المحمدي وعلى بای السيفی خشكلى وجانی بك الناصرى كاشف منفلوط وجانبلط الشریفی قوان بردی الشریفی وأربك الإبراهيمی وقانم من كرتباى وتغرى برمش السيفی كسبای وأبرك الشریفی وجانم من مصطفى وأقبردى من قلیج وأقطوه من قانصوه ويوسف من مصطفى وقانصوه من عبد الرحيم وتمر بای من حكم ويسق اليوسف وأقطوه من يشبك وبرسبای من قراجا وجان بردی من مصطفى وتم من قانی بای واقيردى المحمدي أيضاً وبرمش من يبردى وبرد بك من أيدكى وأسنبای من برد بك وقطلو بای من تمر وقايتباى من طوبرزه، وكرتباى السيفی يشبك، وقان بردی من قجماش وأركماش السيفی قانصوه وتم السيفی أرغون شاه، وقرا كز السيفی حكم، وبكبلط الأبريكى ونوروز من الماس وبرد بك السيفی يشبك وأينال السيفی أربك وقانصوه من درویش وتمر از من اينال بای وخشكلى من أركماش، وقيت من حيدر، وقانی بای الرمضانى، وجانی بك من ولی الدين، والماس من قردمش وتمر بای السيفی أربك، وجان بلط من جانم، ومغلبای من قيت وتمر از من أقبای وقرقماش السيفی برد بك ومامش المحمدي وعلى باش السيفی اينال، وبرد بك الإبراهيمی، وسودون من درویش، ومغلبای اليوسفى وأيدكى الشریف وشاد بك من قانصوه وسيبای من جانی بك، وجانی بای المحمدي، وقانصوه من قانی بای، وقانصوه من ولی الدين أيضاً، وطرابای من قانصوه، ويبرس من قانصوه، وخدا بردی الشریف، وشاهين معلم الدبوس، انتهى العدد من ذلك.

واجتمع في هذه السنة من الخصاصكية ثمان مائة خاصكى على ما قيل ثم تزايد عدد الخصاصكية فيما بعد حتى صاروا ألف ومائتى خاصكى .

أما النواب بالبلاد الشامية، فكان ممن قرر بها من أوائل هذه السنة ، وهم قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى نائب الشام ، وسيدباى المعروف بنائب سيسى قرر في نيابة حلب ، وقرر جانم في نيابة حماة ، وقرر دولاتباى قرابة العادل في نيابة طرابلس، وكان قبل ذلك نائب الشام ، وفر ثم عاد وقرر في نيابة طرابلس ، وقرر سودون الدوادارى في نيابة صغد ، وقرر في نيابة غزة قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجمل ، وكان العادل قرره في نيابة حلب وما تم ذلك، وهو الان مقدم ألف بمصر ، وقرر ملاج في نيابة القدس، وقرر أيدكى في نيابة قطية ، ونائب الإسكندرية قانصوه خمسمائة السيفى يشبك الدوادار ، ونائب دمياط شخص من الأتراك يسمى فارس المنصورى عثمان ، فهذا كان حكم النواب بالبلاد الشامية في أوائل هذه السنة ، ثم تغيرت الأحوال من بعد ذلك، وانتقلت النيابات إلى آخرين من الأمراء يأتى الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين ، وهم القاضى بدر الدين محمود بن أجا الحلبي الحنفى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، والقاضى شهاب الدين أحمد ابن الجمالى يوسف ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى صلاح الدين بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر الخزائن الشريفة ، والقاضى يحيى الدين عبدالقادر القصرولى ناظر الجيش كان، وهو الآن ناظر الكسوة الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وشمس الدين محمد بن مزاحم ناظر الإسطنبول الشريف ، ومتحدثاً في جهات الخصاص يومئذ ، من حين توفى ناصر الدين الصفدى ، ثم في عقيب ذلك تولى نظارة الخصاص علاى الدين بن الإمام، وهذه ثانى ولاية، وقد راج أمره في هذه المرة إلى الغاية ، وكان يومئذ القاضى نحر الدين بن العفيف كاتب الممالك السلطانية ، وموفق الدين بن القمص الأسامى ناظر الذخيرة والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وعبد الباسط ابن تقي الدين ناظر الزردخاناه ، والشرفى يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد ، ومحمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وصاحب ديوان الأحباس شمس الدين بن العيسى ، وصاحب ديوان جيش الشام بدر الدين بن الإنباى، وشريكه يوسف

ابن السيرجى . أما الوظائف التى غير هؤلاء فكان ، نقيب الجيش يومئذ الشرفى يونس بن الأقرع ، ومعلم المعلمين يومئذ البدرى حسن بن الطولونى . انتهى ذلك .

فهذا كان ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان وتسعمائة ، ثم انتقلت من بعد ذلك إلى أمریات والوظائف إلى جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين ، يأتى الكلام عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس عشر من المحرم ولم يعلم للحجاج خبر ، ولا حضر المبشر ، فكثرت القيل والقال بسبب ذلك . فلما كان يوم الأحد تاسع عشره حضر هيجان ، وأخبر أن أحوال الحاج مضطربة إلى الغاية ، وإن الجازانى ابن أمير مكة قد أظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، والتف عليه يحيى بن سبع أمير الينبع ومالك بن رومى أمير خليص ، وطائفة من عرب الحجاز يقال لهم بنى إبراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج الشامى فى رابع ، قبل أن يدخلوا إلى الينبع ، فنهبوا الركب عن آخره وقتلوا الرجال ، وأسروا النساء ، وفعلوا مالا فعله تمر لنك لما دخل إلى الشام .

فلما جاءت هذه الأخبار إلى القاهرة اضطربت أحوال الناس لهذه الأخبار ثم انقطعت أخبار الحاج مدد طويلة لم يأت من عندهم خبر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه الموافق لرباع مسرى زاد الله فى النيل المبارك عشرين أصبعا ، ثم أوفى فى يوم الأحد ثامن مسرى ، وزاد عن الوفاء أحد عشر أصبعا ، فكان فتح السد فى يوم الاثنين تاسع الموافق لسابع عشرين المحرم وهو سابق على النيل الماضى بيوم واحد ، والفضل سبعة عشر أصبعا عن النيل الماضى . فلما أوفى توجه الأتابكى قيت الرجبى ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفى صفر فى مستهله نزل الحاج إلى البركة على حين غفلة ، ثم فى يوم السبت ثانيه دخل المحمل إلى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أصطمر من ولى الدين أمير مجلس ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن خاص

بك ، ودخل الحاج وهو في غابة النكد ، بسبب ماجرى على الناس في طريق الحجاز .

وكان من ملخص واقعة الحجاج ، وهو ما استفاض بين الناس ، أن أصطمر أمير الحجاج لما وصل إلى بطن مرو قبل أن يدخل إلى مكة ، لاقاه الجازاني من هناك ، فأحضر إليه أصطمر خلعة وقال له أكنت تستقر أمير مكة أحمل للسلطان خمسين ألف دينار ، فقال الجازاني نعم أنا أحمل للسلطان هذا القدر ، فألبسه الخلعة حتى طمنه ، وقد أظهر العصيان من قبل ذلك ، وجرى منه أمور شتى تم إن أصطمر أرسل في الدس مكاتبة للشریف بركات أخى الجازاني بأن يجمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازاني ، فلما أحس الجازاني بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو ، وكان أصطمر أرشل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازاني لاقى الركب الشامى في رابع ، وجرى منهم ماتقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء ، فلما دخل الحاج إلى مكة وبلغه ذلك اضطربت الأجوال إلى الغاية ، ووقف الحاج بالجبل ، وهم على وجل من الجازاني وعرب بنى إبراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال أصطمر للشریف بركات أخرج معنا ولاقى الجازاني ، فلما خرج الشریف بركات صحبه الحاج ووصل إلى مكان يسمى الدهنة ، فلاقاه أخوه الجازاني في جمع كثير من عرب بنى إبراهيم ، فأرسل الجازاني يقول لأصطمر : لا تدخل بينى وبين أخى ودعنا نقتل في بعضنا ، وخذ أنت الحاج وامض ، فلم يسمع أصطمر منه ذلك ، ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع ، وصار عوناً مع الجازاني ، فاتفقوا مع الشریف بركات ، ودخل أصطمر بينهم ، ونادى في الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عوناً على قتال الجازاني . فاجتمع الجم الفقير من الجمالة العكام والضوية ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى ، وآل الأمر إلى كسرة أصطمر أمير ركب المحمل ، وقتل ممن كان معه من المماليك السلطانية نحو من مائة مملوك ، غير الغلمان والطفش . وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل في ذلك اليوم ونهب كل ما فيه حتى عروا النساء من أثوابهن ، وأخذوا عصايبهن من على رؤوسهن ، وقاسين من الشدة ما لا خير منه ، وتخلف غالب الحاج بالينبع ، وصاروا ينزلون في مراكب من البحر الملح ويدخلون إلى القاهرة بعد مدة طويلة وهم في

أنحس حال . وقاسوا في هذه السنة غاية المشقة ، وجرى عليهم كل سوء . —
وقيل إن الجازاني لم يفحش في حق من بالركب الأول ، كما فعل بمن في ركب
المحمل وقد راعى الناصري محمد ابن خاص بك دون أصطمر ، وكان متأثراً من
أصطمر . فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات إلى مكة وهو مهزوم من أخيه
الجازاني ، فلما رجع من بقي من الحجاج إلى الأزمن وجدوا الآبار قد ردمت
بالحجارة ، فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش . فلما وصلوا بالحجاج إلى العقبة
لاقاهم جماعة من عربان بني لام ، فعوقوهم عن طلوع العقبة . وأفردوا عليهم ثلاثة
آلاف دينار . فنجي أمير الحاج ذلك من الحجاج ودفعها للعرب حتى مكنوهم من
طلوع العقبة ، ودخلوا إلى بركة الحاج وهم في أسوأ حال ، فلما طلع الأمير
أصطمر والناصري محمد بن خاص بك إلى القلعة ، ووقفوا بين يدي السلطان
وبنحها بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازاني وابن سبع ، ثم رسم
بإدخال أصطمر إلى قاعة البحرة ورسم أيضاً على الناصري محمد بن خاص بك
وكل به ، ثم أرسل بالقبض على قاضي القضاة الحنفى عبدالبر بن الشحنة ووكل
به ، وقد وشى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع وأيقظه بأن السلطان
يقصد القبض عليه فأوسع خياله حتى عصاه على ما قيل . وكذلك قبض السلطان
على أزد مرالمهمندار . قيل أن يحيى بن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار
لكل واحد منهم ذنب . واستمر الحال على ذلك .

وفي الثلاثاء خامس صفر توفي جان بلاط المحمدى أحد مقدمى الألوف ،
وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فلما مات دفن في تربة أخيه خاير
بك التى أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته في التقدمة يسيرة ومات
عقيب ذلك .

وفي تاسع صفر رسم السلطان بإخراج أصطمر منفياً إلى ثغر دمياط ،
فنزل من القلعة بعد العشاء وتوجهوا به إلى البحر وسار في مركب إلى دمياط ،
وهو مقيد بقيد ثقيل .

وأما قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة ، فرسم السلطان بنفيه إلى قوص ،
وكان بيت نقيب الجيش هو أزد مرالمهمندار ، فشفع فيهما الأتابكى قيت الرجى ،
ثم بعد أيام أخلع السلطان على القاضي عبد البر ، وأعادته إلى القضاء على عادته .
(م ١٤ — المجلة التاريخية)

وشفع في أزدمر المهندي أيضاً - وأما الناصري محمد بن خاص بك فإنه أقام في التوكل مدة أيام، وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير قرقماس أمير سلاح، وتسلمه من السلطان وشفع فيه حتى حط عنه خمس آلاف دينار. واستمر الناصري عند قرقماس في الترسيم نحواً من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال وأتى إلى بيته وحصل له غاية الضرر.

المقتبس الثاني

أخبار أعمال البرتغاليين

في المداخل الجنوبية للبحر الأحمر

وفيه حضر مبشر الحاج، وأخبر بأن العسكر لما انتصر على يحيى بن سبع توجه إلى مكة ووقف بالجبل، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة، وإن مكة مغلقة.

وأخبر أيضاً أن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند، وإن حسين باش العسكر المتوجه إلى هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل جدة وسور، وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى عدن، فسر السلطان لهذا الخبر، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد، وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركباً، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند، ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة، ويأخذون مائعتهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأزُر من مصر وغيرها من البلاد.

وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذي صنعه الإسكندر بن فليس الرومي، وكان هذا نقبا في جبل بين بحر الصين وبحر الروم، فلأزالوا الفرنج يعبثون في ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح، وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد.

وفي أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد الصعيد، ولم يقع بها في سنة عشر وتسعمائة لما ظهر بالقاهرة.

وفي هذه السنة طلع إلى السلطان شخص يسمى أبو المرافع ، وقال له أنا ألتزم لك بمائتي وخمسين ألف دينار أستخلصها لك ممن أعرفه ولا، تنتطح في ذاك شاتان . فقال السلطان إلى كلامه، وقصد أن يخلع عليه، وشرع في ذلك ، فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك، فرجع والله الحمد .

المقتبس الثالث

وصف هزيمة الجيوش المملوكية في مرج دابق

وفي يوم السبت سادس شعبان أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت، وزلزلت لها الأقطار ، وما ذاك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادر الثاني أحد الأمراء المقدمين ، فذكر فيه أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق إلى أن حصر مغلباي دوادر سكين، وهو في حال النحس ، بزمت أقرع على رأسه ، وهو لابس كبر عتيق دنس ، وراكب على إكديش هزيل ، وقد نهب بركه وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبي من الصلح ، وقال له : قل لأستاذك يلاقيني على مرج دابق ، وأخبر أنه وضعه في الحديد، وقصد أن يحلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرار حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله في قفة على رأسه، وقاسى منه من البهدة مالاخير فيه . فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان ، فقليل إنه أنعم على مغلباي بألف دينار وخيول وقماش وبرك في نظير ماذهب له .

والذي استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلى الظهر ، وركب وخرج من ميدان حلب : يوم الثلاثاء في العشرين من رجب ، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وكان تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حرية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان ، فبات بها .

فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرين رجب، رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب، وهو يوم نحس مستمر، فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان. فصلّى السلطان صلاة الصبح، ثم ركب وتوجه إلى زغزغن وتل الفار، وقيل هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام. فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة، وملوطة بيضاء وعلى كتفه طبر، وصار يرتب العسكر بنفسه. فكان أمير المؤمنين عن يمينته وهو بتخفيفة وملوطة، وعلى كتفه طبر مثل السلطان. وعلى رأسه الصنّجق الخليفة. وكان حول السلطان أربعون مصحفاً في أكياس حرير أصفر على رؤوس جماعة أشراف. وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان ابن عفان رضى الله عنه. وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم: خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام حمراء، والسادة الأشراف القادية ومعهم أعلام خضراء، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام خضراء، والشيخ غيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود. وكان الصبي قاسم بك بن أحمد بك ابن عثمان المقدم ذكره واقفاً بإزاء الخليفة، وعلى رأسه صنّجق حرير أحمر. وكان الصنّجق السلطانى واقفاً خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعاً، وتحتة مقدم المماليك سبيل العثماني والسادة القضاة، والأمير تمرالزرد كاش أحد المقدمين. وكان يمينته العسكر سيباى نائب الشام، وعلى اليسرة خاير بك نائب حلب.

فقبل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب، فهزموا عسكر ابن عثمان، وكسروهم كسرة مهولة، وأخذوا منهم سبعة صنّجق، وأخذوا المكاحل التى على العجل ورمات البندق. فهمّ ابن عثمان بالهروب، أو بطلب الأمان، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، وكان النصر لعسكر مصر أولاً، وياليت لو تم ذلك.

ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال للمماليك الجلبان: لا تقاتلوا شياً واخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال. فبينما هم على ذلك وإذا بالatabكى سودون العجمى قد قتل فى المعركة، وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام، فانهزم من فى اليمين من العسكر. ثم إن

خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة . وأسر الأمير قانصوه بن سلطان جر كس ، وقيل قتل . ويقال أن خاير بك نائب حلب كان موالساعلى السلطان فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة .

وكان ذلك خذلاناً من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر ، فصار السلطان واقفاً تحت الصنجق فى نفر قليل من المماليك ، فشرع يستغيث للعسكر : يا أغوات هذا وقت المروءة ، قاتلوا وعلى رضاكم ، فلم يسمع له أحد قولاً ، وصاروا يتسحبون من حوله شيئاً بعد شئ ، فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا إلى الله تعالى بالنصر . فهذا وقت دعاكم ، وصار ما يجد له من معين ولا ناصر ، فانطلق فى قلبه جمر نار لا تطفى . وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضاً ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر ، وغلت أيديهم عن القتال .

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، فخاف الأمير تمر الزرد كاش على الصنجق ، فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم إلى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فأنج بنفسك ، واهرب إلى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه فى الحال خلط فالج أبطل شقيقه وأرخصى حنكه ، فطلب ماء فأتوه بما فى طاسة ذهب ، فشرب منه قليلاً ، وألفت فرسه على أنه يهرب ، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ، ومات من شدة قهره ، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر . وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه ، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود . وسقط عن فرسه ، ومات من وقته ، على ما قيل من هذه الإشاعة .

فلما أشيع بموته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان ، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان ، والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله .

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر ، ولا وقف له أحد على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلاء ، فكأن الأرض قد انشقت وابتلعت في الحال ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر . فد اسوا العثمانية المصاحف التي كانت حول السلطان بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثماني وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب في عسكر مصر ، وزال ملك الأشرف الغوري على لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير ، بعد ماتصرف في ملك مصر وأعمالها والبلاد الشامية والحلبية وأعمالها ، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فإنه ولي ملك مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فكانت الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك .

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر ، وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى ، فقتل في تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر ما لا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة ، وهم الأتابكي سودون العجمي ويبرس قريب السلطان وأقباي الطويل ، وأسر قانصوه بن سلطان جر كس ، وقتل سيباي نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباي نائب صنف وأصلان نائب حمص ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء طلبخانات وعشرات وخاصكية وأكثر من قتل من عسكر المماليك القرانصة ، ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل ، فإنهم لم يقاتلوا في هذه الواقعة شيئاً ، ولا ظهر لهم فروسية ، فكأنهم خشب مسندة وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ، وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميراً . وقتل في ذلك اليوم القاضي ناظر الجيش عبد القادر القصري ، وجماعة كثيرة من الجند يأتي الكلام على ذلك في موضعه ، فكانت ساعة يشيب منها الوليد ، ويذوب لسطوتها الحديد ، فصار في مرج دابق جثث مرمية ، وأبدان بلا رؤوس ووجوه معفرة في التراب قد تغيرت محاسنها . وصار في ذلك المكان خيول مرمية موتى بسروج مغرق وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ ، وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت إليها أحد ، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك .

المقتبس الرابع

السلطان قانصوه الغورى

فى تقدير المؤرخ محمد أحمد بن إياس

ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف الغورى ، فإنه خرج من القاهرة يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر من هذه السنة ، واستمر نافذ الكلمة وافر الحرمة إلى أن دخل حلب وأقام بها ، وأرسل إليه ابن عثمان عدة قصاده، وهو تارة يظهر الصلح وتارة يأبى ، والسلطان مسلوب الاختيار معه فى جميع ما يرسل يقوله له ، ويخلع على قصاده الخلع السنية، وينعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، إلى أن حضر مغلباى دوا دار سكبن الذى كان أرسله إلى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده، وهو فى غاية البهدة كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا إلى ابن عثمان وهو لابس آلة الحرب باللبس الكامل ، فشق ذلك على ابن عثمان وبهده . فلما حضر إلى عند السلطان، وأعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح ، فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان قد أوصى إليه ، فنادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة ، وهم كالنجوم الزاهرة، من آلة السلاح والخيول الغابرة، وكل فارس مقوم بألف راجل من عسكر ابن عثمان . فتوجهوا إلى مرج دابق، ونزلوا به ، فأقام السلطان بمرج دابق إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب من هذه السنة .

فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور، وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه إلى قتال ابن عثمان، فكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله تعالى هذا الأمر وعادت الكسرة على عسكر مصر .

فلما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يرجع إلى حلب ، فلما ألقت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعتراه سارقة من الرجفة ، فأغشى عليه ، فسقط من على ظهر فرسه إلى الأرض ، فطلعت روحه فى تلك الساعة، وهو

ملقى على الأرض ، فرجعت عليه عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان والبلدانية والماليك ، وتركوا جثته على الأرض ، فكان آخر العهد به ، ولم يُرد له جثة ولا رأس ، ولا يعرف له مكان فكانما ابتلعت الأرض ، ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب أنه لم يدفن في مدرسته التي صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، فصار مرمياً في البراري ، وقد تناهشته الذئاب والثمورة ، فمات وله من العمر نحو ثمانى وسبعين سنة . ومن العجائب والغرائب ، أن الطواشى مختص ، الذى كان بنى أساس مدرسة الغورى أولاً وأخذها منه (الغورى) غصباً في المصادرة ، سأل الغورى أن يجعل له في المدرسة مكاناً يدفن فيه إذا مات ، فمنعه الغورى من ذلك ، فمنع الله تعالى الغورى من الدفن في مدرسته ، وصار لا يعرف له مكان قبر ، فعد ذلك من العبر ، انتهى .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشر سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

وكانت صفته طويل القامة ، غليظ الجسد ، ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً .

وكان ملكاً مهيباً جليلاً مبعجلاً في المواقب ، مليء العيون في المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال ، لكان خيار ملوك الجراكسة ، بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان يوكب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطاني ، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان ، فيتزل من السبع حدرات ، وقدامه طوالتان خيل ، بسروج ذهب وكنائش ومياتر زركش .

وكان يكثر في الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض .

وكان يشد في وسطه حياصة ذهب، عوضاً عن الشد البعلبكي . وكان يلبس في أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر ، والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، وكان ترفاً في مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل إلى أبناء العجم ، وربما كان يميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشره الأعاجم . وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الطياريات المغردة ، ونشق الأزهار المعطرة والبخور . وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهماً في الأكل ، وكان يغوى طيور السموع ، وكان يعرف بقا نصوه من ببرد الغورى .

واستمر يرتع في ملك مصر على ما ذكرناه من التمتع والرفاهية ، وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة، والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده، لم يختلف عليه اثنان، إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم، فخرج إليه، وجري له هذه الكاينة العظمى التي لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك . وكان ذلك في الكتاب مسطوراً .

وأما ما عد من مساوئه ، فإنها كثيرة لا تحصى ، منها أنه أحدث في أيام دولته من المظالم ما لا حدثت في سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل . ومنها ما قرره على الحسبة في كل شهر، وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار، فكانت السوق تباع البضائع بما تختاره من الأثمان، ولا يقدر أحد يكلمهم ، فيقولون : علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك . وقرر على دار الضرب ما لا له صورة في كل شهر فكانوا يصنعون في الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهاًراً ، فكان الأشرف في الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوي اثنا عشر نصفاً . وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين، فلعب في أموال المسلمين، وأتلف المعاملة، وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي فمشى على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ،

فكان النصف الفضة ينكشف في ليلته ، ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته إلى أن مات ، وقد ورد في الحديث الشريف من غشنا فليس منا .

ومن مساوئه أنه كان سجن الرئيس كمال الدين بن شمس المزين بالمقشرة ، وأقام بها أياماً ، وكان من المقربين عنده .

ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ، ويأخذ مال الأيتام ظلماً ، ولو كان للميت أولاد ذكور وأناث ، فيمنعهم من ميراثهم ، ويخالف أمر الشرع الشريف .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ، يقرر عليهم الأموال الجزيلة ، فتفرده الكشاف ومشايخ على بلاد المقطعين والأوقاف ، فيأخذ كل منهم المثل أمثال فضعف أمر الجند من يومئذ ، وتلاشى حال البلاد .

وكان يولى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية ، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة في كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف ، فكان كل أحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذي يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذي أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع ، وأخرب البندر .

وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج .

وكان كل أحد من الأراذل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدر معلوماً يؤخذ على كل أردب ، وهي ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى خرج على

بيع الملح ، وجدد في أيامه عدة مكوس من هذا النمط ما لا فعله هناد في زمانه .

ولم يفتته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله ، ولا سيما ما جرى على الشيرازي والحليبي التاجر وغيره من التجار ، وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه ما لا له صورة ، ودخل في جملة ديوان حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، منهم القاضي بدر الدين بن مرهز كاتب السر كان ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وجماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، ماتوا في سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاتيهم ورزقهم من غير سبب ، وأعطى ذلك إلى مماليكه الجلبان .

ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك .

ومنها أنه أرسل فك رخام قاعة ناظر الخاص يوسف التي تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام في قاعة البيسرية التي بالقلعة .

ومنها أنه قطع الممتدات التي كانت تساح بها الناس من الديوان المفرد من تقادم السنين ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضي ، فكانت المقطعون تقاسى من البهدة ما لا خير فيه .

ثم تزايد شحه حتى صار يحاسب السواقين الذين في سواقي القلعة ، والنخولة الذين في سواقي الميدان ، بحملة روث الأبقار وما يتحصل من ذلك كل يوم ، وقرر عليهم بيعها بمبلغ يردونه للذخيرة .

وكان أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه في غاية الضنك لا يغفل عنهم من المصادرات ساعة واحدة، وصادر حتى المغاني النساء من الرؤساء .

وكان من حين توفي الأمير خاير بك الخازندار يباشر أمر ضبط الخزانة

بنفسه ، ما يدخل إليها وما يخرج منها ، ويعرضون عليه الأمور في ذلك جميعه من الوصولات بما يصرف من الخزائن في كل يوم . فكانت هذه الأموال العظيمة التي تدخل إليه يصرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف به الحيطان بالذهب والسقوف ، وهذا عين الإسراف لبیت مال المسلمين .

وكان يهرب من المحاكمات ، كما يهرب الصغير من الكتاب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرض ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمور القتلاء ، ويدفع الأخصام إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليهم .

وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم إلا قليلا ، فيوقف أشغال الناس بسبب ذلك كله . حتى كانت تشتري العلامة العتيقة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوائج . ولو شرحنا مساوئه كلها لطال الشرح في ذلك . انتهى .

المقتبس الخامس

اسماء بعض المنقولين من القاهرة إلى إسطنبول

بأمر السلطان سليم الأول العثماني

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة ومضت على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرى فيها أمور شنيعة لم تجر في سالف الأزمان .

وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والممالك السلطانية في فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر ممن ليس له ذنب ، فراح ظلما ، فقتل من الناس ما لا يحصى عددهم ، ولعب السيف في أهل مصر سبعة أيام .

وقتل فيها ثلاثة سلاطين ، وهم الأشرف الغورى ، والأشرف طومانباى ، والظاهر قانصوه ، قتل في البرج بشعر الإسكندرية . وتغيرت فيها ثلاث دول

وخرب فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش مالا يحصى قدره ، وتيتم فيها أطفال ، وترمل فيها نساء ، وجرت فيها مفاسد كثير مالا يسمع بمثليها .

ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه إلا في زمن البخت نصر البابلي ، فإنه أخرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا ، فكان النيل يطلع وينطبط وينفرش على الأرض قلا تجد من يزرع أراضى مصر عليه ، وهذا كله كان بتقدير الله تعالى فيما جرى على أهل مصر ، ونسأل الله حسن الخاتمة ورد العاقبة إلى خير .

وقد وقفت على كتاب من تأليف الشيخ جلال الدية الأسيوطى رحمه الله عليه ، ذكر فيه أن في هذا القرن يبدوا الخراب في مصر من سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر إلى سنة خمسين وتسعمائة ، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى يفنى من أهل مصر نحو النصف ، وقد ظهرت علامة ذلك في هذه السنة .

ومن أعظم مساوىء سليم شاه ابن عثمان خروج أعيان رؤساء الديار المصرية ، وتفيهم إلى إسطنبول ، ونحن نذكر منهم ما تيسر ذكره .

ذكر من توجه في هذه السنة إلى القسطنطينية

من أعيان رؤساء الديار المصرية ، وهم مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل وهما أبو بكر وأحمد ، والمقر العلاءى على بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء الجنا ب الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والجنا ب الناصرى محمد بن العلاءى على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى .

ومن الأمراء يبردى من كسباى الذى كان باش المجاوين أحد الأمراء العشرات ، وقرا كز الجكمى أحد العشرات محتسب مكة ، وقانصوه القيم باش المدينة الشريفة ، وجماعة من الممالك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة ، وجانى بك دوا دار الأمير طراباى .

ومن أولاد الناس الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم

المعلمين ، ويوسف بن أبي الفرج الذي كان نقيب الجيش ، ويحيى بن نوكار الذي كان دوا دار الوالى .

ومن نواب السادة الشافعية الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن روق ، والشيخ شمس الدين الحلبي ، والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ كمال الدين بن مظفر ، والشيخ بدر الدين البلقيني ، والشيخ برهان الدين الأنباسى ، والشيخ شمس الدين الحجازى ، والشيخ شمس الدين ابن الآدمى الدمياطى ، والقاضى شمس الدين المقسمى العزيزى ، والسيد الشريف الحجار ، والقاضى ولى الدين البتنونى بن الشارمساحى ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفية الشيخ زين الدين الشرقاشى ، والسيد الشريف البردينى ، والشيخ بدر الدين بن الوقاد السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد ابن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد الفيشى ، والشيخ شهاب الدين الأبتادى .

ومن نواب السادة الحنابلة الشيخ شهاب الدين الهيتمى ، والشيخ جلال الدين الطنيدى ، والقاضى جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه إلى إسطنبول من السادة المباشرين السلطانية ، وهم المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين بن كمال الدين ، والجناب شمس محمد بن القاضى ، وصلاح الدين بن الجميعان ، والقاضى عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجميعان كاتب الخزائن الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر ابن الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة ، والشمس محمد بن البارزى ، والقاضى ابو البقا السيرجى من ديوان جيش الشام .

ومن كتاب الماليك : شمس الدين محمد بن نحر الدين كاتب الماليك ، وسعد الدين ، وفرج ، وكريم الدين وفتح الدين من أولاد ابن نخبة وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ويحيى الدين بن بهاء الدين ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم الشرايشى ناظر أوقاف الزمامية ، وشمس الدين

محمد من أولاد ابن البقرى ، وأولاده ، وأبو الحسن بن الرقيق ، وعبد العظيم بن أبي غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ، وعبد الباسط بن تقي الدين ناظر الزردخانه ، وولده زين ، وتاج الدين ، وعلى المرجوشى ، وأخو يونس الأستاذار ، وابن الزكى ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وأبو السعادات ، وأفضل الدين المنوفى ، وناصر الدين الغزى الموقع ، وأحمد بن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وولى الدين ناظر المواريث وعامل المواريث ، وسعد الدين أخو علاى الدين ناظر الخصاص ، وبركات المنوفى ، وسعد الدين المنوفى أيضاً ، ومحمد بن الكوير ، وأحمد بن حشو الطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين صهر عبدالفتاح ، ومحمد بن أبي غالب ، وصفى الدين ، وابن الهيصم ، وتاج الدين بن البقرى ، وشقيقه ، وبركات بن سلما ، وكال الدين الناصرى ، وحامل المزة زين ، وعبد الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن خازوقة ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر أمير آخور كبير ، وآخرون من المباشرين ما يحضرنى اسمائهم الآن .

ومن أعيان الناس المهتار محمد النجولى مهتار السلطان الغورى ، والمهتار سليمان ، ومحمد بن يوسف الدين كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين جلبي السلطان الغورى ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية يحيى بن يونس ، ومحمد العادلى الشهير بابن البدوية ، وزين العابدين بن محمود الأعور ، وجماعة من السيوفية الصياقلة والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الأسمر ، وأحمد الديروطى وأولاد ابن نفيس .

ومن تجار الوراقين ناصر الدين الماوردى ، ومحمد المسكى الأسود ، وعلى بن خشيم .

ومن تجار سوق مرجوش ابن الشقيرة ، وأبو الفوز بن الحصانى ، وبدر الدين الغزولى شيخ سوق الغزل .

ومن تجار المغاربة الشيخ سالم ، وسعيد التاجورى ، وسعيد اللبدى ،

وأبو سعيدة، وآخرون لم يحضروني أسماؤهم من التجار بأسواق القاهرة وغيرها من التجار الذين توجهوا إلى إسطنبول .

ومن الخدام مقدم المالك سنبل العثماني ، ونائبه جوهر الرومي ، وقيل إن جوهر توجه إلى القدس بطالا ، وآخرون من الخدام والسقا .

ومن البرددارية كمال الدين برددار أمير كبير ، وعبد القادر ، وابن المنقار ، وشهاب الدين أحمد الجارحي قيل مات من الرجفة قبل سفره بأيام ، وابن الشيخ ، ومحمد بن رسلان ، وناصر الدين إسماعيل ، ومحمد الكاتب ، وأبو بكر ، وابن السميني ويحيى بن يحيى ، وبركات ابن المبيض ، ومحمد بن الجبان ، وبركات النائب ، وسعد الدين البحلاق ، ويحيى مقدم الخاص ، وحسن نائب البرماوى ، والسوهاجى ، ومحمد قطاره ، ومحمد بن فرو شيخ جهات المطرية ، وآخرون ما يحضروني أسماؤهم الآن .

ومن رؤس النواب فرج بن البريدى رأس نوبة حجاب الحجاب ، وآخرون من رؤس النوب ، ومقدمين السقاين ، عبيد ، وأبو الخير ، وابن فريخ الفار .

وتوجه إلى إسطنبول جماعة من البنائين والنجارين والحدادين ، والمرخين والمبلطين والخراطين ، والمهندسين والحجارين والفعلة جماعة كثيرة ما يحضروني أسماؤهم الآن . وزعموا أن الخندكار ابن عثمان يقصد أن ينشئ له مدرسة في اسطنبول ، مثل مدرسة السلطان الغورى التى فى الشرايشين .

وتوجه إلى إسطنبول جماعة من طائفة اليهود والسامرة ، ومن طائفة النصارى بانوب الكاتب فى الخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ، ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ المكين السكندرى وولده ، وآخرون من النصارى واليهود ما يحضروني أسماؤهم .

فيقال إن مجموع من خرج من أهل مصر وتوجه إلى أسطنبول دون آلاف إنسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وفيهم نسوان أيضاً وأولادهم صغر رضع ، وشيء كبار .

ولم تقاس أهل مصر شدة من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولا سمعت

بمثلها في التواريخ القديمة ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا : ففارقت الناس أوطانها وأولادها وأهاليها وتغربوا من بلدهم إلى بلد لم يوطئوها قط ، وخالطوا أقواما غير جنسهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكانت سنة مشومة على أناس ، ومباركة على أناس ، وسعدت فيها أناس ، وتعست فيها أناس . وكانت سنة مباركة على المباشرين الذين بمصر ، وصاروا هم الملوك يتصرفون في المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما ما فعلوه في جهات الشرقية والغربية وجهات الصعيد . ووضعوا أيديهم على رزق الناس والإقطاعات ، ثم استدرجوا إلى أخذ أموال الأوقاف ، وصار ليس على يدهم يد يفعلون ما يشاؤون من هذا النمط ، فغنموا في هذه السنة أموالا جزية من البلاد مما أخذوه من خراج الناس ، فكان مجيء ابن عثمان إلى مصر رحمة في حق المباشرين وغيرها من الناس ممن أودعوا عندهم الأمراء والعسكر الأموال والقماش وقتلوا في الواقعة . فقعدوا على تلك الودائع ، وراحت على من راح . فكان كما يقال في المعنى : مصائب قوم عند قوم فوائد . انتهى ذلك .

المقتبس السادس

اسماء بعض العائدين

وفي هذا الشهر قدم جماعة كثيرة من اسطنبول ، ممن كان قد نفى إليها من إعيان الديار المصرية . منهم ، كمال الدين بن معين الموقع ، وابن نصر الله . مرعى الذي كان من جماعة الأتابكي سودون العجمي ، وأحمد الصيوتي .

وحضر محمد بن فرو شيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن قطارة الذي كان من جماعة المحتسب ، وحضر محمد بن إبراهيم الذي كان متحدثا على الزمامية . وحضر محمد بن القاضي نخر الدين ابن العمريطي ، وحسام الدين بواب الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضرني اسمائهم الآن ، والكل فروا من أسطنبول من غير إذن من الخندكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفية والحدادين والنجارين والبنائين والمرخين ،
وغير ذلك ممن كان توجهه اسطنبول . فحضروا الكل هاربين من غير علم
الخنذكار .

فلما حضروا اشيع بموت ابن شقيقة التاجر الذى من سوق مرجوش ،
وأشيع بموت جماعة كثيرة هناك من أعيان أهل مصر .

وقبل ذلك قدمت الأخبار بوفاة جاني بك داوادار الأمير طراباي ، وكان
من وسائط السوء ، ومحمد بن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وكان من وسائط
السوء أيضا . وتوفي محمد المسكى الذى كان من سوق الوراقين . وتوفي هناك
جماعة كبيرة ما يحضرني اسمائهم الآن .

د. محمد مصطفى زيادة

نظراً لوصول مواد نقد الكتب وأنباء الندوات التاريخية في وقت
استبحال معه ظهور محتوى هذه المواد في هذا العدد ، رأت لجنة التحرير
تأجيل طبع هذه المواد للعدد القادم ، وهو على أية حال عدد خاص بندوة
التاريخ القومى التى انعقدت بقاءة المحاضرات بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية
فى ديسمبر سنة ١٩٦٥ . بالاشتراك مع مركز التاريخ القومى .

obeyikahna.com